

# أَوْدَسَا فِي الْعُصُورِ الْمُسْطَقَى

س. وُرن هُلسْتِر

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشاذلي



# أَوْرَبَا فِي الْعُصُورِ الْوُسْطَى

س. وُرن هُليستَر

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشاعر

كلية الآداب - جامعة المنوفية

...

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية





## مقدمة المترجم

بِعون الله وتوفيقه أقدم للدارسين فى الجامعات والى المثقفين كتابا مترجما يتحدث عن تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . والواقع أن هذا الكتاب يمثل اضافة جديدة ومهمة الى مكتبتنا العربية . اذ من النادر جدا أن يجد الباحث أو القارئ المثقف كتابا عربيا مؤلفا يتحدث عن تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى باستثناء كتاب أستاذى الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - صاحب مدرسة العصور الوسطى ، فى العالم العربى - وكتاب سيادته يقع فى جزئين ، وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ الكريم من تأليف الأستاذ الأمريكى المعاصر س. ورن هولستر C. Warren Hollister وعنوانه Medieval Europe .

والواقع ان الضرورة الملحة فرضت على القيام بنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية لأهميته القصوى بالنسبة لتلاميذى الذين يدرسون تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، الذين وجدوا صعوبة فى الالام بنظرة عامة عن تاريخ أوروبا فى تلك العصور لتعذر وجود كتاب جامعى موجز دون اخلال أو مطول فى غير اطناب .

واترك للقارئ المثقف وللطالب الجامعى الفرصة فى التعرف على محتويات الكتاب . ولا يخفى على احد أهمية الجهد الذى بذل فى ترجمته .

دكتور محمد فتحى الشاعر

بورسعيد ٨ يوليو ١٩٨٨ م



## فاتحة الكتاب

أن الغرض من هذا البحث الموجز في تاريخ غرب أوروبا في العصور الوسطى هو أن يلم به الطالب المبتدئ في الكلية الجامعية ، أو القارئ العام الذي يرغب في معرفة مجمل واف عن تلك الفترة الزمنية ، وعند استخدام هذا الكتاب في كلية ، أو في الدراسات الجامعية المتعلقة بالمحضارة الغربية أو التاريخ العام ، فإن كونه كتابا موجزا يعطى قسحة من الوقت للقراءات الاضافية في المصادر ، أو في الأبحاث الأكثر تعمقا في دراسات تالية متعلقة بموضوعاته .

وقمت بكتابته ليفي بالحاجة التي فرضت نفسها على دون توقع ابان القائي للمحاضرات : وهي أنه لا بد أن يكون هناك كتاب على شكل نواة يمكن أن تتجمع حوله القراءات الاضافية المتنوعة . وهو نظرة عامة عن تاريخ العصور الوسطى دون أن يكون موجزا أو موسوعة صغيرة .

وفي اعتقادي ان هذا الكتاب لا بد وأنه جدير بأن يحظى بالثقة لأنه كتاب موجز ثقافي . ويجب أن يكون الدارس قادرا على الاعتماد على التفسيرات التي وردت بالكتاب ، و التي تمثل استنتاجات لها مكانتها ، أو على الدراسات الحديثة ، والتي تفوق الافتراضات العلمية للمؤلف .

وعلى اية حال ، فإن الدارس سيحظى بالمتعة من هذا الكتاب لو جود تنظيم واضح للمعلومات التاريخية به ، فضلا عن الاحساس بعنصرى الحيوية والاثارة . واخيرا فلن يكون الدارس مجبرا على قضاء معظم وقت فرائته فى سرد للأحداث التاريخية . ويجب أن يكون الكتاب طويلا بالقدر الذى يكفى لتقديم فكرة شاملة عن فترة تاريخية شهيرة . وأن يشير الى انجازات تلك الفترة الاقتصادية ، والفكرية ، والثقافية . بالاضافة الى تطوراتها السياسية . على أنه يجب أن يكون قصيرا بالقدر الذى يسمح للدارس بالاطلاع باستفاضة على المؤلفات الاضافية ، وان يقوم

خاصة بتعمق ، حتى يكون على بينة بالموضوعات التى تثير الجدل حول القضايا التاريخية الشهيرة ، وأن يبحث فى بعض المصادر المعاصرة • ويوجد فى نهاية كل قسم من اقسام الكتاب الثلاثة عينة تخصصية اضافية مفيدة • ومعظمها مطبوعة من المراجع المعلق عليها بالحواشى •

## المقدمة

منذ مائة عام مضت كانت هناك نظرة شاملة الى تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى على أنها « عصور ظلام » . وكان هناك اعتقاد بأن الفرد فى غرب أوروبا ظل يغط فى سبات عميق عند سقوط القسم الغربى من الامبراطورية سنة ٤٧٦ م ، الى أن استيقظ أخيرا ، مثل ريب فان وينكل Rip Van Winkle ( ١٤ - ١٧ م ) ، عند انبلاج فجر النهضة الإيطالية . والواقع أن قادة الحركة الانسانية للنهضة الإيطالية فى القرن الخامس عشر هم الذين ابتكروا هذا التعبير لأول مرة على الصورة الكئيبة عن أجدادهم الذين عاشوا فى العصور الوسطى . وتكرر هذا التعبير على يد المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر الميلادى ، وكذلك على يد الفلاسفة الذين قادوا حركة الاستنارة الفلسفية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر . لقد تم ابتكار مصطلح « العصور الوسطى » للدلالة على فترة تاريخية طويلة لها جوانبها الروحية ، والثقافية ، وتفصل بين العصور القديمة بحضارتها الاغريقية والرومانية وبين عصر النهضة ، وبدأت على أنها لم تكن جديرة باسم خاص بها . لأنها كانت فترة كان فيها بربريا « أو قوطيا » ألف عام من الظلام - ألف عام دون وجود حمام .

وفى أيامنا هذه ، فإن وجهة النظر هذه صارت مرفوضة لضعف الثقة بها ، بالرغم من أنها مازالت قائمة بين أنصاف المتعلمين . فلقد اثبتت أجيال عديدة من العاملين بالدراسات التاريخية المتخصصة بوضوح أن العصور الوسطى كانت بمثابة فترة من الزمان تميزت بالحياة الهائلة والابداع المتخصص عن التفكير العميق . ذلك لأن الفترة التاريخية التى ظهر فيها توما الأكوينى Thomas Aquinas ودانتسى Dante ونوتردام الباريسى Notre Dame de Paris والمواثيسو Chartres والبرلمان ، والجامعة ، من الصعب أن توصف بأنها فترة « ظلام » أو « عدم تحضر » .

ومع ذلك ، فمزال الكتب الدراسية تردد دون توقف أن

الحياة فى أوربا العصور الوسطى وأمريكا الحديثة شاسع ، وأن بعد المناخ الفكرى فى العصور الوسطى عن المناخ الفكرى الحالى كان هائلا - ولقد تعلمت أعداد يصعب حصرها من الدارسين كيفية الكشف عن وجوه الخلاف بين النظام الاقطاعى ، والنظام الديمقراطى ، والخلاف بين الفكر فى العصور الوسطى والفكر الحديث . وبين « عصر الايمان » ، وعصرنا الحالى : وهو عصر التكنولوجيا ، أو الشك ، أو علم الضبط والتنظيم Cybernetics . تلك حقائق لاريب فيها الا عند القلة ، ويبدو أنه ليس من الضرورى أن نسخر من وجهة النظر القائلة بأن أعلام السياسة والثقافة فى أيامنا هذه لا يرقون الى مستوى القديس برنارد St. Bernard أو البابا جريجورى السابع Gregory VII على أن مكنم الخطر الخفى فى فهم أوربا فى العصور الوسطى لا يشكل فشلا فى التعرف على كل تناقضاته الواضحة بالنسبة للمجتمع الحديث . وانما الخطر فى أنه عندما نسهب عن قصد فى تلك الخصائص المتغيرة ، قد يفتونا الانتباه الى حقيقة دامغة وهى القائلة بأن العصور الوسطى تشكل طورا باكرا فى حضارتنا المعاصرة . فأحد الفوائد العظمى لدراسة التاريخ الوسيط هى اتاحتها لفرصة دراسة مراحل النشأة ، والتطور ، والنضوج الباكر لمجتمع غرب أوربا . وعندما نبحث فى تاريخ العصور الوسطى ، فاننا نعمن النظر فى أسسنا الثقافية . فلقد نجحت الحضارة الغربية ، بحلول القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى احراز مستوى ثقافى يقارب ذلك المستوى الذى كان موجودا فى الحضارات العريقة الماضية ، ويضاف الى ذلك أن هذه الحضارة الغربية أتاحت لها امكانية ضخمة لاحراز تطور بعيد المدى . ولقد شاء القدر ، فى قرون تالية ، أن تتفوق هذه الحضارة بكثير على انجازات الماضى ، وأن تعمل على أحداث تحولات عالمية سواء تجاه الخير أو الشر .

ظهرت الحضارة العربية فى العصور الوسطى الباكرة ، بيد أن جذورها تعود الى العصور القديمة . وعلى شاكلة الحضارتين العظيمتين فى بيزنطة والعالم الاسلامى . اللتان أثرتا فيها فى مجالات شتى ، فان أوربا فى العصور الوسطى كانت نتاجا لحضارة البحر المتوسط العظيمة التى سبقتها - وهذه الحضارة الغربية هى ابنة حضارتى اليونان والرومان - بيد أن الماضى الكلاسيكى لم يكن بآية حال المقوم الوحيد الذى عمل على تكوين أوربا .

فحضارة العصور الوسطى نشأت من امتزاج ثلاثى لمراثات ثقافية ، متباينة ومؤثرة : التراث الاغريقى - الرومانى ، واليهودى - المسيحى ، والجرمانى . ولقد تمت عملية الانصهار الثقافى ، والتي تمخض عنها تطور أوروبا فى العصور الوسطى بالتدريج ، وعلى فترات متفاوتة ، ولكى نتتبع عملية هذا التحول ، فانه يتحتم علينا أن نبدأ قصتنا قبل انهيار السلطة الرومانية فى الغرب بوقت طويل . فيجب أولا أن نعود الى الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها .





## القسم الأول : روما : العظمة والتدهور

١ - الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها :

- القرنين الأولين للميلاد .
- الأدب والفكر الرومانى .

٢ - المسيحية : الخلفية ، الانتشار ، والانتصار :

- الدين الرومانى .
- الطوائف ذات الطقوس السرية .
- الأفلاطونية المحدثة .
- ظهور المسيحية .
- الكنيسة الباكرة .
- المسيحية والحضارة اليونانية .
- المسيحية والامبراطورية .

٣ - الامبراطورية الرومانية المتأخرة :

- القرن الثالث الميلادى .
- إصلاحات دقلديانوس .
- عهد قسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) .
- الامبراطورية المسيحية .
- علماء لاموت الكنيسة اللاتينية .

٤ - تدهور روما والغزوات الجرمانية :

- التدهور والمسيح .
- الشعوب الجرمانية .
- غزوات البرابرة .
- أوروبا سنة ٥٠٠ م .



## ١ - الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها :

القرنين الأولين للميلاد :

خلال القرنين الأولين للميلاد منذ اعتلاء أغسطس Augustus  
للعرش حتى وفاة ماركوس أورليوس Marcus Aurelius  
( حوالى ٢١ ق م - ١٨٠ م ) ، اتسعت حدود الامبراطورية الرومانية شيئا  
فشيئا ، لتشمل منطقة شاسعة من نهر الفرات الى المحيط الأطلسى . ومن  
المناطق الصحراوية بشمال أفريقيا الى نهر الدانوب والراين ، وتلال شيفوت  
Cheviet Hills بشمال بريطانيا .

ووقع عبء الدفاع عن الحدود المترامية الأطراف على جيش بلغ تعداده  
حوالى مابين ثلاثمائة ألف الى خمسمائة ألف مقاتل ، وقام الامبراطور بوضع  
المبادئ التنظيمية والتخطيطية ، وتتولى المهمات العسكرية قوات الرجالة  
Infantry Legions لفترات طويلة الأمد ، هذا بالإضافة الى القوات  
المساعدة الأجنبية التى كانت من الرجالة والخيالة خفيفى العدة . والذين  
كانوا يحصلون على حق المواطنة الرومانية فى نهاية فترة الخدمة الطويلة .  
وكان الجيش يتمركز على طول حدود الامبراطورية باستثناء حرس قليل  
العدد . ويتمتع بمزايا خاصة ، لتأمين سلامة الامبراطور ، وعرف هذا  
الحرس باسم الحرس البريتورى Praetorian Guard . وتم ربط  
مدينة روما العاصمة بالأقاليم النائية بفضل شبكة المواصلات التى وضعها  
موضع التنفيذ نظام الطرق الرائع . ولما كانت هذه الطرق معبدة بالحجار  
متينة لذلك ظلت باقية بقاء روما نفسها . وسهلت هذه الطرق تدفق التجارة  
بالإضافة الى تنقلات الجنود ، وظلت صالحة للاستعمال لعدة قرون بعد  
السلام الرومانى Roman Peace الذى حظته الفوضى السياسية  
والاجتماعية وغزوات البرابرة .

ولم يكن شريان المواصلات الرئيسى ، الذى يخدم التجارة مبنيا من  
الأحجار ، وانما كان البحر المتوسط الذى أحاطته الأقاليم من جميع الجهات  
التابعة للامبراطورية ومن ثم أطلق عليه الرومان بحب واعتزاز بصرتا

**Mare Nostrum** ان كانت الأساطيل الرومانية القوية تحرس البحر المتوسط ، وجعلته فى مأمن من القراصنة لأول مرة فى العصور القديمة . وبذلك تمكنت السفن المصممة بالبضائع من الإبحار دون أن يعترض سبيلها أحد بين أرجاء الامبراطورية المتعددة . وفى ذلك الحين ، وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل على الإطلاق ، كانت الحدود الشاسعة للامبراطورية خاضعة للارادة الحكومية الجيدة ، والتي عملت على حفظ النظام ، والرابطة بفضل الطرق البرية والممرات المائية التى حظيت بالأمن والأمان .

وتحت مظلة السلام الرومانى انتشر الرخاء الاقتصادى ، وكثرت المؤسسات الاجتماعية . وانتعش التراث الثقافى ، وانتشر فى كل مكان عبر الامبراطورية . ونظرا لأن الأقاليم البعيدة صارت تأخذ الطابع الرومانى بشكل مضطرب . لذلك تغيرتا معنى كلمتى « روما » و « رومانى » رويدا رويدا . فمتذ عهد الامبراطور أغسطس ( ٣١ ق م - ١٤ م ) ، لم يعد هذين التعبيرين يطلقان على العاصمة الرومانية وسكانها قحسب ، وإنما امتدا ليشملا الجزء الأكبر من ايطاليا . وبمرور العقد تلو الآخر فى السلام الرومانى امتدت المواطنة الرومانية تدريجيا أكثر فأكثر الى الأقاليم الريفية حتى وصل الأمر الى أن حصل كل ساكن حر فى الامبراطورية على حق المواطن الرومانى سنة ٢١٢ م . بل ويبدو أن الأباطرة أنفسهم فى ذلك الحين ، على غير المألوف ، كانوا يميلون الى الاقليمية ، فتراجان **Trajan** وهادريان **Hadrian** والذان ربما كانا من أعظم أباطرة القرن الثانى ، كانا من أهالى أسبانيا . وبمرور الوقت اكتسب تعبيرى « روما » و « رومانى » دلالة عالية . فالملك الاغريقى فى القسطنطينية ، والملك الفرنجى فى آخن **Aachen** ، والملك السكسونى فى ألمانيا ، كلهم جميعا ، أشاروا الى أنفسهم بأنهم « أباطرة رومان » ، وذلك فى قرون تالية .

وكان ظهور المدن فى أنحاء الامبراطورية احدى النتائج الرائعة لعملية اضماء الصبغة الرومانية . وفى ذلك الحين انتشرت دولة - المدينة ، وهى الظاهرة السياسية المميزة للعالم الاغريقى الرومانى ، وفى بلاد الغال **Gaul** ، وأسبانيا ، وعلى امتداد نهر الراين ، والدانوب ، وحتى فى بريطانيا البعيدة . واحتفظت المدينة بقدر طيب من الحكم الذاتى المحلى . وسيطرت بشكل طبيعى على المناطق الريفية الواقعة فى نطاقها . وبمعنى

آخر ، كانت المدينة الوحدة الأساسية للإدارة المحلية ، إذ ظلت حكومة الدولة الرومانية منسوبة للمدينة بصفة أساسية . على أنه من ناحية التناقض الظاهري ، بدت مدن الامبراطورية ، وبخاصة تلك التي في الغرب على أن لها أهمية قليلة نسبيا كمراكز تجارية وصناعية . ولم تمارس روما أى ثورة صناعية ، وبالرغم من أن ازدهار الصناعات بالمدن كان على نطاق ضيق وبخاصة في الشرق ، فإن اقتصاد الامبراطورية ظل زراعيا بصفة أساسية فمعظم مدن الغرب وعلى وجه الخصوص روما نفسها - كانت تستهلك أكثر بكثير مما تنتج . وعلى عكس مدن أوروبا في العصور الوسطى والحديثة ، فإن المدن في تلك الفترة لم تكن لديها اكتفاء ذاتيا من الناحية الاقتصادية ، وكانت تعيش حالة أو متطفلة على الاقتصاد الامبراطوري . إذ كانت هذه المدن مراكز إدارية وحربية في المقام الأول . أما أهميتها التجارية فكانت في المقام الثاني . وإبان القرنين الأولين للميلاد كان اقتصاد الامبراطورية مزدهرا بالقدر الذي يسمح بالانفاق على تلك المدن ، بيد أن هذا الوضع لم يستمر بصفة دائمة . وذلك حتى تدهورت المدن ومعها كل النظام السياسى للعالم الاغريقى الرومانى .

وفى السنوات الأولى للامبراطورية ، كما فى السنوات الأخيرة من الجمهورية ، لعب العبيد دورا حاسما فى الاقتصاد ، وبصفة خاصة فى الزراعة . بيد أنه نظرا لأن حدود الامبراطورية لم تعد يضاف إليها أراضى جديدة رويدا رويدا . ولتتناقص تدفق الأسرى فإن المصدر الرئيسى للعبيد نضب معينه . وفى ذلك الحين اتجه كبار ملاك الأراضى الى تأجير أجزاء كبيرة من اقطاعاتهم الى مزارعين أحرار مقابل حصول هؤلاء المزارعين على جزء من المحصول وأطلق عليهم لفظ اقنان Coloni . وهم الذين كانوا يعملون فى أراضى سيد اقطاعى ، وتنتقل ملكيته من هذا السيد الى سيد آخر عندما تؤول ملكية الأرض اليه . ولم ينعم الاقنان ، كما حدث للجماهير الفقيرة ، التي ظلت تتدفق على المدن الأكبر ، سوى بأقل القليل من مظاهر الترف والرخاء الاقتصادى فى الفترة الباكرا للامبراطورية - وكان القرن الثانى للميلاد على المستويات القديمة عصرا للثراء المادى الملحوظ ، على أنه من السخف مقارنته بالوفرة الناجمة عن تقدم الأحوال الصناعية فى أيامنا هذه . واحتوى المجتمع الرومانى بصفة دائمة فى قاعه على أعداد لا خصر لها من البؤساء ، الذين يمثلون البنية الأساسية للمجتمع هم الذين كانوا من الفلاحين والمعدمين الذين عاشوا على الكفاف .

وكان من الممكن أن تكون أحوال الطبقات الدنيا على ما هي عليه من سوء لولا سياسات الحكومة الرامية الى محبة الخير العام ، والاصلاح الاجتماعى . فبصفة خاصة رسخت وجهات النظر الرواقية *Stoic attitudes* عن الأخوة الانسانية ، والرحمة ، والمسئولية الاجتماعية ، والسياسية بين اباطرة القرن الثانى العظام . واعتبر كل من الامبراطور هادريان ، والامبراطور ماركوس أورليوس سلطتهما على أنها أمانة ومسئولية صعبة وأن عليهما أن يحكما لصالح الشعب سواء كان الفرد غنيا أم فقيرا ، يتمتع بامتيازات أم كان منخفض الجناح . وازدانت الامبراطورية فى القرن الثانى بضميرها الحساس بما لا يقل عن حكمتها وقيادتها القوية فى المجال العسكرى والشئون الادارية .

#### الأدب والفكر الرومانى :

كان الأدب الرومانى الذى اعتمد على التراث الاغريقى العظيم ، بل وبنى ما استمدته من المصادر الثقافية الرومانية نفسها ، تأثير قوى على الغرب فى العصور الوسطى والحديثة . فقليل من العلماء والشعراء كان يعرف اللغة اليونانية ، بيد أنهم جميعا كانوا يعرفون اللغة اللاتينية من الناحية العملية . وبالرغم من أن الترجمات اللاتينية للمؤلفات اليونانية الفلسفية والعلمية المهمة بدأت تتدفق تجاه الغرب فى العصور الوسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، فإن غرب أوروبا لم يشعر بالآثر الكامل للتراث اليونانى فى الآداب *belles Lettres* حتى قيام النهضة الايطالية ، ومن ثم كان تأثير الأدب الرومانى فى العصور الوسطى أعمق بكثير من تأثير الأدب اليونانى .

وكقاعدة فإن الكتاب الرومان لم يهتموا بالنظرية العلمية أو بالفكر الفلسفى العميق بصفة خاصة ، ونتيجة لذلك كان ينقصهم الكثير عن الاغريق . بيد أنهم نجحوا فى جعل اللغة اللاتينية أداة أدبية رائعة مثلهم الحليا الأخلاقية والسياسية وللامحهم وقصائدهم العاطفية . وإبان العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية والتى تميزت بالاضطراب قدمت روما مجموعة من المؤلفين والشعراء أثارت الإعجاب . وكان شمشرون *Cicero* الخطيب السناورى ، أعظمهم شهرة . فلقد أكسبه تمكنه الشديد من الأسلوب

اللاتينى فى خطبه وكتاباتة ، مركزا فريدا فى مجال الأدب الرومانى بالرغم من أن حياته السياسية انتهت بكارثة وأن جهوده المصنية لانتقاد الجمهورية المتداعية فشلت فشلا ذريعا .

وبقيام حكومة امبراطورية قوية فى عهد الامبراطور أغسطس فى الأعوام التى لت سنة ٣١ م دخلت الآداب اللاتينية طورا جديدا . كما أن تحقيق الاستقرار السياسى بعد عقود من الاضطراب والوعد بالسلام الدائم . وسياسة الامبراطورية القائمة على أن التقدم فى العمل يفضى الى ظهور المواهب « والقيادة الملهمة للامبراطور أغسطس كلها اتحدت جميعا ، وتمخض عنها وجود موجة قوية من التفاؤل ، وحب الوطن والأصالة المبدعة . فعصر أغسطس يشكل الذروة فى العبقرية الرومانية المبدعة ، متفوقا على التالى الأدبى ابان الفترة المضطربة الأخيرة من الجمهورية . وفى عهد أغسطس استوعب الفنانون والشعراء الرومان التراكيب اللغوية الأساسية للغتين اليونانية والرومانية وسار فى المعمار الرومانى على النمط الاغريقى ، بيد أنه فى الوقت نفسه كان تعبيرا عن الشخصية الرومانية . وارتفعت المعابد الرومانية أكثر من المعابد اليونانية بكثير ونقلت شعورا كان أقل جلالا - وأكثر دلالة على القوة ، وأقل من الناحية الأفقية وأكثر دلالة على الناحية الرأسية .

وظهرت فى قصائد الشعر العظيمة فى عصر أغسطس - وقصائد الشعر الغنائى المهدبة والخالية من العيب للشاعر هوراس Horace وأبيات الشعر الغزلى للشاعر العالى أوفيد Ovid ، ونغمات فيرجيل Virgil الرائعة لأنماط الأفكار اليونانية الأصيلة ، وكذلك بالأساليب الرومانية على نحو مميز . فأعظم قصيدة فى روما الاينية Aeneid للشاعر فرجيل ، قامت على نمط ملحمة الشاعر هوميروس Homer الذى ألف ملحمة الأودسى Odyssey وهى عن رحلة لشخصية مهمة ابان الحرب الطروادية Trojan War بيد أن اينياس Aeneas بطل فيرجيل كان أيضا المؤسس الأسطورى لمدينة روما ، وأن القصيدة تصور من البداية الى النهاية العديد من النبوءات الوطنية فيما يتعلق بالدولة التى كان يتعين على اينياس اقامتها . وفى الحقيقة وجد بعض القراء فى اينياس رمزا للامبراطور أغسطس نفسه . وتحتوى الانيسادة أيضا ، بشكل يثير أوروبا فى العصور الوسطى

الدهشة ، على اتجاه قوى نحو الرحمة ، وحب الخير العام ، وهو الأمر الذى لا يوجد كلية عند الشاعر هوميير ، بيد أنه كان واضحا فى سياسات أغسطس وخلفائه المستنيرين ، وبصفة خاصة أباطرة القرن الثانى الميلادى . وغوى كل هذا هناك شعور بالأمل فى أن الدولة الرومانية ، التى شيدها اينياس والتى قادها أغسطس العظيم وصناع السلام ، قد أتجزت هدفها النهائى فى تحقيق السلام الدائم والعدل للعالم الذى عانى طويلا من القلق .

فالفتره التاريخية للثقافة ، من وفاة أغسطس الى وفاة ماركوس اورليوس على نحو التقريب تعرف باسم العصر الفضى . وبالرغم من أن تلك الفترة كانت أقل شهرة من العصر الذهبى للامبراطور أغسطس فانها شهدت انجازات أدبية وفكرية وفنية من الطراز الأول . ورأى بعض المراقبين من كتاب العصر الفضى ، من أمثال سينيكا الرواقى Stoic Seneca ولوكيان الهجاء Satirist lucian ، وبلوتارك مترجم السير biographer Plutarch نوعا من تضاعف العبقرية الابداعية . ولقد أكدوا على التشابه المتبدل للفن الرومانى فى القرن الثانى للميلاد مع الأدب ، نتيجة لغياب الحرية الحقيقية ، وتماثل الثقافة ، وفتر السلام والطمأنينة . وتلك الأوهام هى بالضرورة نسبية ، إذ أن كثيرا من الشخصيات من أصحاب الشعور الرقيق عبر القرون نظروا الى كتاب العصر الفضى باعجاب هائل ، بيد أنه مهما فكر المرء فى أصالة وتفوق أدب العصر الفضى فانه ليس هناك شك فى أن الثقافة والمعرفة له انتشرت بشكل مهم فى الداخل والخارج . إذ فاخرت المدن بالأقاليم الريفية البعيدة بالمعابد والحمامات المثيرة للاعجاب ، والبسارح وأقواس النصر التى أقيمت على النمط الرومانى . وانتشرت المكتبات والمدارس بوفرة فى كل أنحاء الامبراطورية ، وظهر بوضوح انتشار معرفة القراءة والكتابة فى نطاق المدينة ، وذلك بفضل وجود النقوش وشعارات الحملات التى كشف عنها علماء الآثار ، والحفريات المحدثون ، على مبانى مدينة بومبى Pompeii والتى دفنتها وحفظتها ثورة بركان فيزوفىوس Vesuvius المدمرة سنة ٧٩ م .

واحتفظت الاسكندرية ، المدينة العظيمة فى الأزمنة الهيلينية بأهميتها الاقتصادية والفكرية طوال العهد الباكر من الامبراطورية ، حيث قدمت بعضا من ألمع علماء اللاهوت المسيحيين بالإضافة الى العديد من العلماء المشهورين



الذين طوروا وحققوا انجازات للعلوم الهيلينية الباكورة ، وفى الوقت نفسه عملوا على زيادة الشهرة الفكرية للامبراطورية فى القرن الثانى الميلادى الى حد كبير ، فعلى سبيل المثال تطور الفكر الفلكى الاغريقى والهيلينى الى نموذج رفيع المستوى ، وشامل للكون على يد بطليموس الاسكندرى Ptolemy of Alexandria ( ت حوالى ١٨٠ م ) ، الذى كتب بالتفصيل عن أعمال من سبقوه فيما يتعلق بالنظام الكونى ، وقام بتفسيره بدقة بالنسبة للحركات الملحوظة للشمس ، والقمر ، والكواكب التى بين النجوم . وظل نظام بطليموس The Ptolemaic System المحاولة الناجحة والبعيدة المدى للبشرية من أجل تفسير حركات الاجرام السماوية حتى ظهور كوبرنيكوس Copernicus فى القرن السادس عشر الميلادى . وكتب ايضا بطليموس أعظم كتب الجغرافيا شمولاً فى العصور القديمة ، وأخرج جالين Galen ( ١٣١ ، ٢٠١ م ) ، وهو عالم فى علوم الطب من برجاموم Pergamum الهيلينية سلسلة من المؤلفات الرائعة عن علم الاحياء ، والطب التى ظلت تهيمن على هذه الميادين العلمية أكثر من ألف عام . كما أن كتاب التأملات Meditations لمؤلفه ماركوس أوريليوس . آخر أباطرة القرن الثانى العظام هو أحد تعبيرات العصور الى حد بعيد . وفى الأدب ، والفن والعلوم والفلسفة أنتج العصر الفضى اندماجا معنوياً للتراث اليونانى والرومانى . فالميراث التراثى الوافر لليونان ، وروما ، والشرق القديم تم اجماله ودمجه من أجل الفائدة الكبرى لحضارة المستقبل .

ومن بين انجازات هذا العهد ، وربما أعظمها بالتأكيد الشئ المميز للرومان - عملية تطوير القانون الامبراطورى ، اذ تم اعادة صياغة القانون القديم المعروف بالألواح الاثنى عشر Twelve Tables ( الصادر حوالى ٤٥٠ ق م ) بالتدرج مع شئ من التفصيل ، بشكل يجعلها ملائمة للطبيعة البشرية على يد رجال القضاء فى اواخر عصر الجمهورية ، وفى عصر الامبراطورية الرومانية الباكورة ، وعلى يد المشرعين العظام للقرنين الثانى والثالث للميلاد ، هذا بالإضافة الى تدخل الأباطرة المثقفين أنفسهم . وعندما صار الرومان على معرفة بالشعب أكثر فأكثر ، وأن لكل شعب مجموعته القانونية ، وعاداته الخاصة حرروا أنفسهم رويدا رويدا من كون القوانين خاصة بهم . وجاهدوا من أجل احلال مجموعة من المبادئ الأساسية استمدوها من قوانين كل الشعوب محلها .

ولقد حول « قانون الشعوب » Jus Gentium مجموعة القانون الرومانى على مهل الى نظام قانونى مناسب لامبراطورية مترامية الأطراف ، ومتغايرة العناصر البشرية . وتأثر هذا التحول بالمفهوم اليونانى عن « قانون الطبيعة » Jus Naturale الذى لعب دورا بارزا فى تاريخ الفكر الغربى . على أن قانون الطبيعة كان أكثر مثالية عن قانون الشعوب . إذ أن الأول كان مبنيا على الاعتقاد بوجود نظام عالمى مقدس يوجد به معايير خاصة للسلوك الانسانى الذى يتحتم على كل الناس اتباعه بغض النظر عن عاداتهم الفردية وتقاليدهم . تلك المعايير كانت مبنية على رفعة شأن العدالة السياسية والاجتماعية . وصلحت فى صياغة قانون الامبراطورية ، وجعله ملائما للطبيعة البشرية ، وأمدته بأساس فلسفى قوى . وهكذا ، فالقانون الرومانى هو نتاج للعبقريّة السياسية العملية اللاتينية التى تأثرت بالفكر اليونانى التأملى ، وهى التى قدمت جوهر مفهوم العدل فى عصر أغسطس . ولقد أصبح القانون الرومانى جزءا أساسيا فى التراث الغربى بعد أن تم إعادة تنسيقه بفضل الجهود المضنية فى عصر جوستينيان امبراطور القرن السادس الميلادى ، بل أساس العديد من النظم القانون حتى يومنا هذا فى أوروبا ، وفى الأراضى التى كانت فى يوم ما إحدى مستعمراتها .

## ٢ - المسيحية : الخلفية ، الانتشار ، والانتصار :

### الدين الرومانى :

ان الدين الرومانى موضوع معقد بشكل كبير لأن الرومان لم يقتصروا على الاعتراف بكثير من الآلهة فحسب ، وانما بالعديد من الطوائف الدينية المستقلة أيضا . فعلى سبيل المثال نظام المدنية - الدولة اليونانية ، وكانت مدينة روما آلهتها المحلية الرسمية فالاله جوبيتر Jupiter ( كبشير ألهمسة الرومان ) ، وجونو Juno ( ملكة السماء فى أساطير الرومان ) ، ومنيرقا Minerva ( الهة الحكمة عند الرومان ) ومارس Mars ( اله الحرب ) ، وآلهة أخرى عديدة ، أصبحوا بحلول عصر الجمهورية المتأخرة متماثلين مع الآلهة الماثلة للديانة الأولمبية اليونانية ( آلهة الدين اليونانى الأولمبى نسبة الى جبل أولمبوس فى تساليا ، فى الجزء الشرقى من اليونان ، وكان الاغريق يعتبرونه مثوى الآلهة ) . فجوبيتر هو زيوس Zeus اليونانى ، ومنيرقا هى أثينا Athena اليونانية ، وهلم جرا . وبالإضافة الى تلك الآلهة الرومانية الرسمية ، كان هناك عدد لا حصر له من الآلهة المحلية لعدد كبير من المدن ومناطق الامبراطورية ، وفى روما نفسها ، كما فى كل أنحاء الامبراطورية كان هناك أعداد لا حصر لها من الفرق الدينية غير الرسمية التى حظيت بتسامح طبيعى من قبل الدولة الرومانية . ولم تكن أى من تلك الفرق الدينية الوثنية قاصرة على أعضائها الذين ينتمون اليها ، كما لم تدع احداها احتكار صحة العقيدة . وكان فى امكان الفرد العادى ان يعلن انضمامه الى العديد منها دون أن يتعرض لأى خطر .

ويظهر تعبير المواطن الأول Principate تم اضافة عنصر مهم جديد الى دين الدولة : هو عبادة الامبراطور أغسطس ، فالامبراطور أغسطس ومن قبله يوليوس قيصر Julius Caesar قد تم تبجيل كل منهما عن طريق التعظيم حتى العبادة وتاليه روح Genius كل منهما ( روح العائلة ) ، وكل من أغسطس وأسلافه ، مع وجود استثناءات قسام مجلس الشيوخ الرومانى بتعظيمهم بعد مماتهم .

وفى تلك الأقاليم التى آلهت الملك بناء على تعبير « المواطن الأول » ظلت

النظرة على أنه اله طوال حياته قائمة • وأصبح من التقاليد المتعارف عليها بالنسبة للرومان ولسكان الأقاليم على حد سواء هو المشاركة بذكر الامبراطور بالاضافة الى الآلهة العظام لمدينة روما عند ممارسة الشعائر الدينية • وفى الواقع كانت تلك الشعائر الدينية أكثر منها دينية • وتلك الطقوس كانت مفيدة الى أبعد حد فى تشجيع الولاء للدولة بين مختلف الشعوب • وطبقا للمواقف الدينية فى ذلك الحين عارضت القلة اضافة حفنة من الآلهة الجديدة الى ذلك الحشد المقدس الذى عبده من قبل • ومن وجهة نظر اليهود والنصارى من بعدهم ، كانت تلك الطقوس مسألة مختلفة تمام الاختلاف ، لأن اله اليهود الحريص لا يسمح بعبادة سواه • بيد أن روما اعتبرت اليهود شعبا مستقلا ، وفى العادة أعفقتهم من المشاركة فى الفرق الدينية الرسمية • ومن ناحية أخرى ، عانى النصارى معاناة قاتلة من جراء رفضهم عبادة الأباطرة واله روما • ومن جهة نظر الرومان كان هذا العناد والتصلب يحمل صفة عدم الايمان بتلك الآلهة ، وكذلك الخيانة • لذلك ليس من قبيل المصادفة أن كانت تعاليم النصارى وحدها من دون كل الديانات بالامبراطورية موضعاً للاضطهاد على يد الرومان •

#### الطوائف ذات الطقوس السرية :

شهدت القرون التى تلت عهد الامبراطور أغسطس تغيرا بطيئا ، لكنه كان جوهريا بالنسبة للمواقف الدينية الرومانية ، فبعد تبجيل الآلهة التقليدية المحلية ، والتى عبدها الأسر والعشائر ، وسكان المدن ، عبد الرومان أنه تسمو على الوجود المادى وفدت اليهم من الشرق الأوسط • فالهة روما القديمة ، وبالمثل الهة جبل أولمبوس Olympus اليونانى قامت بحماية الرفاهية الاجتماعية والسياسية للجماعات ، فى حين أن الآلهة الجديدة كان اهتمامها قليلا بتلك الأمور ، غير أنها قدمت بدلا من ذلك كله أمل الفرد فى الصلاح ، والخلاص ، والحياة الأبدية • ويتقدم العصر الامبراطورى الرومانى تغير ولاء الشعب للدولة ببطء ، ولكن بطريقة يصعب تغييرها من عبادة جوبيتر ، وميثارفا الى عبادة ايزيس Isis المصرى ، ومتراس Mithras الفارسى ، والأم الفريجية العظيمة The phrygian Great Mother ، واله الشمس السورية ، والآلهة الأخرى الأجنبية

التي قدمت العزاء والسعادة الأبدية لشعب لم ير أن العالم يكفيهم - حتى عالم السلام الرومانى .

وهذه الزيادة السريعة والقوية لهذا المذهب الصوفى أو الباطنى كانت فى الواقع استمرارا وامتدادا لنزعة كانت بادية للعيان منذ أمد بعيد بين اليونانيين الهيلينيين . ونفس القوى التى شجعت عدم ترسيخ العالم الهيلينى وعملت على طمسه كانت منهمكة فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية - العالمية ، بالعمل على زيادة حكم الفرد تدريجيا بين الطبقات الفقيرة ، التى عانت من الحرمان وفقدان الأمل . كما أن التحول من الآله المحلى الى الآله المخلص ، ومن هذا العالم الى العالم التالى ، أصبح يشكل تحولا عميقا فى الحالة النفسية ، التى أدت الى التبرأ من الفلسفة الانسانية التقليدية الاغريقية الرومانية . وحيث أن سلام القرن الثانى الميلادى أفسح المجال للفوضى السياسية والاجتماعية التى حدثت فى القرن الثالث الميلادى ، نذاك فإن الآمال الكبرى للفلسفة الانسانية - حلم عالم يسوده الفكر الانسانى ، وجمهورية مثالية ، وحياء الرفاهية ، كانت كلها تبدو كالأوهام القاسية . عندما اكتسبت الحركة تجاه الديانات ذات الطقوس السرية قوة دفع هائلة .

#### الأفلاطونية المحدثة :

تم القضاء على الجماعات الدينية الوثنية القديمة بفضائل الزيادة السريعة والقوية للإيمان بالغيب الذى صاحب الفوضى السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الميلادى . وظهر الاتجاه نحو النظرة المتسامية بوضوح وبصفة خاصة فى الحركة القيادية الفلسفية للقرن الثالث ، وهى حركة الأفلاطونية المحدثة . واستطاع أفلاطون ، وهو أحد المفكرين العباقرة وصاحب الذكاء الخارق ، أن ييسط هذه العقيدة وهى أن الله واحد أبدي ، لا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شئ ، ولا نراه سوى عن طريق الرؤيا الناجمة عن التعمق الصوفى .

وعلم أفلاطون أن الله خالق كل شئ . فكل الكائنات المادية والروحانية من صنعه كما يحدث للموجات الصغيرة فى حوض به ماء . وكان المذهب العقلى اليونانى شيئا عديم الجدوى بالنسبة لهؤلاء الذين آمنوا مع أفلاطون أن الحقيقة الوحيدة الجديرة بالمعرفة تكمن خارج نطاق العقل البشرى .

وفى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، صار كل شيء أساسى فى الدين الوثنى مندمجا فى تركيبة الأفلاطونية المحدثة الروحية ، اذ علم دعاة الأفلاطونية المحدثه بأن آلهة الفرق الدينية الوثنية كلهم رموز لله الواحد الذى ليس كمثله شيء ، ومن ثم فان كل فرقة دينية وثنية حظيت بشرعية وجودها . وأصبحت الوثنية تؤمن باله واحد أكثر فأكثر فالاله زيوس ، والاله جوبيتر ، والاله مثراس ، كانوا ببساطة مظاهر مختلفة لاله واحد متعال . وفى هذا الجو بدأ الاختلاف بين الطوائف الدينية الوثنية التقليدية والديانات ذات الطقوس السرية يتضاءل تدريجيا . وبحلول القرن الرابع حل الايمان بالغيب محل الفكر العقلانى والفلسفة الانسانية .

بشكل كلى تقريبا ، وكذلك الالهام المقدس والحنين الى الحياة الأبدية . صاحبت الفلسفة الأفلاطونية المحدثه والديانة الوافدة من الشرق الأوسط ، زيادة سريعة واضحة لعلم التنجيم ، والسحر والشعوذة ، والعادات الغامضة الأخرى التى لم يكن لها وجود على الاطلاق فى المجتمع اليونانى الرومانى ، بيد أنها كانت مسيطرة على الفكر الشعبى بشكل لم يحدث من قبل . وفى مثل هذه البيئة غير الطبيعية حققت المسيحية انتصاراتها الأخيرة .

### ظهور المسيحية :

ميزت نزعتان أساسيتان التطور الدينى فى الامبراطورية الرومانية - نمو الحركة الناشئة نحو التصوف التى بحثناها من قبل ، وتداخل واندماج المعتقدات والعادات بين طائفة دينية وأخرى ، وهى عملية عرفت باسم التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة Syncretism وتم ادراك خاصية المسيحية باعتبارها استهدفت التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة بعد الدراسة ، لأنه فى كثير من الشواهد كانت معتقداتها وطقوسها مشابهة لتلك التى كانت موجودة فى العديد من الديانات التى سبقتها . ومن الواضح أن المسيحية نقلت عن اليهودية الكثير اذ كان المسيحيون الأول يهودا - بيد أن المسيحية سبقتها الطوائف الوثنية فى فارس ، ومصر ، وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، فى كثير من تفصيلات عديدة فيما يتعلق بالخلاص . فكثير من التعاليم التى نادى بها المسيحية كانت موجودة قبل ظهور المسيحية ، مثل مفهوم الموت والبعث ، وتناول القربان المقدس ، والتعميد ، والخلاص

الشخصى ، والأخوة الانسانية تحت أبوة الله ، بالاسم الا القليل ومع ذلك فالمسيحية أكثر بكثير من أن تكون مجرد صورة جديرة للآراء القديمة ، كما أنه يبدو أمرا مخادعا الى حد كبير اذا ما اعتقدنا أنها كانت مجرد احدى الديانات الشرقية ذات الأسرار . فقبل كل شيء ، تختلف المسيحية عن تلك الديانات فى اسلوبين أساسيين :

١ - فالله المسيحية هو اله اليهود الذى لا يخفى عليه شيء ، وهو فرد صمد فى وحدانيته وقدرته لشعب مختار ، وبظهور المسيحية شملت الوهيته لكل البشر .

٢ - وعيسى عليه السلام Juses مؤسس المسيحية والمخلص كان شخصية تاريخية فذة .

وعيسى ( عليه السلام ) معاصر للإمبراطور اغسطس ، وورد ذكره فى تعليم اليهود النبئية وكانت حياته وتعاليمه قليلة التأثير بالنفوذ اليونانى . وجاء عن عيسى ( عليه السلام ) فى الأنجيل ( الأربعة القانونية ) أنه مبشر مملوء بالمحبة بكل قوة ، وشخصية جذابة ، وله مقدرة ساحرة للأللاب ، واستطاع بطريقة خارقة للمعادة ابراء المرضى ، واحياء الموتى وتسكين الرياح . وكان ينظر الى معجزاته على أنها تمت بأذن الله . ودعوته الدينية موجهة الى الفقراء والمنبوذين . وفى السنوات العشر الأولى للمسيحية أمنت بدعوته تلك الطبقات عن طيب خاطر وبسهولة . وبشر عيسى ( عليه السلام ) بعقيدة المحبة ، والرحمة والتواضع ، وكما فعل أنبياء بنى اسرائيل ، فإنه سخر من الشكليات الجوفاء فيما يتعلق بالأمور الدينية ، وركز على الوقار ، وسماحة النفس دون تحيز تجاه كل من الصديق والعدو وأكد على ضرورة تقوى الله . ويبدو أنه لم يعترض على كل مجموعة الطقوس والشعائر ، وانما اعترض فقط على الطقوس والشعائر التى تؤدى الى الاحساس بالمفاخرة والشعور بالرضى الذاتى ، وتبعد المرء عن حبه لآخوانه فى الانسانية . وعن طريق الاستقامة الأخلاقية . وكانت نتيجة نقده العنيد للعيوب الأخلاقية الموجودة فى نظام الكهانة اليهودية ، ويضاف اليها ادعاءاته العلنية بأنه يتكلم بوحى الهى ، جرت محاولة صلبه كإنسان يدعو الى تخريب الشعائر والطقوس اليهودية .

ووفقا لما جاء فى الأناجيل الأربعة ، فان أعظم معجزة لعيسى ( عليه السلام ) هى قيامه من بين الأموات - وعودته الى الحياة بعد ثلاثة أيام من وفاته على الصليب . ويقال انه ظل على الأرض لفترة قصيرة بعد قيامه من بين الأموات مقدما العزاء والالهام الالهى الى حواريينه ، ثم صعد الى السماء على وعد بأنه سيعود فى مجد ليحاكم كل الأرواح ويضع نهاية للعالم . وتوقعت الأجيال الأولى من المسيحيين عودته بسرعة ولهذا السبب ولأسباب أخرى لم يتم التنظيم الرسمى للكنيسة فى بداية عهدها .

وبالنسبة الى المسيحيين الأول ، فانهم لم يؤمنوا بالمبادئ الأخلاقية السامية للمسيح فحسب ، وانما عبدوا المسيح نفسه على أساس أنه تجسيد لله العلى القدير . وطبقا للأناجيل الأربعة عمل المسيح على اظهار الفرق بينه - « ابن الانسان » - وبين الله « الأب » - بيد أنه أيضا روى عنه أنه استخدم عبارة « أنا والأب واحد » . ويقال أنه أمر حواريينه بتعميد كل شخص ( باسم الأب والابن والروح القدس ) . ومن ثم صار المسيحيون مؤمنين بعقيدة اله مثلث الأقانيم حيث كان المسيح « الابن » أو الأقنوم الثانى « فى ثالث أقدس » . ومع ذلك فالله واحد . وقدمت عقيدة الثالث الأقدس الميزة الفريدة فى اله واحد ، أبدي ، جدير بكل تقديس من الناحية الفلسفية . والذي يمكن تمجيده وعبادته فى شخص عيسى ( عليه السلام ) الذى كان مقعما بالمحبة ، وجديرا بأن يحب ، والذي - كما قيل - انتهت حياته بطريقة مأساوية . واله المسيحيين يسمو على الوجود المادى ، كما تدركه الحواس على حد سواء .

### الكنيسة الباكورة :

شهد الجيل المسيحى الأول بداية تطور التراث اليهودى المسيحى . وعملت الاتجاهات الأساسية العامة للثقافة اليونانية الرومانية على اثرائه . فالمحوريون الذين لازموا المسيح لم يتأثروا بالحضارة الهيلينية على مثال سيدهم الذى لم يتأثر بها أيضا ، وحاول بعضهم أن تظل المسيحية فى نطاق الاطار اليهودى بكل دقة . بيد أن القديس بولس St. Paul الذى كان يهوديا هيلينيا ، ومن الذين آمنوا بالمسيحية فى أوائل عهدها ، شجع فى العمل على تطوير الكنيسة وفقا لرؤيته الشخصية فى الأخوة العالمية ، وجعلها



متحررة من التمسك الشديد بالتعاليم اليهودية والتمسك بعملية الختان التى كانت قيذا يعوق تحول غير اليهود الى المسيحية وجعل عملية الاهتداء المسيحى مفتوحة لكل الرجال فى كل مكان طالما آمنوا بأن عيسى اله ومخلص . كما قام بولس أيضا بالانفتاح على رياح الفكر الهيلينى المفعم بالقوة والنشاط . وتنقل القديس بولس فى كل مكان فى الامبراطورية مبشرا برسالة المسيح كما فهمها ، ونجح فى ضم مؤمنين جدد ، واقامة المجتمعات المسيحية فى كثير من المدن - الكبرى والصغرى لعالم البحر المتوسط . وقام المبشرون الآخرون ، ومن بينهم القديس بطرس St. Peter وكذلك زملاؤه عن الرسل ، الذين كانوا من أتباع المسيح المباشرين ، قام كل هؤلاء بتكريس حياتهم كما فعل القديس بولس فى الانتقال والتبشير والتعليم المسيحى ، وكان ذلك على حساب السخرية والمضايقة فى الغالب . وقد جرت العادة أن كل الرسل بما فيهم القديس بولس ماتوا جميعا كشهداء . وان كانت جهودهم مكلفة بالنجاح الى أبعد حد ، لأنه يانتهاء الجيل الرسولى صارت المسيحية قوة لها أهميتها بين الجماهير المدممة فى إيطاليا ، والشرق . وفى مدى قرن آخر انتشرت المسيحية فى كل أنحاء الجزء الأكبر من الامبراطورية .

ومنذ البداية ، شارك المسيحيون بانتظام فى وجبة طعام أطلقوا عليها القربان المقدس ، أو العشاء الالهى ، أو الربانى Eucharist or "Holy Communion" ونظروا الى هذه الوجبة على انها وسيلة أساسية للحصول على النعمة الالهية الناتجة عن امتلائهم بروح المسيح . يضاف الى ذلك طقس مقدس آخر ، وهو التعميد ، الذى شكل مبدءاً أساسياً فى الأخوة الكنسية وبالتعميد يغفر الله خطايا المسيحى ، وينال نعمة الروح القدس . ولا يسمح للمرء بالتعميد سوى مرة واحدة ، كما أن الأشخاص المعمدين فحسب هم الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين بالحقيقة . وان كان التعميد يؤجل فى الغالب حتى سن الرشد فى الكنيسة الباكرا . ومن ثم فان كثيراً من الأشخاص الذين لم يتم تعميدهم كانوا منضمين للمجتمعات المسيحية نون أن يكونوا مسيحيين بالمعنى الكامل للكلمة .

وعندما صارت المصادر المسيحية التاريخية أكثر وفرة فى القرنين الثانى والثالث للميلاد ، بدأ تنظيم الكنيسة فى الظهور بوضوح عن ذى فبن وتكشف وثائق هذه الفترة عن فرق هام بين رجال الدين ، الذين اداروا

شئون الكنيسة ومنحوا الأسرار المقدسة وبين العلمانيين ، الذين لعبوا دورا أقل تأثيرا . وكان رجال الدين منقسمين الى طبقات ، كما أن الأساقفة كانوا الأكثر أهمية ، الذين خدموا كموجهين ورعاة للجماعات المسيحية بالمدن ، وكذلك القساوسة ، الذين تقدموا المسيحيين عند ممارسة الطقوس الدينية ومنحوا الأسرار المقدسة تحت اشراف الأساقفة . كما أن الأساقفة أنفسهم كانت لهم درجات مختلفة بالنسبة لرفعة المقام . وفوق الأساقفة العاديين ، يوجد المطارنة أو رؤساء الأساقفة ، الذين أقاموا في مدن لها أهمية خاصة ومارسوا ادارة منطقة محيطة واسعة . وعلى قمة التسلسل الهرمي كان هناك أساقفة ثلاثة أو أربعة في أعظم مدن الامبراطورية، وهي روما، والاسكندرية، وأنطاكية ، والقسطنطينية فيما بعد . وعرف هؤلاء الأساقفة باسم البطاركة وهم الذين مارسوا سيطرة روحية ، غالبا ماكانت نظرية أكثر منها عملية ، على مناطق شاسعة من عالم البحر المتوسط . وبمور الوقت ، صار أسقف روما - البابا - ينظر اليه تدريجيا على أنه أعلى الأساقفة مقاما ، بيد أن المقام الفعلي لسلطة البابا حتى على الكنيسة الغربية كان أمرا يتطلب جهودا لعدة قرون .

### المسيحية والحضارة اليونانية :

ان المسيحية في العصور الوسطى والحديثة هي نتاج التراث اليهودي واليوناني على حد سواء . على أن عملية الجمع بين هذين العالمين الفكريين لم تبدأ بين المسيحيين فحسب ، وإنما بين اليهود أنفسهم ، وبصفة خاصة أولئك الذين هاجروا بأعداد كبيرة الى الاسكندرية . وفي الاسكندرية عمل العلماء اليهود ، وبصفة خاصة الفيلسوف المتبحر في المسائل الدينية ، الذي عاش في أوائل القرن الخامس فيلو ( محب ) اليهودي Philo Judaeus على التوفيق بين الأسفار اليهودية والفلسفة الاغريقية ، بعد أن نقل بكثرة عن أرسطو ، والرواقيين Stoics وبصفة خاصة عن أفلاطون . وموضحا بالتفصيل تفسيراً رمزياً للعهد القديم Old Testament الذي كان له أثره على الفكر المسيحي بشكل واضح عبر القرون .

وسيرا على منوال العديد من مبادرات فيلو المثمرة ، ناضل علماء اللاهوت المسيحيون من أجل إقامة الدليل على أن دينهم ليس مجرد أسطورة يروق للمرا الايمان بها بالعقل والقلب - وإنما على أنه دين قادر على اثبات

وجوده وقدراته فى وسط أعلى الدوائر الفكرية . فالمسيح المخلص ، على سبيل المثال ، كاله بالحقيقة وانسان بالحقيقة ، يشكل اتجاها فريدا للعالمين المادى والروحى . وفى المصطلحات اليونانية لم يكن المسيح ليس سوى النزاع الذى كان قائما بشأن الايمان بأن الانسان يتكون من جسد وروح وهو المذهب المتأصل فى فلسفة أفلاطون ، لأن المسيح يتكون من العنصرين المادى والروحى فى وقت واحد . واختلفت المسيحية عن معظم ديانات الشرق الأوسط ذات الأسرار المقدسة ، وبصفة خاصة تلك القادمة من بلاد الفرس ، فى رفضها أن تطرح العالم المادى جانبا . على أن المادة لا يمكن أن تكون مصدر شر فى حد ذاتها ، ولذلك اعتقد المسيحيون أن تلك المادة هى من صنع الله ، أن جسد الانسان لا يمكن أن يفسد كله ، لأن المسيح نفسه كان بشرا بكل الأحاسيس البشرية . ومن ثم فإن المسيحية لم تكن فى نزاع مباشر مع الفلسفة الانسانية اليونانية بنفس القدر الذى كانت عليه ديانة مثيرا Mithra mism المعروفة بمعاداتها للفلسفة الانسانية بشكل جوهرى ، هذا برغم المفهوم المسيحى عن الخطيئة وانحراف الانسان عن طريق الفضيلة نتيجة لعصيان آدم فأنها كانت بعيدة عن وجهة نظر اليونان التقليدية فيما يتعلق بالفلسفة الانسانية .

ان اندماج الجسد بالروح والذى يمثل أمرا أساسيا بالنسبة للمسيحية الأرثوذكسية لم يسلم من وجود الاعتراضات بين المسيحيين الأول . وما أن بدأ توقع المجئ الثانى للمسيح Second Coming دون مرور وقت طويل ، يتضاءل تدريجيا حتى بدأ المسيحيين فى تفحص دينهم بأسلوب فلسفى أكثر من ذى قبل ، واثاروا مشاكل عويصة فيما يتعلق بطبيعة المسيح والثالوث الأقدس . وظهرت اختلافات فى الآراء ، بعضها كان متعارضا مع رأى الأغلبية الى الحد الذى أدى الى ادانتها باعتبارها طوائف مسيحية لا تدين بعقيدة الأغلبية . وعلى أن الايمان المسيحى أصبح أكثر تحديدا ، وأكثر تفصيلا ، وذلك نتيجة لاثارة الجدل وما تلاه من الحلول الأرثوذكسية التى تم الاتفاق عليها . وحاولت بعض الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الدولة ان توضح طبيعة المسيح والثالوث الأقدس بالاصرار على أن المسيح لم يكن بشرا بالحقيقة - وأنه مجرد صورة الهية كاملة - وأنه مجرد صورة الهية مثالية - أو أن المسيح لم يكن له طبيعة الهية كاملة - وأنه لم يكن عضوا كاملا فى الألوهية المثلثة الأقانيم . ولقد بنى الأريوسيون فى القرن الرابع الافتراض

الأخير وهم الذين سنذكرهم فى الفصل التالى . ويقع الافتراض الأرثوذكسى فى منتصف الطريق بين وجهتى النظر السابقتين : وهو أن المسيح انسان كامل واله كامل ، وأنه عضو مشترك فى الثالوث الأقدس منذ الأزل والى الأبد ، وأنه تجسد فى شكل بشر فى فترة من الزمان ، ومشى على الأرض ، وعلم ، وتعذب ، ومات على أنه الانسان عيسى . وظل باقيا هذا الاتجاه ، وظل المسيح الجسر بين العالمين .

لعب الدعاة المسيحيون والذين دافعوا عن الأرثوذكسية ضد هجمات الوثنية من الخارج ، وهجمات الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الدولة من الداخل ، دورا حاسما فى صياغة وتطوير التعاليم المسيحية ، لتكون على مستوى المشاكل التى تحدث حتى عهد الجيل الرسولى . ومن الأهمية البالغة أن الغالبية العظمى من المدافعين عن المسيحية الأرثوذكسية عملوا وفقا للآطار التراثى للفلسفة اليونانية وكان هذا الأمر حقيقيا بوضوح بالنسبة لأورجـين Origen ( ت ٢٥٤ م ) ذلك اللاهوتى الاسكندرى العظيم الذى وضع نظاما فلسفيا للمسيحية مترابطا وشاملا وفقا للقواعد الأفلاطونية . وكان أوريجين أحد المفكرين الكبار فى عصره ، وكان ينظر اليه على أنه أحد أصحاب العقليات الراجعة فى ظل تاريخ الكنيسة الى حد بعيد . على أن نظام أوريجين الدينى لم يحرز انتصارا سريعا على الفكر الوثنى العالمى - كما أن العديد من استنتاجاته عارضها المسيحيون الأرثوذكس فيما بعد - غير أنه وكذلك أعوانه فى اللاهوتيين نجحوا فى جعل المسحية ذات هدف ومعنى ، ولها جاذبية عقلية عند الرجال الذين كانوا متأثرين بالتراث الفلسفى الرومانى . وكما قال المدافعون عن المسيحية ، فإن أعظم فلاسفة اليونان قد اهتموا الى الحق بالمهام من اله المسيحيين .

### المسيحية والإمبراطورية :

وفى الوقت الذى تأثر فيه النظام اللاهوتى المسيحى بالحضارة الهيلينية، كان الفكر الوثنى يتجه نحو الايمان بالعالم الآخر بشكل متزايد . ويجب ألا ننسى أفلاطون ، فهو أعظم الوثنيين المعاصرين لأوريجين ، وصاحب مدرسة أفلاطون الفلسفية . وفى الحقيقة كان الاثنان زملاء فى الدراسة لفترة من الوقت . كما أن نمو النظرة الفلسفية المتعالية فى كل أنحاء العالم القديم

أوجدت جو عمل على تأييد دين يحقق الاخلاص مثل الديانة المسيحية - وأصبحت وجهة نظر المسيحية أمرا مرغوبا فيه مع مرور الوقت أكثر فأكثر ، لأنها حظيت بالاعجاب فى عصر كان تواقا الى تعاليم عميقة ومعزية لتحقيق الخلاص الشخصى من الخطيئة • ومع ذلك فقد تدعم انتصار المسيحية ، على أية حال لأنها واجهت ديانات أخرى تحقق الخلاص ، مثل ديانة مثيرا ، وعبادة ايزيس ، وكذلك التراث اليونانى - الرومانى للوثنية فى مظهرها الجديد الذى آمن بالحياة الأخرى ، وفقا للفلسفة الأفلاطونية الجديدة • وفى مواجهة هذه الديانات المنافسة استطاعت المسيحية أن تقدم شخصية عيسى الشهيرة فى شكل يبعث على الاعجاب ، وكذلك التفكير العميق المتزايد للاهوتية وسلطان الله اللانهائى ، ورسالته القائمة على الرحمة وعالمية الخلاص ، وهى الأمور التى حفظتها ، وعبرت عنها الكتب القانونية - وهما كتابى العهد القديم والعهد الجديد • والقليل من المجموعات المسيحية فى التى لم تتأثر بجاذبية المسيحية • وشكل الفقراء ، والمستضعفون ، والمعدمون معظم الذين اهتموا الى المسيحية فى أيامها الباكرة ، واليهم وجه المسيح معظم رسالته • ولقد استمال اللاهوت المتأثر بالحضارة اليونانية المفكرين ، كما فتنت الأسرار الدينية للتعاليم المسيحية أصحاب الرأى والذين لديهم ميل الى الاعتقاد ، وجذبت الروعة المتزايدة والمنطقية للنظام الكهنوتى السلمى المشتغلين فى الشئون التجارية والمهنية والعامة • لأن معظم النظام الادارى لا يقل عن النظام اللاهوتى فى الكنيسة فى تعلم الكثير عن العالم اليونانى - الرومانى •

وقبل انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، استوعبت المسيحية ونقلت الى أهدافها الدينية الكثير من التراث الرومانى فى النظام السياسى والقانونى ، وعملت على نقل التقاليد الادارية والعرف القانونى الرومانى الى عالمى العصور الوسطى والحديثة • وتطابق القانون الكنسى مع القانون المدنى والرومانى • وأقسحت القيادة العلمانية الطريق أمام القيادة الروحية للبابا الرومانى ، الذى استغل لقب الكاهن الأعظم pontifex maximus وهو اللقب الذى كان مستعملا فى العهد الجمهورى ثم الامبراطورى ، وظن البابا محتفظا بكثير من الاحتفالات الرسمية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، ولما كانت سلطات حكام الأقاليم والموظفين الرسميين آخذة فى الاختفاء رويدا رويدا ، فان تقاليدهم وعاداتهم انتقلت فى بعد روحى جديد

على يد المطارنة والأساقفة • وفى الواقع ، صارت الأبرشية الوحدة التقليدية لسلطة الأسقف والتي كانت فى الأصل منطقة إدارية رومانية • وعلاوة على ذلك فإنها كانت أبعد من ذلك ، لأن الكنيسة استمالت شعبها بشكل لم يحدث من قبل فى روما ، حيث أنها أعطت الجماهير المطحونة احساسا بالمشاركة والشمول فشلت الامبراطورية فى تقديمه •

ومنذ البداية كان المسيحيون بالامبراطورية شعبا مستقلا ، مقتنعون بانهم وحدهم يمتلكون الحقيقة • وأن الحقيقة سوف تنتصر وتسود فى يوم ما ، وكانوا تواقين الى كسب مؤمنين جدد الى ايمانهم ، ومتصلبين فى رفضهم كل الديانات الأخرى ، ومستعدين للتعلم من العالم الوثنى • بيد أنهم كانوا غير مستبعدة بصفة دائمة الى الاستسلام الى ذلك العالم الوثنى • كما أن جديتهم التامة فى تحقيق هدفهم ، وتماسكهم ، الذى ظهر من غير ريب الى أعدائهم على أنه تعصب ، كما أن ايمان المسيحيين بالقضاء والقدر ، ورفضهم عبادة آلهة الدولة كانت أدلة على غضبتهم على معاصريهم الوثنيين الى أبعد حد • ولذلك كان المسيحيون فى أغلب الأحوال أهدافا لأثارة الشك ، والكرهية والاضطهاد • وانتهج الأباطرة أنفسهم تجاه المسيحيين سياسة اتسمت بالتناقض الى حد ما • فحركات الاضطهاد العنيفة كتلك التى حدثت فى عهدى نيرون Nero وماركس أورليوس ، تعاقبتها فترات طويلة من التراخى • وعلى العموم ازدادت الكنيسة قوة ونموا بفضل دماء شهدائها ، ولم تكن الاضطهادات قاسية الى حد الضراوة أو طويلة المدى الى حد الاقتراب من إبادة الجماعة المسيحية • وربما علم الأباطرة الوثنيون أعضاء محاكم التفتيش المسيحية فى القرن السادس عشر فيما يتعلق بعمليات التصفية الجسدية التى مارسوها ضد الأقليات الدينية المثيرة للزعاج فى أسبانيا •

على أن معظم الأباطرة ، اذا ما قاموا باضطهاد المسيحيين فإنهم كانوا يفعلونه على مضض • فالامبراطور تراجان امبراطور القرن الثانى الميلادى العظيم أصدر أمرا الى أحد حكام الأقاليم بالايجاد فى طلب المسيحيين أو يلتفت الى الاتهامات المجهولة • وذلك الاجراء الذى لاحظته تراجان ، كان متناقضا مع روح العصر • وكان عقاب المسيحي فى عهد تراجان قاصرا على من وجه اليه الاتهام ، ثم عوقب ، وأدين باصراره على رفض عبادة إلهة الامبراطورية • وللمرء أن يعجب بالمسيحي الذى واجه الموت على ألا يعبد

الهة مزيفين • غير أن للمرء أن يشعر بالتعاطف أيضا مع امبراطور كتراجان الذى تردد فى تطبيق السياسة الدينية التقليدية بشأن التسامح مع شعب اظهر تصميمه على تخريب الولاء للامبراطورية عن طريق نششاطاتهم اللارومانية والتي كانت واضحة تماما للمعيان •

على أن أشد اضطهاد قامت به الامبراطورية - والأخير - حدث فى بداية القرن الرابع الميلادى فى عهد الامبراطور دقلديانوس - ومنذ ذلك التاريخ كانت المسيحية أقوى من أن تهتز ، كما أن فشل حركة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لابد وأنها برهنت على أن الامبراطورية ليس أمامها خيار سوى أن تكيف نفسها مع الكنيسة • وبعد حدوث حركة الاضطهاد الأخيرة هذه ، أخذ قسطنطين ، أول امبراطور مسيحي على عاتقه تنفيذ سياسة دينية متغيرة ومفعمة بالحركة • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، اعترفت الامبراطورية بالمسيحية بدلا من محاربتها ، وبنهاية القرن الرابع الميلادى تم اجبار غالبية سكان الامبراطورية على اعتناق المسيحية •

### ٣ - الامبراطورية الرومانية المتأخرة :

#### القرن الثالث الميلادي :

ان القرن الثالث الميلادي المتميز بالاضطراب ، وهو عصر أوريجين وأفلاطون ، اتى بتغيرات مفاجئة للامبراطورية الرومانية . فعصر أباطرة القرن الثاني العظام ( ٩٦ - ١٨٠ م ) أعقبه مائة عام من الاضطراب حلت خلالها الفوضى السياسية والاجتماعية محل الحكم العسكرى المطلق . فالجيش فى ذلك الحين ، الذى كان مدركا لقوته ، قام بتعيين وعزل الأباطرة . وحاربت احدى الفرق العسكرية غيرها من أجل السيطرة على اللقب الامبراطورى - وأصبح فى امكان المرء أن يكون قائدا فى يوم ما ، وامبراطورا فى اليوم الذى يليه ، وفى تعداد الموتى فى اليوم الثالث . فما لا يقل عن تسعة عشر امبراطورا حكموا خلال النصف قرن الذى اتصف بالكوارث المفجعة . فيما بين ٢٣٥ و ٢٨٥ م ، هذا اذا أغفلنا ذكر المغتصبين للمعرش الذين لا عدد أو حصر لهم ، وكذلك الذين زعموا بأحقيتهم للمعرش ، حيث ساهم فى حدوث مؤامراتهم ومكائدهم انصراف قادة الجيش الى ايجاد حالة من الخلل والاضطرابات . وفى فترة الخمسين عام هذه مات كل الأباطرة ميتة غير طبيعية باستثناء واحد فحسب ، وكانت النهاية لهؤلاء الأباطرة اما عن طريق الاغتيال ، أو الموت فى المعركة . وهكذا أفسح العصر الفضى الطريق الى عصر وصفه أحد المراقبين بعصر « الحديد والصدأ » .

ونتج عن حالة الفوضى والاضطراب فى القرن الثالث أن تم التخلي عن « مبدأ التبنى » الذى كان قد تم استغلاله على أروع حاله فى الفترة السابقة على ذلك القرن . فلقد اعتاد أباطرة القرن الثانى اختيار خلفائهم من بين الشباب الذين تميزوا بالموهبة والاخلاص فى شئون السياسة بالامبراطورية ، بيد أنه فى القرن الثالث الميلادى ، كانت الخلافة على عرش الامبراطورية فى غالب الأحوال تتحدد وفقا لأهواء الفرق العسكرية . وربما كان أنجح أباطرة تلك الفترة الامبراطور سبتيميوس ساويرس *Septimius Severus* ( ١٩٣ - ٢١١ م ) ، الذى حافظ على سلطته عن طريق تقوية الجيش واشباع رغباته بشكل اقرب الى التدليل . كما فتح باب الترقى لأعلى مناصب الجيش



لكل الطبقات ، وفتح باب التطوع فى الجندية على مصراعيه . وفى ذلك الحين كان العمل فى الجيش السبيل المنطقى الى الوظائف المدنية العليا ، وبدأت البيروقراطية تلعب دورا متزايدا وفقا لوجهة النظر العسكرية . وأصبحت المثل العليا القديمة للجمهورية والمواطن الأول Principate غير ذات معنى رويدا رويدا عند الطبقة الحاكمة الجديدة ، وهم الذين كانوا من قبل من حثالة المجتمع ، وارتفعوا على طريق أعمالهم الناجحة فى الجيش حتى وصلوا الى أعلا المراكز ذات المسئولية السياسية العليا . وكان هؤلاء الرجال الجدد العاملون فى ادارة الدولة من الرجال الأقوياء والمهرة فى غالب الأحوال ، بيد أنهم لم يكونوا من النوع الذى يمكن أن نتوقع منهم التعلق بالتراث السياسى الرومانى القديم . وعمل الامبراطور سبتيوس ساويرس على تحسين عملية تحصيل الضرائب للامبراطورية بهدف زيادة موارد خزائنه ، والتمكن من استرضاء القوات . وانتعشت أحوال الجند المالية على حساب السكان المدنيين المطحونين بشكل متزايد ، وذلك لأن الامبراطورية اتخذت فى التحول تجاه الحكم العسكرى المستبد بشكل مطرد . ومن أقوال سبتيوس الماثورة لأبنائه والتي عبرت عن صفة مميزة لعهد و أيامه : « أجزلوا العطاء للجند ولا تقيموا وزنا لباقي البشر » .

غير أن اضطرابات روما فى القرن الثالث لا يمكن ان تنسب كلية الى مشكلة الخلافة على عرش الامبراطورية . فمنذ أوائل عهد الامبراطور ماركوس أورليوس ، تعرضت الامبراطورية الى هجوم وباء مدمر لمدة طويلة قاربت جيل ، كما تعرضت للاغارات الشديدة للبرابرة الجرمان الذين تدفقوا عبر الحدود الشمالية والشرقية حتى وصلوا الى ايطاليا نفسها . وكان على ماركوس أورليوس ، الامبراطور الفيلسوف ، أن يقضى الجزء الأكبر من عهده فى قيادة الحملات العسكرية ضد الغزاة ، ولم يتمكن من طردهم خارج الامبراطورية الا بعد جهد ضخم . وفى خلال القرن الثالث الميلادى استأنف الجرمان الهجوم بضراوة متوغلين فى حدود الامبراطورية مرة بعد أخرى ، ومجبرين مدن الامبراطورية على اقامة أسوار وقائية ومهددين ، لفترة من الوقت ، بغمر الدولة بطوفان البرابرة . وصاحب الهجمات الجرمانية الهجوم الفارسى المكثف من الشرق على يد الامبراطورية الفارسية التى أعيد تكوينها فى عهد الأسرة الساسانية التى قادها ملوك مقتدرون ، ومتفسانون فى اخلاصهم لدولتهم .

ومع ذلك كانت مشاكل روما الحقيقية داخلية . فخلال القرن الثالث الميلادى ، صاحب الانحلال السياسى انهيار اجتماعى واقتصادى . فالمتطلبات المالية المتزايدة بشكل مستمر للبيروقراطية التى انتشرت بشكل مفاجئ وكذلك أطماع الجيش المالية التى لا نهاية لها ، كل ذلك ألقى عبئا على سكان المدن والأقاليم على حد سواء ، لا يمكن تحمله . وبدأ المزارعون فى هجر حقولهم هربا من جامعى الضرائب الموجودين فى كل مكان . ونقص عدد سكان المدن من الطبقة الوسطى ، كما قسدت الأخلاق . فالمدينة التى كانت تحكم نفسها ، والتى كانت فى الواقع أساسا للنظام الامبراطورى ، وللحضارة اليونانية الرومانية ذاتها بدأت تعاني من صعوبات مالية خطيرة ، اذ ان كل مدينة بعد الأخرى لجأت الى الامبراطور طلبا للمساعدة المالية ، بعد أن تدهور نظام الحكم الذاتى للمدن . وظهرت هذه المشاكل نتيجة للطبيعة الطبقية لكثير من المدن الرومانية ، وزيادة الضرائب فى الامبراطورية ، وكذلك نتيجة للركود الاقتصادى الذى ظل يخيم على الامبراطورية رويدا رويدا ، قبيل وفاة الامبراطور ماركوس أورليوس بفترة طويلة ، وتخلت روما عن خططها القائمة على الاستيلاء على اراضى الغير ، حتى يتسنى لها انتهاج سياسة دفاعية قائمة على تماسك الامبراطورية . ولما توقف تدفق الغنائم من الأراضى المفتوحة ، صارت الامبراطورية كلها تعتمد على مصادرها الذاتية ، ومجبرة على أن تكفى نفسها بنفسها اقتصاديا وبدأ الأمر عاديا لفترة من الوقت ، بيد أن النفقات الادارية والعسكرية تزايدت دون نمو فى الاقتصاد والصناعة . ولذلك بدأ الاقتصاد الامبراطورى يشعر بالمعاناة ، كما صار الجيش عبئا ثقيلا غير منتج ، بعد أن كان مصدرا للثروات من الأراضى المفتوحة .

ويحلول القرن الثالث ، ان لم يكن قبله ، أخذ الاقتصاد الرومانى فى الانكماش ، فالأوبئة والمجاعات ، والشعور باليأس نتج عنهم جميعا انخفاض تدريجى فى عدد السكان . وفى الوقت نفسه عندما كانت النفقات والضرائب الامبراطورية فى ازدياد كانت القاعدة الأساسية لتحصيل الضريبة فى انكماش . فحل الكساد واليأس محل الرخاء الاقتصادى ، وصاحب فرار المزارعين من حقولهم هروب الطبقات الوسطى من مدنها بعد أن أرهاقتها الضرائب الفادحة . وكانت الامبراطورية فى ذلك الحين تعج بالمقسولين وقطاع الطرق ، أما هؤلاء الذين ظلوا فى أعمالهم فقد أثقلت الضرائب

المتزايدة كاهلهم تماما . وتحمل القسم الشرقى من الامبراطورية النصيب الأكبر من المعاناة . ولما كانت الصناعة متمركزة بشكل دائم فى القسم الشرقى ، لذلك تدفق المال رويدا رويدا تجاه الشرق فى المناطق الانتاجية فى سوريا وآسيا الصغرى ، وما بعدهما لدفع ثمن السلع الترفية ، التى كان بعضها يرد من خارج الامبراطورية تماما - من بلاد فارس ، والهند ، والصين . وباختصار عانت الامبراطورية بصفة عامة ، والقسم الغربى منها بصفة خاصة الكثير من العجز فى الميزان التجارى الذى نتج عنه نقص دائم فى رصيد روما من المعادن .

وأجبرت الأحوال المالية الباعثة على اليأس المتزايد الأباطرة على القينم بتجارب بهدف تخفيض قيمة العملة ، وتزييف المعادن الثمينة فى عملاتهم بخلطها مع المعادن الأقل جودة . وأوجدت هذه السياسة علاجاً مؤقتاً فقط . بيد أنه على المدى الطويل نتج عنها ارتفاع كبير وسريع فى الأسعار ناشئ عن التضخم المالى الذى قوض أركان الاقتصاد الى أبعد مدى . وفى الفترة ما بين عامى ٢٥٦ - ٢٨٠ م ارتفعت تكاليف المعيشة بنسبة ألف فى المائة .

ووصلت الفوضى السياسية والاجتماعية ذروتها خلال الستينات من القرن الثالث الميلادى . وفى خلال هذه الفترة كان الاقتصاد الرومانى فى حالة انهيار من الناحية الواقعية ، فجيوش البرابرة كانت فى حالة احتياج شديد عبر الحدود . كما أن بلاد الغال Gaul ، وبريطانيا فى الغرب ومنطقة كبيرة فى الشرق خرجت كلها من تحت سيطرة السلطة الامبراطورية واتبعت مسلماً مستقلاً . وتناقص عدد السكان بمعدل سريع ، كما كانت مدن لا حصر لها فى حالة من الاضمحلال الشديد . وبدأ توقف روما عن كل أنواع النشاط أمراً وشيكاً . ومع ذلك ، فعند القرن الثالث ، أنقذ الامبراطورية سلسلة من الأباطرة الذين اتصفوا بالشدة ، والقوة ، والتفانى فى العمل ، وبخاصة أولئك الذين اعتلوا السلطة فى أواخر القرن الثالث الميلادى . وظلت الامبراطورية باقية فى الغرب لمدة قرنين آخرين ، وفى الشرق لمدة زادت على الألف عام . بيد أن آلام القرن الثالث المبرحة تركت أثماً يتعذر محوه أو إزالته فى الامبراطورية التى أجريت بها محاولات لاصلاح شئونها . كما أن البناء الجديد للامبراطورية الذى أعاد النظام بعد حالة الاضطراب الكامل كان مختلفاً اختلافاً جذرياً عن حكومة المواطن الأول : إذ أنه كان نظاماً أوتوقراطياً صريحاً ، ومن أشد الأنواع تطرفاً .

### اصلاحات دقلديانوس :

وحتى فى اوج حالة الفوضى السياسية والاجتماعية كان هناك أباطرة ناضلوا بجهود مضنية من أجل الدفاع عن الدولة الرومانية ، وبعد سنة ٢٦٨م نجح جماعة من القادة الذين تولوا منصب الامبراطور ، والمقتدرون المتصلبون فى سلوكهم ، والذي جاءوا من أقاليم الدانوب ، فى أن يغيروا مجرى الأحداث ، وأن يستروا الحدود ، وأن يقضوا على جيوش الغزاة من البرابرة الجرمان والفرس ، وأن يستعيدوا الأقاليم التى انفصلت عن الامبراطورية فى بلاد الغال والشرق . وفى الوقت نفسه اتخذوا الاجراءات الكفيلة بإيقاف التدهور والانحيار الاجتماعى والاقتصادى الذى جعل الامبراطورية فى حالة من الضعف والوهن : انتشرت تلك السياسات وأثمرت فى عهدى دقلديانوس ( ٢٨٤ - ٣٠٥ م ) وقسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) ، اللذان يعود اليهما الفضل - والمستولية - فى اعادة بناء الامبراطورية وفقا لأفكار اخضاع الفرد وحقوقه كاملا لمصلحة الدولة *authoritarian lines* ولم يعد الامبراطور فى ذلك الحين مجرد « المواطن الأول » *princeps* بيد أنه صار السيد والاله *dominus et deus* - ومن المناسب القول أن هذا الحكم الاستبدادى الجديد الذى حل محل « المواطن الأول » يمكن أن نطلق عليه السيادة *Dominate* .

وفى عهد الامبراطور أغسطس كان من الضرورى لكى لا يتم جرح المشاعر تجاه النظام الجمهورى العمل على اخفاء سلطة الامبراطور . وفى عهد دقلديانوس كان اللقب الامبراطورى قد مرت عليه فترة طويلة من الاستهانة به ، واساءة استعماله لذلك كان من الضرورى العمل على اعلاء شأن هذا اللقب . فقام دقلديانوس ومن خلفه من الأباطرة بالعمل على تنظيم هذا المنصب بكل الوسائل الممكنة تخيلها أو تصورها . وأصبح الامبراطور شخصية عالية المقام ، ومنعزلة ، وليس من الممكن الاجتماع به أو التحدث اليه ، ومرتديا الثياب الفخمة ، وراضعا تاجا أو اكليلا من القماش مرصعا بالجواهر على رأسه . وتم ادخال نظام محكم من الطقوس فى البلاط الامبراطورى ، وتم اقتباس معظم هذا النظام من بلاد الفرس ، والذي اشتمل على اعادة السجود فى حضرة الامبراطور .

كانت أعظم أعمال دقلديانوس الفورية ، هى وضعه نهاية للتاريخ

المضطرب . « لأباطرة الثكنات العسكرية » القصيرى الأجل والمغتصبين للعرش من رجال الجيش . ولكى يعمل على ترسيخ الخلافة على عرش الامبراطورية والمشاركة فى أعباء الإدارة المتزايدة للامبراطورية ، أصدر دقلديانوس مرسوما بضرورة وجود اثنين من الأباطرة من ذلك الحين فصاعدا ، أحدهما فى الشرق ، والآخر فى الغرب ، على أن يعملوا معا بتناسق من أجل رفاهية الامبراطورية والدفاع عنها . وحمل كل من الامبراطورين لقب أغسطس ، كما اختار كل منهما زميلا أصغر سنا ، ويحمل لقب قيصر ليشاركه فى الحكم وأخيرا يخلفه فى المنصب . وفى ذلك الحين تم تقسيم الامبراطورية الى أربعة أقسام ، يشرف على كل قسم منها اما أغسطس أو قيصر . ولما كان دقلديانوس على وعى تام بالأهمية المتزايدة للقسم الشرقى من الامبراطورية من القسم الغربى منها ، لذلك اتخذ عاصمته فى الشرق ولم تطأ قدميه مدينة روما حتى نهاية عهده . ولذلك اذا ما حاول شخص ما اغتصاب عرش الامبراطورية ، من باب الافتراض فانه سوف يواجه مقاومة عنيدة من أربع شخصيات منتشرة فى أنحاء الامبراطورية بدلا من شخصية واحدة . وعلاوة على ذلك أصبحت فرص تغيير السلطات العسكرية ضعيفة بعد أن فصل دقلديانوس بين السلطتين المدنية والعسكرية بشكل دقيق . وزاد الجيش زيادة كبيرة وبخاصة بعد اشراك قوات البرابرة فى ذلك الحين - والذين أخذوا على عاتقهم عبء حماية الحدود - بيد أن الجيش أعيد تنظيمه بطريقة يستطيع الامبراطور - أو الامبراطوران السيطرة عليه بشكل أكثر فعالية عن نى قبل .

ان الفكرة الأساسية لطريقة حكم الامبراطور فى هذا العهد الجديد ، هى أن تحكم الدولة الشعب وأن تتولى أموره دون تحميله أية سلطة أو مسئولية . فمجلس الشيوخ الذى مارس مهمة تقديم المشورة للامبراطور ، كان فى ذلك الحين مجلسا صوريا . اذ كان الامبراطور يحكم بواسطة جهاز بيروقراطى مطيع ومتزايد الانتشار ، ويصدر المرسوم تلو المرسوم لينظم ويرتب ، ويخضع الدولة لنسق موحد وصارم . كما أمكن التغلب على العجز المالى بفرض ضريبة جديدة على الأراضى الزراعية تجمع عينا ، كما أن الهروب الواسع الانتشار من الأنشطة البشرية التى تؤمن وجود السلع والخدمات توقف تماما بالمزام المزارعين والحرفيين ورجال الأعمال بالبقاء فى أعمالهم . وعلى وجه السرعة نشأ نظام الطبقة الحرفية المغلقة بشكل

واسع المدى ، اذ فرض القانون أن يحترف الأبناء حرف الآباء ، وأن يتحملوا الأعباء الضريبية التي كانوا يتحملونها . وأصبح المزارعون ملزمين أو مجبرين على الارتباط بالأرض ونفس الشيء بالنسبة لسكان المدن الذين يمارسون حرفا بها . أما عمال المناجم والمهاجر فكان يتم وسمهم بالنار لاحداث علامة توضح حرفتهم . وعن طريق هذه الوسائل القاسية ، تم تجنب الانهيار الاقتصادى بصفة مؤقتة ، بيد أن ذلك كان على حساب الشلل الاجتماعى الناتج من الخوف وفقدان الأمل . كما أن المدن التى كانت فيما مضى تتمتع بالحكم الذاتى ، صارت فى ذلك الحين ترزح تحت القبضة الحديدية للحكومة الامبراطورية والالتزامات تجاه الامبراطورية كانت تتضاءل بسرعة بين الطبقات الوسطى التى كانت مثقلة بالضرائب والذين كانوا فيما مضى يدعمون الدولة بالأموال بأشد الحماس . وعلى ما يبدو كان العلاج بالنسبة لكثير من المدن أشد وطأة من آلام الداء .

ان مهمة دقلديانوس كانت انقاذ الامبراطورية مهما كان الثمن ، وربما كان من المناسب أن اجراءات اخضاع الفرد وحقوقه اخضاعا كاملا لمصلحة الدولة دون وضع الحرية الشخصية لأفراد الشعب فى الاعتبار هى وحدها السبيل الوحيدة فى مثل هذه الحالة . ولكل مشكلة اقترح دقلديانوس حلا لها - وفى غالب الأحوال كان حلا استبداديا وثقيل الوطأ وبرغم ذلك كان حلا . وقد أدى نظام الاصلاح الكامل للعملية الى تأخير التضخم المالى ، بيد أنه لم يوقفه تماما ، ونتيجة لذلك أصدر دقلديانوس مرسوما بتثبيت معظم السلع بقوة القانون . وبالنسبة لتزايد قوة المسيحية ، رد دقلديانوس ، بفتح صفحة من الاضطهاد بقسوة لم يسبق لها مثيل . غير أنه ثبت فى النهاية أن تحكم الدولة فى الأسعار ، وكذلك ممارسة عملية الاضطهاد لم تحققا أهدافهما ، بيد أن الحقيقة المجردة هى أنهما كانتا محاولتين اثبتتا الى أى مدى يمكن أن يصل اليه الامبراطور فى جهوده لحفظ - بالقوة - وحدة الدولة واستقرارها .

ان تقسيم الامبراطورية بين أوغسطس والقيصرين المختارين نجح فقط على نحو مرضى طالما كان دقلديانوس نفسه فى السلطة . وما أن بعدت سيطرة دقلديانوس القوية حتى عاد الصراع على السلطة الذى أعاد من جديد الحرب الأهلية . فكل فرد يريد أن يكون أغسطس ، كما لم يقتنع أحد بأن

يكون قيصرا . ويضاف الى ذلك ، أن مبدأ اختيار القياصرة ، الذى كان قد أحياه دقلديانوس والذى لم يكن له عقب ، تحداه أبناء خلفائه . وامتد عهد الفوضى والاضطراب الكامل من نهاية حكم دقلديانوس ٣٠٥ م حتى انتصار قنسطنطين على منافسيه سنة ٣١٢ م فى موقعة جسر ميلفيان Milvian Bridge قرب روما .

عهد قنسطنطين ( ٣٠٦ - ٣٣٧ م ) :

ان انتصار قنسطنطين فى جسر ميلفيان حدد بداية عودة الاستقرار السياسى ، واكمال اصلاحات دقلديانوس الاقتصادية والسياسية . كما أن التشريعات الخاصة بالامبراطور تطورت الى حد بعيد . ومنما مبدأ خضوع الفرد وحقوقه خضوعا كاملا لمصلحة الدولة مع عدم الأخذ فى الاعتبار بالحرية الفردية authoritarianism واستمر الأخذ بنظام الطبقات الحرفية والاجتماعية المغلقة بحكم الوراثة . ومع ذلك ففى نواحى معينة اتخذت سياسة قنسطنطين اتجاهات جديدة تهدف الى احداث تغييرات متطرفة فى الأفكار والعادات السائدة وفى الأحوال والمؤسسات القائمة Radical new directions . فبدلا من الأخذ بمبدأ دقلديانوس بشأن التبنى والذى اخفق ، أوجد قنسطنطين حكما وراثيا فى أسرته - ولفترة من الوقت جعل قنسطنطين زميلا مشاركا فى السلطة الامبراطورية . بيد أنه هزم الامبراطور المشارك Co-emperor . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ظل يحكم بمفرده . ومع ذلك فان المشاركة فى الحكم للامبراطور الشرقى أو العربى أصبح شائعا بعد وفاة قنسطنطين ، كما أن قنسطنطين نفسه ساهم فى تقسيم الامبراطورية وذلك بتشبيده القسطنطينية . تلك العاصمة الشرقية الرائعة مكان بيزنطة المدينة اليونانية القديمة .

وكانت القسطنطينية روما ثانية ، اذ كان لها مجلس شيوخها ، وكنائسها الفخمة وقصورها ، ومبانيها العامة وبطيريكها المسيحى ، وحتى طبقاتها الدنيا التى عاشت على صدقات الخبز المعينة التى كانت تقدمها الدولة ، كما كان بها وسائل التسلية بوجود سباق لعربات الخيل فى ميدان سباق الخيل الضخم . ومن أجل تجميل قنسطنطين لمدينته الجديدة قام بنقل الكنوز الفنية من العالم اليونانى - الرومانى اليها بالقوة ، كما بدد موارده الضخمة على تشييدها . والقسطنطينية التى شيدها قنسطنطين سنة ٣٣٠ م ،

ظلت عاصمة الامبراطورية الشرقية لمدة تزيد على الألف عام ، منيعة بأسوارها القوية ، يحميها البحر من ثلاث جهات ، ومجددة نفسها على الدوام بفرض سيطرتها على التجارة الغنية المتدفقة بين البحر الأسود والبحر المتوسط . والواقع أن بناء الامبراطورية حصة طويلة مدين الى موقع عاصمتها الاستراتيجية الممتاز .

وكذلك فان الشيء الأهم جدا من بناء القسطنطينية كان تحول قسطنطين الى المسيحية ومصاحبة ذلك قلبه السياسة الامبراطورية من أجل مساعدة الكنيسة وعلى الرغم من أن قسطنطين أرجأ تعميده حتى اللحظات التي وافته فيها المنية ، فانه كان قد تعهد برعاية المسيحية منذ انتصاره سنة ٣١٢ م . ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصدر قسطنطين سلسلة متصلة من المراسيم الموالية للمسيحيين مؤكدا على التسامح الكامل ، وأجاز قانون حق الارث بالوصية لصالح الكنيسة ، حيث تكسدت الأموال بشكل ضخم عبر القرون المتتالية كما وافق على مجموعة مختلفة من المزايا الأخرى . وكانت المسيحية احدى الديانات الرسمية في الدولة ( بيد انها لم تكن الديانة الرسمية ) للدولة بعد ، وان كان ذلك لم يتحقق الا قبل نهاية القرن الرابع الميلادي .

وظهرت تفسيرات عديدة عن مسألة ايمان قسطنطين بالمسيحية . فلقد تم وصف قسطنطين على أنه كان رجلا سياسيا لا دينيا ، مندبرا للأمور على ضوء استقلاله حيوية ونشاط وفعالية الكنيسة لصالح الدولة المتداعية . ويمكن القول أنه لم يكن هناك رجال غير متدينين في القرن الرابع الميلادي .

#### الامبراطورية المسيحية :

ان اصلاحات دقلديانوس حققت فترة ارجاء انهيار الامبراطورية الرومانية ، كما أن ماتلا هذه الاصلاحات من تحول قسطنطين تجاه المسيحية جعل من الممكن للكنيسة أن تنمو بسرعة تحت الحماية الودية للامبراطورية . والسنوات التي بين انتصار قسطنطين عند جسر ميلفيان Milvian Bridge سنة ٣١٢ م . والسقوط النهائي للقسم الغربي من الامبراطورية سنة ٤٧٦ م كانت سنوات مهمة جدا في تطور المسيحية . فمن ناحية شهد القرن الرابع تحولا جماعيا تجاه المسيحية . وربما كان عشرة في المائة من سكان القسم الغربي من الامبراطورية مسيحيين سنة ٣١٢ م - وفي القسم



الغربي ربما كان العدد بيزيد على هذه النسبة كثيرا - بينما فى نهاية القرن الرابع كان المسيحيين يمثلون غالبية السكان • بيد أنه فى غالب الأحوال اثار انتصار المسيحية خلافا داخليا ، وشهد القرن الرابع صراعا عنيفا بين الأرثوذكسية Orthodoxy والهـرطقة Heresy • وهنا ، أيضا لعب الأباطرة المسيحيون دورا حاسما ، وبفضل دعمهم القوى تم قمع أقوى هرطقات القرن الرابع ، وهى الأريوسية Arianism أخيرا فى داخل حدود الامبراطورية •

ويؤكد الأريوسيون على أن عقيدة التوحيد المسيحية قد أصابتها الشوائب نتيجة للايمان بعقيدة الثالوث الأقدس • وكان جوابهم على هذه المسألة التى اثارت التعارض فى الآراء هو أن الايمان بالله الآب على أنه هو الله الواحد بكل صدق ، وأن المسيح الابن ليس الها • ونظر المؤمنون بعقيدة الثالوث الأقدس الى ايمان الأريوسيين على أنه مخرب لأحد أركان معتقداتهم - والقائلة بالمساواة والمشاركة فى الألوهية بالنسبة للآب والابن والروح القدس - وحاول قنسطنطين أن يعالج الخلاف الأريوسى - الثالوثى بالدعوة الى عقد مجمع للأساقفة المسيحيين فى نيقية سنة ٣٢٥ م • وكان حضور الامبراطور بنفسه عاملا حاسما فى نيقية ، إذ أفضت ميوله تجاه المؤمنين بالثالوث الأقدس الى الاقرار الاجماعى تقريبا بالعقيدة المغايرة للأريوسية والتى أعلنت مساواة الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس وأن المسيح عيسى « من نفس جوهر الآب » •

ومع ذلك لم يكن قنسطنطين رجلا لاهوتيا • وفى السنوات التالية تذبذب قنسطنطين ، فأحيانا يتحيز للأريوسيين ، وأخرى يدينهم • وكان نفس التباين هو السمة المميزة لسياسة الامبراطورية طوال الجزء الأكبر من القرن الرابع الميلادى • وأخيرا بدد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨ - ٣٩٥ م) الأرثوذكسى العنيد نفوذ الأريوسيين بادانتهم ونفيهم خارج أراضى الامبراطورية • وفى عهد ثيودوسيوس الأول وخلفائه من بعده صارت المسيحية هى الديانة الرسمية الوحيدة للامبراطورية • وفى ذلك الحين صارت الوثنية ديانة محظورة ومضطهدة ، واختفت على وجه السرعة كقوة منظمة • •

وفى ذلك الحين سادت المسيحية الأرثوذكسية الدولة ، بيد أن انتصارها،

الذى تحقق بفضل القوة السياسية ، لم يكن انتصارا كاملا وذلك لسبب واحد ، هو أن التحول الجماعى للمسيحية فى القرن الرابع اتخذ شكلا سطحيا ، بل أنه كان من الناحية الاسمية فحسب ، فالإيمان بالمسيحية كان السبيل لتجنب القهر والاضطهاد ، كما أن المؤمنين الجدد بالمسيحية كانوا على الجملة جماعة بعيدة جدا عن مجتمعات القديسين والشهداء الباكرة .  
وحيث أن كثيرا من المسيحيين الغيورين والساخطين على العضوية الآمنة العادية ، والرتيبة للكنيسة بدأوا فى اللجوء الى الصحراء كنسك ، أو عاشوا فى مجتمعات ديرية .

ويضاف الى ذلك أن البرنامج الامبراطورى بشأن فرض المذهب الأرثوذكسى أثبت صعوبة تنفيذه الى حد بعيد . إذ ظلت الهرطقات القديمة باقية برغم تلاشيتها التدريجى . وظهرت وتزايدت أخرى جديدة بشكل نشيط وقوى فى القرن الخامس الميلادى . وظلت باقية من ذلك الحين فصاعدا بل أن الأريوسية ظلت موجودة ، ليس بين المواطنين بالامبراطورية ولكن بين البرابرة والجرمان . لأنه خلال النصف الثانى من القرن الرابع ، فى الوقت الذى كانت فيه الأريوسية ماتزال قوية فى الامبراطورية ، قد تحول عدد كبير من البرابرة الى المسيحية على المذهب الأريوسى ، ولم تكن لسياسات ثيود سيوس الأول أى تأثير عليهم البتة . وطبقا لذلك ، عندما أقام البرابرة ممالكهم بشكل نهائى على اتقاض القسم الغربى من الامبراطورية ، فإن الكثير من رعايا الرومان القدامى انفصلوا عن أصولهم القديمة ليس فقط من الناحية اللغوية أو العادات ، وإنما من ناحية شقة الخلافات الدينية العميقة أيضا .

وأخيرا ضحت الكنيسة بالكثير من استقلالها الذى كانت تتمتع به ببل اعتراف الدولة بها ، مقابل قبولها تأييد الدولة لها ضد الوثنية والهرطقة . فالمسيحيون على عهد قنسطنطين صاروا تحت سيطرة ونفوذ الامبراطور ، الأمر الذى دفعهم الى تمجيده الى أبعد مدى وحيث أن قسطنطين لم يكن فى استطاعته ادعاء القداسة ، لذلك رفعه المؤرخون المسيحيون المعاصرون من أمثال يوسيبوس Eusebius الى منزلة شبه مقدسة تقريبا . فكان قسطنطين الحواري الثالث عشر بالنسبة للمؤرخ يوسيبوس والمعاصرين لذلك الامبراطور ، وأنه كان يحكم بتقويض من الله ، وأنه فوق الكنيسة وتم توضيح مركز قنسطنطين القوى فى الشؤون الكنيسية بطريقة هيمنته على

مجمع نيقية ، أما تقلب الأريوسية بين صعود نجمها واقوله فى عشرات السنوات التى تلت عهده فإنه اعتمد على ميول خلفائه وهوامهم • وفى الشرق نتج عن هذا التمجيد للسلطة الامبراطورية المبدأ القائل بالقيصرية البابوية Caesaropopism • وهذا يعنى أن الامبراطور - هو السيد الحقيقى لكل من الكنيسة والدولة ، وأنه قيصر وبابا • وظلت القيصرية البابوية فكرة مهيمنة فى السياسة والدين للامبراطورية الشرقية أو البيزنطية على امتداد تاريخها الطويل • ومالت كل من الكنيسة والدولة الى الاندماج تحت السلطة المقدسة للامبراطور • وفى الحقيقة ، فان اعتناق السلطة الامبراطورية - للمسيحية والاقرار دينيا بأنها سلطة مقدسة ، كانتا القوتين الفعالتين فى اكتساب ولاء وطاعة جماهير الشعب المسيحى لتلك السلطة • ان الولاء الدينى للامبراطور المسيحى زود الدولة الرومانية الشرقية بعنصر أساسى للبقاء عبر القرون المتتالية • وعلى العكس من ذلك ، فان العداء للواسب الانتشار تجاه السلطة الامبراطورية الأرثوذكسية فى الأقاليم التى كانت تحت سيطرة الجماعات التى اعتنقت الهرطقة ، نتج عنه تحول أدى الى ضياع العديد من الأقاليم الامبراطورية البعيدة بصفة نهائية •

ان القيصرية البابوية فى الغرب كانت أقل تأثيرا بكثير ، لأنه منذ بداية القرن الخامس كانت الامبراطورية بالغرب تتداعى بشكل واضح وجلى • وبدأ رجال الكنيسة بالغرب يدركون أن الحضارة المسيحية لم تعد مرتبطة بمصير روما بصفة نهائية • وبدأت الكنيسة الغربية تقرض استقلالها عن الدولة رويدا رويدا ، وكان نتيجة ذلك أن الكنيسة والدولة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى لم تندمجا على الاطلاق بل ظلتا فى حسالة جن التوتر على الدوام •

#### علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية :

فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، وفى الوقت الذى كانت فيه عملية التنصير بالدولة الرومانية تتزايد بدرجة كبيرة جدا ، بل ربما قبل ان تفقد الامبراطورية الغربية كل حيويتها ، وقبل التطور الواسع المدى لاندماج الثقافتين اليهودية - والمسيحية واليونانية الرومانية الى ذروته بفضل جهود القديسين المتبحرين فى المعرفة وأصحاب المواهب الضخمة : أمبروز Ambrose ، وجيروم Jerome ، وأوغسطين Augustine

هؤلاء الرجال يمكن اعتبارهم بدون تحيز « علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية » لأن كتاباتهم المتعددة المجالات ، والتي بلغت حد الوفرة سيطرت على الفكر في العصور الوسطى . فكل من الثلاثة درس الفكر الثقافى للتراث اليونانى - الرومانى دراسة مستقلة ، وكل منهم كرس عمله وحياته لخدمة المسيحية ، وكل منهم كان ذات مرة رجل فكر ورجل أعمال .

كان أمبروز ( حوالى ٣٤٠ - ٣٩٧ م ) ، أسقفا لمدينة ميلان Milan العظيمة ، التى حلت محل روما كعاصمة للامبراطورية الغربية فى أواخر القرن الرابع الميلادى . وكان مشهورا بفصاحته وبراعته الادارية ، وبقوته فى الدفاع عن المعتقد الثالوثى الأرثوذكسى ضد الأريوسية ، وبالمقدرة والبراعة التى تمكن بها من تطويع التراث الأدبى لكل من شيشرون Cicero وفـيرجيل Virgil وفلسفة أفلاطون لأهدافه المسيحية . وقبل كل شئ كان أمبروز أول رجل كنيسة فرض استقلال وتفوق الكنيسة على الدولة فى الشئون الدينية برغم معارضة امبراطور مسيحى عظيم . فعندما ذبح الامبراطور المقتدر ثيودوسيوس الأول الثائرون من سكان مدينة سالونيك Thessalaica بوحشية قام أمبروز بمنعه من دخول كنيسة ميلان ، الى أن أعلن هذا الامبراطور ندمه رسميا وبشكل علنى . وكان موقف أمبروز الجريء ، واستسلام ثيودوسيوس المذل نكسة مذهلة لمبدأ القيصرية البابوية ، وبمثابة مقدمة مثيرة لصراع طويل بين الكنيسة والدولة فى الغرب المسيحى .

وكان جيروم ( حوالى ٣٤٠ - ٤٢٠ م ) عالما مبدعا ، ولا يعرف الكل ، ومصالحا محبا للبحث ، به مسحة من الحدة فى الشخصية . اذ قال ذات مرة لأحد معارضيه « سيدى الفاضل ، ان لديك الرغبة فى الكذب ، بيد أنه ليس لديك المقدرة على الكذب » . ولما كان من عادته التجول فى كل مكان عبر حدود الامبراطورية ، فانه شـيد ديرا فى مدينة بيت لحم Bethlehem حيث جعل الرهبان التابعين له يقومون بنسخ المخطوطات ، وبذلك أوجد عادة حافظت على التراث اللاتينى فى العالم والمعرفة على امتداد العصور الوسطى ونقله للأدب الوثنى حماسه الدينى ، وحكى عن رؤيا فى منامه حيث طرده عيسى ( عليه السلام ) من الفردوس قائلا له ، « انك من اتباع شيشرون ، ولست بمسيحى » . بيد أنه عمل فى النهاية على التوفيق بين الثقافة الوثنية والايمان المسيحى باستخدام الأولى لصالح الأخيرة . وأعظم مآثره فى الفكر

المسيحي كان فى ميدان الترجمة المتعلقة بالكتاب المقدس والتفسيرات التى قدمها - وقبل كل شيء ترجمته التذكارية المهمة والعالمية للكتاب المقدس من العبرية واليونانية الى اللاتينية . ولقد استخدم الرومان الكاثوليك ترجمة جيروم ، للكتاب المقدس منذ ذلك الحين . وكانت هذه الترجمة هى الأساس لعدد لا حصر له من الترجمات الى اللغات الحديثة . ( يستخدم المتحدثون باللغة الانجليزية ترجمة دويواى Douay التى نقلها عن ترجمة جيروم ) . ان انجاز جيروم كان انجازا مهما جدا للحضارة الغربية .

وكان أوغسطين ( ٣٥٤ - ٤٣٠ م ) اكثر علماء اللاهوت اللاتينى تأثيرا فى المعرفة وهو الذى قضى الأربعين عاما الأخيرة من حياته أسقفا لمدينة هيبو Hippo فى شمال أفريقيا . وعلى شاكله جيروم كان أوغسطين قد اصابه الانزعاج بسبب أخطار الثقافة الوثنية على الروح المسيحية ، وأخيرا توصل الى الكثير كما فعل جيروم ، من أن المعرفة اليونانية الرومانية يمكن أن يستفاد منها بالقدر المناسب لشرح الايمان المسيحي ، على الرغم من انه لا يصح دراستها من أجل المعرفة بها فحسب . لقد كان أوغسطين اول من وضع الخطوط الأساسية لعلم اللاهوت فى العصور الوسطى . وكذلك كان أكثر توفيقا من معاصريه فى دمج التعاليم المسيحية بالفكر اليونانى وبصفة خاصة فلسفة أفلاطون ، واتباع أفلاطون الجدد Neo platonists . ويقال ان أوغسطين قام بتعميد أفلاطون . وكأحد المؤمنين يفكر أفلاطون ، أكد أوغسطين على أهمية المثل العليا على الأشياء المادية ، بيد أنه بدلا من تحديد مكان هذه المثل العليا فى السماء ، فانه جعلها فى القدرة الالهية . وأن الفكر البشرى لديه المقدرة على أن يكون متقبلا لتأثير المثل العليا بفضل النعمة الالهية « الالهام الالهى » فحسب .

وكأسقف كان أوغسطين مشغولا باهتماماته بأبرشيته ورعايته لرعيته . ولا ترجع مآثره فى الفكر الوثنى الى تجربة هادئة لنظام لاهوتى مثبالي فحسب ، وانما الى ردود لفعل عنده بشأن قضايا الساعة التى فرضت نفسها . وكان فكره مزيجا من عمق التفكير والبداهة ، ومن المثالية والانسانية وتحكي اعترافاته His Confessions رحلته الروحية عبر الطوائف الوثنية والهرطقية الى المسيحية الأرثوذكسية . متضمنا فى هذا الكتاب العظيم الأمن فى أن يهتدى الضالون ، كما كان هو أحدهم فى يوم ما ، بنعمة الله الى الايمان بأن المسيح حق وصدق .

وكتب أوغسطين بوضوح ضد مذاهب الهراطقة المتعددة والتي هدت المسيحية الأرثوذكسية على أيامه وكتب باقتناع عن طبيعة الثالوث الأقدس ، ومشكلة الشر الذى أوجده الله فى العالم ، وعن الطبيعة الخاصة لرجان الكهنوت المسيحيين ، وعن طبيعة حرية الإرادة والقضاء والقدر . وأصدر كتابه الرائع ، مدينة الله The City of God للرد على الوثنيين الذين نسبوا عمليات السلب والنهب التى تعرضت لها مدينة روما على يد البرابرة سنة ٤١٠ م الى التخلّى عن عبادة الآلهة القدامى . وأجاب أوغسطين بوضع نظرية مسيحية فى التاريخ وهى التى فسرت التطور الانسانى وفقا لقواعد العلاقات الأخلاقية لا طبقا للعلاقات السياسية أو الاقتصادية . وباعتباره الفيلسوف المسيحى الأول فى التاريخ ، فقد نقل بغزارة عن عمق الرؤية التاريخية لليهود القدامى . وكما قال الأنبياء فى الأزمنة الماضية ، أكد أوغسطين على أن الممالك والامبراطوريات تقوى وتسقط وفقا لحكمة أو غاية الهية ، وأن هذه الغاية أو الحكمة الالهية تستظل فوق القدرة البشرية الى الأبد . ورفض أوغسطين قبول العقيدة اليهودية القائلة بالخلّاص القاصر على السلالات القبلية لأبناء اسرائيل الاثنى عشر ووضع مكانها النظرية القائلة بالخلّاص الشخصى . فالوحدات الأساسية فى التاريخ ليست القبائل أو الامبراطوريات وإنما الأرواح الخالدة المستقلة والقائمة بذاتها . وأعلن أوغسطين أن خلّاص الأرواح لا يعتمد على قدر ومصير روما ، وإنما على نعمة الله ، فالمسيح لم يكن يعتمد على قيصر . وإذا ما نظرنا الى التاريخ من وجهة النظر الأخلاقية – من وجهة نظر الأرواح – فأننا لا نرى معارك حربية أو تنافس بين الدول وإنما صراعا أساسيا أبعد من ذلك بكثير بين الخير والشر الذى احتدم عبر التاريخ ، والذى مازال حتى الآن يحتدم فى كل نفس . فالجنس البشرى ينقسم الى طبقتين ، هؤلاء الذين يعيشون فى نعمة الله ، وأولئك الذين لا يعيشون فى نعمة الله . فالأول ينتمون الى ما يطلق عليه أوغسطين « مدينة الله » ، والآخرين ينتمون الى « مدينة الشيطان » . ويتعامل اتباع هاتين المدينتين بشكل متعذر فى هذا العالم ، بيد أنهم سيفترقون عن بعضهم البعض عند الموت ، أما بالخلّاص الأبدى ، أو بالادانة الأبدية . وأعتقد أوغسطين ، وفقا لوجهة النظر هذه المتسامية انه يتعين على المسيحى أن يدرس التاريخ ، وأن الله وحده هو الذى يعلم مدى تأثير تدهور روما على مدينة الله . ولربما كان التأثير ناقعا ومفيدا ، ولربما كان لا علاقة له البتة بالموضوع .

ان أوغسطين أحد اثنين أو ثلاثة مفكرين مبدعين فى التاريخ المسيحى •  
فمسيحيته المتأثرة بالآراء الأفلاطونية أثرت على علم اللاهوت فى العصور  
الوسطى حتى القرن الثانى عشر تأثيرا كبيرا ، وظلت باقية التأثير فى الفكر  
المسيحى حتى أيامنا هذه الى حد بعيد • وصار تأكيده على النفوذ السرى  
الخاص بالمنصب الكهنوتى ، بل وظل المرتكز لعلم اللاهوت الكاثوليكي •  
وتأكيده على النعمة المقدسة والقضاء والقدر ، وبالرغم من أنه ضعف الى  
حد كبير على يد الكنيسة فى العصور الوسطى ، فانه ظهر من جديد فى القرن  
السادس عشر ليسيطر على التعاليم البروتستانتية الباكراة • ونظريته عن  
المدينيتين بالرغم من أنها كانت تعرض فى غالب الأحوال فى شكل مبسط الى  
حد سوء فهمها والاستهانة بقدرها ، فكان لها تأثير هائل على الفكر التاريخى  
والسياسى الغربى طوال الألف عام التالية •

وكان كل من أسبروز وجيروم ، وأوغسطين مؤلفين ومبدعين فى وقت  
واحد • وهم أعظم المفكرين فى الامبراطورية الغربية ، اذ عملوا على مستوى  
رفيع فى الفكر لم يصل اليه الغرب المسيحى مرة ثانية لمدة سبعة قرون •  
ان قوة التراث الكلاسيكى الذى يشكل أساس المسيحية فى العصور الوسطى  
وكذلك الحضارة الغربية كل منهما مدين الى حد كبير الى هؤلاء الرجال ،  
والى آخرين من أمثالهم ، الذين وجدوا أنه من الممكن أن يكونوا مسيحيين  
وثنسيرويين •

## ٤ - تدهور روما والغزوات الجرمانية :

### التدهور والسقوط :

ان كارثة تدهور وسقوط روما جعل المؤرخين يقفون امامها كثيرا بصفتها دائمة ، لأنه تمخض عنها ليس فقط انهيار دولة عالمية ثابتة الأركان ولها فاعليتها ، ولكن أيضا زوال الحضارة اليونانية الرومانية نفسها . والواقع ان الأسباب معقدة الى أبعد مدى الى حد لا يمكن ارجاعها الى سبب واحد بشكل مرضى - فالنسيحية ، والمرض ، والرق ، وانهك التربة الزراعية ، أو أى سبب آخر من الأسباب الرئيسية التى قدمها الباحثون من حين الى آخر . ويجب على المرء أن يضع فى اعتباره أن الامبراطورية سقطت فى الغرب فقط . وظلت باقية فى الشرق ، وبالرغم من وجود الحضارة - الرومانية هناك أيضا ، فانها تغيرت بدرجة مثيرة للانتباه . وفى العادة وصفت حضارة الامبراطورية الشرقية لا على أنها « رومانية » أو حتى « يونانية رومانية » ، وانما « بيزنطية » ، كما أن التغير فى التسمية دل على تحول جذرى فى أساليب الحياة والمعاملات . ويعنى آخر ، فان الثقافة اليونانية الرومانية تحولت فى كل من الشرق والغرب رويدا رويدا ، بيد أن تحولها فى الغرب صاحبه تعمق وتقطيع أوصال الدولة الرومانية ، فى حين حدث التحول فى الشرق برغم الاستمرارية السياسية المفهومة ضمنيا التى سار عليها الأباطرة فى شكل سلسلة غير مفروطة العقد .

وفى الغرب ، فى ذلك الحين ظهرت أمامنا ظاهرتان منفصلتان ومختلفتان - الانهيار السياسى ، والتحول الثقافى وبلغ الانهيار ذروته بخلع آخر أباطرة القسم الغربى سنة ٤٧٦ م ، بيد أن الفترة الحقيقية للآزمة كانت فى القرن الثالث الذى عمته الفوضى الشاملة فى عدة جوانب من جوانب الحياة العامة . إذ ان تحسن الأحوال فى عهدى دقلديانوس وقنسطنتين كان جزئيا فحسب وبصفة مؤقتة ، وإذا كان ضياع الأمة الذى صار وشيكا ، أمكن تأجيله ، فإن الداء ظل دون علاج . ولم تساهم جماهير الشعب فى المدن والريف فى الحضارة الرومانية عن قصد على الإطلاق ، كما أدت الفوضى السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الى عدم التزام الطبقات الوسطى بالقيم الروحية أيضا . وانحسرت روح المبادرة والالتزام وسط



جو من الاضطراب الاقتصادى والسياسى بل وعمل الحكم المطلق فيما بعد على كبتها . فروما فى القرن الرابع كانت دولة بوليسية دكتاتورية سلبت رعاياها حريتهم الشخصية ، وأحكمت الرقابة عليهم بشبكة ضخمة من المخبيرين ورجال الشرطة السرية . لذلك فان انهيار دولة كهذه لا يمكن أن ننظر اليه على أنه كان كارثة كاملة إذ لابد أنه كان يبدو للكثيرين على أنه نعمه .

وكان الغرب على الدوام أكثر فقرا وأقل تمدنا عن الشرق ، كما أن اقتصاده الذى كان فى حالة تدهور شديد نتيجة لحالة الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عمت القرن الثالث ، كاد أن يصاب بالشلل التام تحت وطأة أعباء السلطة الحكومية الامبراطورية والدفاع عن الحدود التى تعرضت للهجمات العنيفة . ولربما كان التصدع الذى لم يكن هناك سبيل الى مقاومته فى الاقتصاد الغربى يكمن فى عجزه عن أن يكون عوضا عن تخلى الامبراطورية عن التوسع واستبداله بإجراءات التطور الداخلى المكثف . ولم يكن هناك انتاج على نطاق واسع ، أو انتاج بالجملة ، لأن الغالبية العظمى من السكان كانوا على درجة شديدة من الفقر التى لا تسمح بوجود سوق لتجارة الجملة . ولقد كان الانتاج الصناعى متخلفا ، وذلك لأن الطرق الغنية لاحراز التقدم العلمى Technology كانت تتقدم ببطء شديد . وظل الاقتصاد زراعيا بصفة أساسية ، ولم تتقدم أساليب الزراعة الا قليلا جدا عبر قرون الامبراطورية . فدرجة العناية بالتربة الزراعية الرومانية كانت بدائية وغير مثمرة ، إذ لم يكن يعرفون الطواحين الهوائية ، كما أن الطواحين المائية كانت نادرة . ولم يمكن استخدام الحصان كحيوان لجر الأثقال لأن عدة الفرس عند الرومان كانت تتقاطع مع قصبه الفرس الهوائية مما يعرضه الى الاختناق تحت وطأة حمل ثقيل . ونتيجة لذلك كانت الزراعة الرومانية مبنية على الثيران الأقل مقبرة عن سواعد العبيد والأقنان .

وجلب ا لانهاك الاقتصادى الشديد عاقبتين وخيمتين مزدوجتين هما : تدهور عدد السكان والفقر المتزايد ، وفى الوقت نفسه صار العجز فى القرية البشرية شديدا ، وأدت حالة الفقر المدقع الى اصابة الطبقات الوسطى بالشلل . فى الوقت الذى كانت تتزايد فيه نفقات الحكومة بشكل مستمر . وزاد عدد الجيش وكذلك العاملون فى الدواوين الحكومية باستمرار حتى زاد

ما تضمنته رواتب الدولة عن جداول الضرائب فى نهاية الأمر • وكان انخفاض وتدهور الحياة فى المدن احدى نتائج تلك العمليات السابقة • وبحلول القرن الخامس الميلادى ، أصبحت المدن التى كانت تعج بالنشاط فيما مضى خاوية على عروشها ، ومفرغة من ثرواتها وغالبية سكانها • كان هناك فقط الطبقة الغنية من أصحاب الأراضى الزراعية الذين نجحوا فى تحقيق أرباح فى هذا الجو الاقتصادى فى أواخر أيام الامبراطورية بالغرب ، فهؤلاء الرجال هجروا منازلهم بالمدن ، وانسحبوا من كل شئون الحياة بالمدن ، واستقروا فى أراضيهـم الزراعية حيث جمعوا ، فى الغالب ، جماعات مسلحة كبيرة ، وتحدوا محصل الضرائب • ويعد أن هجرت الطبقة الأرستقراطية المدينة فى ذلك الحين ، فانها ظلت طبقة زراعية طوال الألف عام التالية • وهكذا نشأت طبقة النبلاء فى العصور الوسطى •

ان تدهور المدينة كان اجراء مدمرا للبنية الادارية للامبراطورية الغربية • والاكثر من ذلك ، أن هذا التدهور وضع نهاية لاتجاه الحياة بالمدن نحو الثقافة اليونانية الرومانية المتعلقة بالعصور القديمة • ولم تستطع حضارة أثينا ، والاسكندرية ، وروما البقاء فى مجالاتها • انه بتدهور مجتمع المدينة نجد الرباط الوثيق والحاسم بين الانهيار السياسى والتحول الثقافى • ومن الناحية الواقعية ، كانت الثقافة اليونانية الرومانية قد انتهت فى بعض نواحيها قبل أن تزول الامبراطورية الغربية بصفة نهائية ، ان لم يكن عزل آخر امبراطور سنة ٤٧٦ م سوى مجرد صورة باهتة لصفحة تاريخية كانت قد طويت منذ امد بعيد • ومنذ ذلك الحين كانت المدن فى حالة احتضار وتراجع كل من النظرية العقلانية ووجهة النظر الانسانية كلية أمام الفلسفة المتعالية والتأمل المبهـم • وصار بالجيش بل والحكومة المدنية اعداد كبيرة من البرابره لأن الأباطرة المتسمين بالقهر الناشئ عن اليأس ، والذين واجهتهم مشكلة نقص القوى البشرية المتزايدة اتجهوا شيئاً فشيئاً الى الشعوب الجرمانية للدفاع عن الحدود ، وحفظ النظام فى دولتهم • وفى النهاية كثر عدد البرابرة فى الجيش وتم استئجار قبائل كاملة للدفاع عن الحدود • ووصل قيادة الجرمان العسكريون الى أعلا مناصب السلطة فى الامبراطورية الغربية • والواقع أن بقاء الدولة صار يعتمد على نجاح المدافعين من الجرمان الذين تعوزهم الحماسة ضد الغزاة من الجرمان الذين كانوا تواقين للسلب والنهب •

وبرغم تدهور الحياة فى المدن ، وتوقف حالة التحضر ، وانتشار التامل

المنهج أو اللاعقلانى *Mytsticism* . والتخلف فى أواخر أيام الامبراطورية فى الغرب ، برغم كل ذلك لم تمت الثقافة اليونانية - الرومانية أبداً ، وإنما ظلت باقية الى حد معين . وكما شاهدنا ، كان لتلك الأحوال تأثيرها على ابناء الكنيسة اللاتينية ، وبواسطتهم على الفكر فى العصور الوسطى . وكانت هذه الأوضاع هى القاعدة الأساسية لحركات الاحياء الثقافى المتكررة ، كبرت أو قلت ، عبر القرون - فى عصر شارلمان ، فى العصور الوسطى العالية ، فى عصر النهضة ( فيما بين القرون الرابع عشر حتى السابع عشر ) ، وفى عهد ازدهار المفاهيم الكلاسيكية بشكل جديد فى الأدب والفن فى القرن الثامن عشر . وإذا ماكانت الدولة الرومانية قد انتهت قبل انتهاء سلسلة الأباطرة الغربيين سنة ٤٧٦ م بزمان طويل من ناحية ، فإنها ظلت باقية زمناً طويلاً بعد ذلك من ناحية ثانية - فى شكل النظام الكنسى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية وفى الامبراطورية الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى . وظل القانون الرومانى ملهماً للتشريع الغربى ، كما بقيت اللغة اللاتينية لغة المتعلمين فى أوربا لمدة تزيد عن الألف عام فى حين تطورت لهجات الطبقات الاجتماعية الدنيا الى اللغات الرمانسية الايطالية والفرنسية ، والاسبانية والبرتغالية ، ولغة أبناء رومانيا . وبأشكال لا حصر لها انتقل التراث الكلاسيكى الوافر للعصور القديمة الى العصور الوسطى ، وظل الأوروبيون ينهلون لعدة قرون من الفكر اليونانى ويعيشون وفى مخيلتهم ذكرى روما بصفة مستمرة .

### الشعوب الجرمانية :

تدين حضارة العصور الوسطى بالكثير الى التراث اليونانى - الرومانى ، بيد أنها نقلت أيضاً عن التقاليد الثقافية اليهودية والمسيحية والجرمانية .<sup>١</sup> ولاحظنا اندماج الثقافة اليونانية - الرومانية بالمسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، بداية بالمسيحيين الأول الذين تصدوا للدفاع عن هذا الاندماج كتابة والذى بلغ ذروته فى كتابات أمبروز وجيروم ، وأغسطين . وبحلول القرن الخامس ، كان دمج التقاليد اليونانية - الرومانية والمسيحية قد اكتمل بشكل جوهري ، بيد أن عملية التكامل عن طريق دمج الثقافة الجرمانية بهما لم تبدأ الا فى القرن الخامس .<sup>٢</sup> وحفظت الكنيسة التقاليد اليونانية الرومانية المسيحية طوال قرون العصور الوسطى التى عمتها

الاضطرابات ، / فى الوقت الذى سيطرت فيه - التقاليد الجرمانية على النظم السياسية والعسكرية للدول البرابرة التى شيدوها على أشلاء الامبراطورية فى الغرب ؛ وصار الغزاة الجرمان مسيحيين من الناحية الاسمية على الأقل فى الحال ؛، بيد أنه بقيت هناك ثغرة ثقافية واسعة بين الكنيسة بترائسها اليونانى - الرومانى - المسيحى ، والممالك الجرمانية بثقافتها المتجهة نحو الحرب والبدائية واستطاعت الكنيسة فى العصور الوسطى الباكزة أن تحفظ الثقافة القديمة فى قالب مبسط ومتواضع فقط ، لأنه بمرور الوقت أتى القادة الكنسيون والعلمانيون الأرستقراطيون من بين نفس البيئة الاجتماعية رويدا رويدا . ومع ذلك ظلت عملية تحضر وتنصير الشعوب الجرمانية هى المهمة الضخمة التى قامت بها الكنيسة فى العصور الوسطى الباكزة . وفى النهاية تحقق وجود المركب الواحد الذى ضم التراث الكلاسيكى المسيحى - الجرمانى ، وظهرت الى الوجود حضارة أوربية غربية جديدة .

ويبدو أن معظم القبائل التى غزت غرب أوربا جاءت فى الأصل من المنطقة الاسكندنافية ، موطن الوندال الذين خرجوا منها مؤخرا وهاجروا رويدا رويدا الى الشرق وجنوب شرق أوربا وبدأوا يهاجمون حدود نهر الراين والدانوب . وأنه لأمر متطوئ على المخاطرة اذا ماقمنا بوضع تعميم مطلق فيما يتعلق بثقافتهم ونظمهم ؛ لأن العادات تختلف من قبيلة الى أخرى اختلافا كبيرا . فالفرنجة Franks ، والانجلز Angles والسكسون Saxons على سبيل المثال كانوا شعوبا زراعية وكانت حركاتهم بطيئة ، بيد أنهم اذا ما استقروا فى مكان كان من الصعب عليهم مغادرته . ولما كان تأثيرهم بالحضارة الرومانية قليلا ، لذا فانهم اتوا الى الامبراطورية على وثنيتهم . ومن ناحية أخرى ، فان القوط الغربيين Visigoths ، والقوط الشرقيين Ostrogoths ، والوندال كانوا فى أن واحد أكثر ميلا للترحال وعدم البقاء فى مكان واحد . وقبل أن تعبر الشعوب الثلاثة حدود الامبراطورية ، تأثرت الى حد ما بالثقافة الرومانية ، كما أنها اعتنقت المسيحية الأريوسية فى القرن الرابع الميلادى .

ويوجد وصف جيد لنظم الحياة الجرمانية الباكزة فى كتاب مختصر يحمل اسم الجرمان Germania كتبه المؤرخ الرومانى تاكيتوس Tacitus سنة ٩٨ م . على أن هذا الأثر الأدبى غير جدير بالاعتماد

عليه بصفة كلية ، لأنه اثر النبى منطو على درس أخلاقى كتب بقصد نقد  
« انحلال وتفسخ » الرومان وذلك بمقارنتهم بطريقة غير مستحبة بالبرابرة  
البسطاء ، والسذج مع وصفهم بالاستقامة الخلقية . ومع ذلك ، فإنه بشكل  
مصدرا نفيسا لمعرفة نظم ، وعادات الجرمان الباكرة . ومما لاشك فيه ،  
فإننا نقبل وصف تاكيتوس للجرمان كرجال ضخام القامة ، شعرهم أشقر  
ضارب الى الحمرة ، وعيونهم زرقاء ، ويعيشون فى قرى متواضعة ، غير  
أن مديحه لفضائلهم ، وعفتهم فهو أمر ينطوى على المبالغة بكل مافى الكلمة  
من معنى . وعلى الجملة فيبدو أنهم كانوا مدمنين للخمر ، أفاكين ، منغمسين  
فى الشهوات ، كما أن نقائصهم كانت لا تقل كثيرا عن نقائص الرومان ، وفى  
النهاية فإنهم كانوا أكثر تخلفا وفضاظة . أشار أحد الرجال الرومان فى القرن  
الخامس الميلادى الى مستوياتهم فيما يتعلق بالصحة الشخصية قائلا  
« ما أسعد الأنف التى لا تستطيع أن تشم رائحة بربرى » .

وعلى الرغم من أن الجرمان استخدموا الأدوات والأسلحة الحديدية ،  
فإن نظامهم الاجتماعى والاقتصادى كان فى كثير من النواحي حافلا بذكريات  
المرحلة الثقافية للعصر الحجري الحديث . وكانت رعاية المحاصيل الزراعية  
أو قطعان الماشية وكذلك شن الحروب أنشطتهم الرئيسية . وكانت الوحدة  
الاجتماعية الأساسية فى العادة هى الجماعة الأسرية أو العشيرة التى قامت  
بحماية مصالح أعضائها عن طريق العداء الدموى ، فعندما يقتل رجل كانت  
عشيرته ملزمة بالثار له بالمسلك العدائى الدموى - وذلك بإعلان الحرب  
على القاتل وعشيرته . وفى البيئة الأخلاقية المتسمة بشدة الانفعال والعنف  
فى القبيلة ، لم تكن عمليات القتل سوى شيئا عاديا للغاية ، ومن ثم فلكى  
تحفظ القبيلة بنيتها الاجتماعية من أن تتمزق أربا ، أصبح من المألوف أن تقيم  
أن تقيم القبيلة نظام الدية Wergeld . وهو عبارة عن مبلغ من المال  
يدفعه القاتل الى أسرة القتيل ترضية لهم لصرفهم عن الانتقام والثار .  
وأصبحت بيانات الدية مفصلة تماما ، وكذلك تفاوتت المبالغ المالية التى  
يتعين على القاتل دفعها وفقا للمنزلة الاجتماعية للضحية . كما كانت تحدد  
ديات صغيرة للإصابات القليلة مثل حالات إصابة الضحية بفقد ذراعه ،  
أو ساقه ، أو إبهام يده ، أو أحد أصابعه . ومع ذلك ، لم يكن هناك ضمان  
بأن الشخص القاتل أو الذى قام بعملية البتر أو التشويه للضحية سوف  
يقوم بدفع الدية أو أن الضحية أو عشيرته على استعداد لقبولها . وعلى

الرغم من وجود نظام الدية ، فان العداء الدموى استمر لفترة طويلة فى العصور الوسطى .

كانت الروابط الأسرية بين الجرمان الباكرين قوية ، بيد أنهم تعرضوا لمنافسة الوحدات الاجتماعية الأخرى ، والجماعات المسلحة Comitatus ولم تلعب القرابة دورا فى هذا النظام لوجود نوع ما من الجماعات المحاربة المنظمة التى كانت تدين بالولاء للرئيس أو الملك / وكانت الجماعات المسلحة نوعا من الأخوة العسكرية القائمة على الشرف والاخلاص ، والشجاعة ، والاجترام المتبادل بين القائد ورجاله . وفى حالة وجود حرب ، فانه كان من المتوقع ان يبرز القائد رجاله فى الشجاعة والاقدام ، واذا ماقتل القائد ، كان رجاله ملزمين أدبيا بالقتال حتى الموت حتى لو كانت قضيتهم لا أمن فيها . واستمرت التأثيرات البطولية للجماعات المسلحة موجودة على امتداد العصور الوسطى الباكرة كصفة مميزة لأيدولوجية شهامة المحارب الأوروبى .

وكانت الجماعة المسلحة Comitatus والعشيرة تشكل أجزاء لوحدة أكبر ، وهى القبيلة ، التى ارتبط أعضاؤها معا بولائهم لملك أو باعترافهم بمجموعة من القوانين المتعارف عليها . وكان القانون الجرمانى متسما بالاستبداد والسذاجة اذا ماقورن بالصرح القانونى الرومانى المهيبة . وكانت الاجراءات الشكلية مهمة بكل ما فى الكلمة من معنى ، وتحدد الادانة فى جريمة أو البراءة منها فى غالب الأحوال ، بأن يطلب من المتهم بأن يمسك بقضيب من الحديد متوهج الحرارة أو أن يغمس يده فى مرجل به ماء فى درجة الغليان . ومع ذلك فان الاطار القانونى العام للأوروبيين الغربيين على امتداد العصور الوسطى كان جرمانيا أكثر من رومانى - ولم تظهر حركة احياء القانون الرومانى الا فى القرن الثانى عشر فى الغرب حيث بدأ تأثيره يظهر للمرة الثانية ، وفى الوقت نفسه فبرغم تخلف القانون الجرمانى ، فانه رسخ فى الأذهان فكرة فريدة ومثمرة فى الفكر الغربى : وهى أن القانون لم يكن نتاجا للمشيئة الملكية ، ولكنه كان ممثلا للعادات الشعبية المعنة فى القدم . ولما كان الملك لا يستطيع تغيير القانون فالسلطة الملكية حينئذ ليست سلطة مطلقة . وفى العصور الوسطى الباكرة اعتاد ملوك الجرمان تدوين عادات شعوبهم ، بيد أنهم نادرا ما ادعوا حق التشريع على مسئوليتهم . وخارج نطاق هذه الخلفية ظهرت هناك فى العصور الوسطى العالية المبادئ الدستورية للحكومة تحت سيادة القانون .

وشهدت القرون التي سبقت الغزوات المتقدمة ذكرها مباشرة تطور للأسر الملكية بشكل مستمر نسبيا بين كثير من القبائل الجرمانية . وربما استطاع محارب موهوب بمساعدة جماعة مسلحة Comitatus نوعا ما ، أن يبدأ عهد أسرة حاكمة ، بيد أنه قبل مرور عدة أجيال طالب الملوك بحقهم في إرث العرش عن أجدادهم المقدسين . وعندما يموت أحد الملوك يختار مجلس القبيلة خليفته من بين أكفأ أعضاء أسرته . وربما يكون هذا الشخص أو لا يكون أكبر الأبناء ، لأن مجلس القبيلة له سلطة كبيرة في حرية الاختيار عند الانتخاب . واستمرت عادة الانتخاب في معظم الممالك الجرمانية لفترة طويلة في العصور الوسطى . والنتيجة الرئيسية لذلك خلال غزوات القرن الخامس الميلادي أكدت على أن قبائل البرابرة كانت تحت قيادة ملوك أو شيوخ مهرة ومحاربين مقتدرين في الوقت الذي حكم فيه الامبراطورية في الغرب إباطرة ضعاف وسذج .

اعترف المؤرخون في القرون السابقة بعلو قدر الحقيقة القائلة بأن بعض النظم الجرمانية يبدو أنها كانت تحتوي على الأصول الأساسية للمبادئ الدستورية والسيادة الشعبية . ولذلك قيل أن الديمقراطية لها أصولها في غابات ألبانيا . ومع ذلك يجب أن يكون واضحا أن التبجيل المعتاد « نقانون الشعوب » أو علو المكانة السياسية لمجلس القبيلة لم يكن قاصرا على الشعوب الجرمانية ، وإنما كان شائعا بين الشعوب البدائية . والشئ المدهش عن تلك النظم ليس في وجودها بين الجرمان البرابرة ، ولكن في استمرارها وتطورها في القرون التي تلتها .

### غزوات البرابرة :

ظلت الشعوب الجرمانية تشكل تهديدا للامبراطورية لفترة طويلة . وإذا كانوا قد هزموا جيشا رومانيا في عهد الامبراطور أغسطس ، وتوغلوا بعمق في أراضي الامبراطورية في عهد الامبراطور ماركوس أوريليوس ، وكذلك مرة ثانية في منتصف القرن الثالث بيد أنه حتى أواخر القرن الرابع الميلادي كان الرومان قد نجحوا بصفة دائمة في طرد الغزاة من أراضيهم . ومع ذلك ، فبدائية من سنة ٣٧٠ م واجهت الامبراطورية المنهكة ضغوطا من البرابرة متجددة بأعداد ضخمة لم يسبق لها مثيل . وتحت اغراء الثراء

النسبى بالامبراطورية ، والتربة الزراعية الجيدة ، ومناخ عالم البحر المتوسط الشمس ، اتجه البرابرة الى النظر تجاه الامبراطورية على أنها شئ لا يصح احداث خراب ودمار بها ، وانما لكى ينعموا ويستمتعوا به . وتحول حينئهم الدائم منذ القدم الى اراضى الشاسعة عبر حدود الامبراطورية الرومانية فجأة الى حاجة ملحة على يد قبيلة يدوية آسيوية شرسة ، والتي اندفعت مهاجمة تجاه الغرب وهم الذين عرفوا باسم الهن . Huns وهؤلاء الفرسان الذين تميزوا بالقسوة هزموا قبائل الجرمان واحدة بعد أخرى الى أن حولهم الى اتباع لهم . وسقط القوط الشرقيون أمام قوة الهن وأصبحوا شعبا تابعا لهم . وحاولت القبيلة الكبرى الأخرى ، وقوط الغربيون أن تتجنب مصير مماثل عن طريق المطالبة بسكان يلونون به خلف الحدود الرومانية لئلا يهزم الدانوب فتعاطف الامبراطور الشرقى فالنز Valens ، الذى كان أريوسيا متحمسا مع القوط الغربيين الأريوسيين . وعلى ذلك عبرت القبيلة بكاملها حدود الامبراطورية بهدوء سنة ٣٧٦ م .

وكانت هناك مشكلة قورية تقريبا . اذ قام موظفوا الدولة المرتشسون بالاحتيال على القوط الغربيين واساءة معاملتهم ، مما جعل هؤلاء القبليين ، الذين تميزوا بحدة الطبع ، يقابلون الأذى بمثله بالاستمرار فى الثورة والتمرد . وأخيرا قاد الامبراطور فالنز المعركة بنفسه ضدهم ، بيد أن ضعف مقدرة الامبراطور من هذه الناحية أدت الى ضياع جيشه وحياته فى معركة أدريانوبل Adrianople سنة ٣٧٨ م . كانت أدريانوبل كارثة عسكرية كاملة لم يسبق لها مثيل . وعمل ثيودوسيوس الأول القنتر ، خليفة فالنز على تهدئة القوط الغربيين ، بيد أنه لم يستطع طردهم من أراضى الامبراطورية . وعند موت ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م انقسمت الامبراطورية الرومانية بين ولديه اللذين لم يكونا على مستوى المسئولية ، وكما حدث ، فان القسمين الشرقى والغربى لم يتوحدا أبدا مرة ثانية . وفى ذلك الحين قاد قائد هوى من القوط الغربيين يدعى أليريك Alaric حملة ثانية استهدفت السلب والنهب واحداث الدمار والخراب حتى انها هددت روما نفسها . وفى سنة ٤٠٦ م استدعت الامبراطورية الغربية اليائسة معظم قواتها من حدود نهر الراين للتصدى لتقدم الوندال وغيرهم من القبائل الأخرى عبر نهر الراين الخالى من قوات الحراسة الى بلاد الغال Gaul . وباختصار انسحبت الفرق العسكرية الرومانية من بريطانيا البعيدة ، واجتاح الجزيرة التى تركت



بلا دفاع قبائل الأنجلز Angles والسكسون Saxons ، والجوت Jutes الجرمانية . وفى سنة ٤٠٨ م تم اعداد القائد الوحيد المقتر على يد الامبراطور الضعيف هونوريوس Honorius الذى انسحب من روما دون ان يتصدى لهم أحد سنة ٤١٠ م وسمح لهم الاريك بسلب ونهب المدينة لمدة ثلاثة أيام .

وكان لنهب روما أثرا مدمرا على معنويات السلطة الامبراطورية بيد أنه من المنظور التاريخى ، يبدو أنها كانت مجرد حادثة فى عملية تفسيح وانحلال الامبراطورية الغربية . وفى الحال انسحب القوط الغربيون من مدينة روما ، وتركها لامبراطورها الضعيف ، واتجهوا شمالا الى جنوب بلاد الغال ، وأسبانيا ، حيث أقاموا مملكة ظلت قائمة حتى الفتوحات الاسلامية فى القرن الثامن عشر الميلادى . وفى الوقت نفسه باقامة ممالكها التى اقتطعتها من اراضى الامبراطورية بقوة السلاح . واجتاز الوندال بلاد الغال وأسبانيا وعبرا مضيق جبل طارق الى افريقيا . وفى سنة ٤٣٠ م ، وهى السنة نفسها التى مات فيها أغسطس ، استولوا على مدينة هيبو Hippo وقامت مملكة الوندال الجديدة فى شمال افريقيا ، متمركزة فى مدينة قرطاجنة Carthage القديمة . وعلى الفور تقريبا بدأ الوندال الذهاب الى البحر القراصنة ، حيث خربوا تجارة البحر المتوسط ، وهاجموا المدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى ونهب ما بها - وبيدت قرصنة الوندال السلام الدائم منذ القدم فى البحر المتوسط ، كما سددت ضربة لتجارة غرب أوربا الآخذة فى الضعف والتناقض مما جعلها تصاب بالشلل .

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى تحرك الهن Huns تجسأه الغرب تحت قيادة قائدهم أتिला Attila المتحجر القلب الشهير بلقب ، « سوط الله » Scourge of good ولا تعرضوا للهزيمة على يد جيش رومانى ومن القوط الغربيين فى بلاد الغال سنة ٤٥١ م . لذلك عادوا نى العام التالى ، واندفعوا بقوة تجاه روما تاركين خلفهم طريقا أصابه الخراب والدمار بشكل لا يمكن تصوره أو تخيله . وترك الامبراطور الغربى مدينة روما تحت رحمة أتिला Attila بيد أن الأسقف الرومانى ، البابا ليو الأول Leo I سافر شمالا للتفاوض مع الهن على أمل اقناعهم بالانسحاب . وعلى غير المتوقع نجح البابا فى مهمته . وربما لأن الأحوال الصحية لجيش

الهن قد تأثرت بشدة بسبب مناخ إيطاليا أو ربما لأن البابا ليو المهيب كان قادرا على ادخال الرهبة فى قلب « أتيل » المؤمن بالخرافات ، هو السبب الذى جعل الهن ينسحبون من إيطاليا . وبعد ذلك بوقت قصير مات أتيل ، وانهارت امبراطورية الهن ، واختفوا من صفحة التاريخ ، ولم يأسف أحد عليهم .

وفى السنوات الأخيرة للامبراطورية الغربية ، التى لم يكن - نطاق سلطتها يمتد خارج إيطاليا الا نادرا ، فانها سقطت تحت سيطرة المغامرات العسكرية الشديدة الوقع . والتى تنتمى للأصول الجرمانية . واستمر الأباطرة يحكمون لفترة من الوقت بيد أن قادتهم الجرمان كانوا أصحاب السلطة من خلف العرش . وفى سنة ٤٧٦ م لم يجد القائد البربرى أدواكر Odovacar أى صعوبة فى انتهاء المهزلة بصورة أبدية حيث عزل آخر امبراطور ، وأرسل شارات ورموز السلطة الامبراطورية الى القسطنطينية . وفرض سيادته على إيطاليا بمصادرة أجزاء كبيرة من الأراضى الزراعية لصالح قواته الجرمانية . وبعد ذلك بسنوات قلائل تخلص القوط الشرقيون من سيطرة الهن ، واتجهوا صوب إيطاليا تحت قيادة ملكهم المقدر ثيودوريت Theodoric ، وهزموا أدواكر ، وأقام دولة قوية لنفسه .

حكم ثيودوريك إيطاليا من سنة ٤٩٣ حتى سنة ٥٢٦ م . وأكثر من أى ملك بربرى آخر ، أعجب ثيودوريك إعجابا شديدا واحترم الثقافة الرومانية ، وعاش القوط الشرقيون الأروسيون والرومان الأرثوذكس ، وعملوا معا فى انسجام الى حد كبير فى عهد مملكته . كما أصلح قنوات المياه ، وشيد المباني الجديدة التى أثارت الإعجاب والدهشة ، وحقق قدرا من الرفاهية الى شبه الجزيرة التى عانت الى فترة طويلة من الاضطرابات . وأدى تحسن الأحوال العامة فى المجتمع الى وجود نهضة فكرية قليلة ساهمت فى انتقال الثقافة اليونانية - الرومانية الى العصور الوسطى . اذ قام الفيلسوف بؤيثيوس Boethius والذى كان من كبار الموظفين فى حكومة ثيودوريك ، بانتاج مؤلفات فى الفلسفة والترجمات التى خدمت كأصول أساسية فى المدارس الغربية للقرون الخمسة التالية . فكتابة سلوى الفلسفة Consolation of philosophy وهو خلاصة شيقة للأفلاطونية المحدثه والرواقية platonism and stioicism لقى رواجاً هائلاً

على امتداد العصور الوسطى • كما كان كاسيودور . Cassiodorus .  
سكرتيرا خاصا لثيودريك ، وعالما له منزلته المهمة • وقضى كاسيودورس آخر  
أيامه رئيسا لأحد الأديرة ، وجعل رهبانه يقومون بممارسة العمل النفيس  
الخاص بنسخ وحفظ المؤلفات الأدبية العظيمة للعصور القديمة المسيحية  
والوثنية •

وابان سنوات حكم ثيودوريك الذى عاد بالفائدة على إيطاليا فى عهد  
القوط الشرقيين أقام ملك بربرى شهير . كلوفس Clovis ( ٤٨١ -  
٥١١ م ) مملكة فرنجية Frankish kingdom فى بلاد الغال • كان  
كلوفس أقل تأثرا بالحياة الرومانية عن ثيودريك ، وأقل تفتحا على الثقافة  
الرومانية ، وأشد قسوة من ثيودريك . بيد أن مملكته برهنت على أنها أكثر  
الدول التى أقامها البرابرة بقاء على الاطلاق • وكان الفرنجة مزارعين  
مهرة ، كما كانوا محاربين شجعان ، واستطاعوا اجراء اصلاحات جوهرية  
فى التربة الزراعية فى بلاد الغال • وبالإضافة الى ذلك كان نظام الحكم  
الفرنجى يحظى بالتأييد الحماسي للكنيسة الكاثوليكية • لأن كلوفس ، الذى  
لم يتأثر بالأريوسية ، تحول مباشرة من الوثنية الى المسيحية الكاثوليكية •  
وظل على بربريته الفظة حتى آخر أيامه ، ومع ذلك اعتبرته الكنيسة قنسطنطين  
آخر ، ومدافع عن الأرثوذكسية وسط بحر من الأريوسية • ويمزور مئات  
السنين ، تم تخفيف الاسم الملكى كلوفس الى لويس "Louis" والفرنجة  
Franks الى الفرنسيين "French" • كما أن الصداقة بين مملكة  
الفرنجة والكنيسة تحولت الى أحد العناصر الأساسية المهمة والحاسمة فى  
السياسة الأوروبية •

أوروبا سنة ٥٠٠ م :

عندما بدأ القرن السادس كانت الامبراطورية الغربية مجرد ذكرى  
فحسب • وقامت مكانها مجموعة من الدول الوريثة المتبريرة ، والتى تولدت  
عنها الأمم الحديثة فى غرب أوروبا فى بعض النواحي • وكان ثيودريك على  
رأس عهد متسامح نسبيا ويتجه نحو الثقافة ، عهد أريسي - قوطى شرقى  
فى ايطاليا • وكان كلوفس الأرثوذكسى ، وإن كان بربريا ، يعمل على استكمال  
فتح بلاد الغال • ومملكة الوندال ، التى كانت تدين بالمذهب الأريوسى ، والتى

اشتهرت بالفساد المتزايد والتعصب ، أحكمت سيطرتها على سكان شمال إفريقيا الذين تميزوا بالعناد وعدم الاستكانة . واستطاع الفرنجة طرد القوط الغربيين الأريوسيين من جنوب بلاد الغال ، بيد أن القوط الغربيين استطاعوا السيطرة على أسبانيا لمدة قرنين بعد ذلك التاريخ . أما الأنجلز ، والساكسون ، والجوت فكانوا يقومون باقامة مجموعة صغيرة من الممالك الوثنية التي اندمجت مع بعضها البعض في يوم ما تحت اسم "Angle land" أو England

وفي الوقت الذي كانت تعمل فيه الممالك الجرمانية على تدعيم وجودها في الغرب الروماني ، بدأت البابوية الرومانية القيام بدور مستقل ومهم في المجتمع الأوربي . إذ أخذ ليباليو الأول ( ٤٤٠ - ٤٦١ م ) على عاتقه مسألة الدفاع عن مدينة روما ضد الهن ، وبتلك الوسيلة حقق لنفسه القيادة المعنوية على الغرب . وأعلن البابا ليو ومن خلفه أن البابوية هي السلطة العليا في الكنيسة ، وأصرروا على تفوق الكنيسة على الدولة في الأمور الروحية ، متبعين في ذلك ما أعلنه القديس أمبروز . وبإعلان البابوية مبادئها في تفوق الكنيسة والاستقلال الكنسي ، تكون قد مارست تحد سافر للقيصرية البابوية البيزنطية . وفي القرن الخامس ظلت هذه المبادئ لا تزيد قليلا عن مجرد كلمات ، بيد أنها تمخضت عن وجود فجوة دائمة وتزداد اتساعا بين الكنيسة الشريفة والكنيسة الغربية . وأكثر من هذا شكلت المبادئ البابوية بداية مرحلة من الصراع الطويل في العصور الوسطى بشأن الادعاءات القائمة على التنافس بين الكنيسة والدولة . ومع ذلك ظلت البابوية القوية في العصور الوسطى العالية بعيدة لعدة قرون ، بيد أنها ظلت تعيش على الوقفة الاستقلالية الجريئة التي قام بها البابا ليو الأول . وإذا كانت الامبراطورية الغربية قد انتهت ، فإن روما الخالدة ظلت تطالب بالولاء العالمي .

الجدول الكرونولوجي للامبراطورية الرومانية المتأخرة :

- ١٨٠ - ١٩٢ م : عهد كومودوس Commodus
- ٩٦ - ١٨٠ م : عصر أباطرة القرن الثاني العظام .
- ١٩٢ - ٢١١ م : عهد سبتيميوس ساويرس .
- ٢٢٥ - ٢٨١ م : قمة الفوضى السياسية « أباطرة الشكنات العسكرية » .
- ١٨٥ - ٢٥٤ م : أورجين Origen
- ٢٠٥ - ٢٧٠ م : بلوتينوس Plotinus
- ٢٨٤ - ٣٠٥ م : عهد دقلديانوس .
- ٣٠٦ - ٣٢٧ م : عهد قنسطنطين .
- ٣٢٥ م : مجمع نيقية .
- ٣٣٠ م : بناء القسطنطينية .
- ٣٥٤ - ٤٣٠ م : القديس أوغسطين من هيبو .
- ٣٧٦ م : عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب
- ٣٧٨ م : موقعة أدريانوبل Adrianople
- ٣٧٨ - ٣٩٥ م : عهد ثيودوسيوس الأول .
- ٣٩٥ م : التقسيم النهائي للامبراطورية الشرقية والغربية .
- ٤١٠ م : الأرك ينهب روما .
- ٤٣٠ م : استيلاء الوندال على هيبو .
- ٤٥١ - ٤٥٢ م : غزو الهن لغرب أوروبا .
- ٤٤٠ - ٤٦١ م : فترة وجود البابا ليو الأول على الكرسي البابوي
- ٤٧٦ م : أداكر يعزل آخر أباطرة الغرب .
- ٤٩٦ - ٥٢٦ م : ثيودريك القوطي الشرقي يحكم إيطاليا .
- ٤٨١ - ٥١١ م : كلوفس يحكم الفرنجة ويفتح بلاد الغال

## قراءات مقترحة

The asterisk indicates a paperback edition :

### General Histories of Rome :

Max Cary, A History of Rome (2nd ed., St., Martin's Press). The best single-volume text. M. Rostovtzeff, Rome (\* Oxford Galaxy). A reprint of vol. II of Rostovtzeff's History of the Ancient World first published in 1927, a scholarly masterpiece which stresses social history and perhaps overestimates class antagonisms.

Among the several other general accounts of Roman civilization are R.H. Barrow, The Romans (\* Penguin).

Michael Grand, The World of Rome (\* Mentor). 133 B.C. A.D. 217.

### The Mystery Religions and Christianity :

T. Cumont, The Mysteries of Mithra (\* Doves), and Oriental Religions in Roman Paganism (\* Doves). Two fundamental studies by a great scholar, outdated in details but still useful.

R. Bultmann, Primitive Christianity in its Contemporary, Setting (\* Meridan). Readable and authoritative.

Michael Gough, the Early Christians (Praeger). A good popular account with fine illustrations.

G.R. Goodenough, The Church in the Roman Empire (\* Henry Holton). A brief, lucid survey. V. Latourette, History of christianity (Harper), One of scholar histories of the christian church H.O. Iaylor, The Emergence of christian culture in the West (\* Harper). An ageless study by one of the masters of medieval intellectual history.

C.N. Cochrane, Christianity and classical Culture (\* Oxford Golaxy). An intellectual tour de force, sympathetic to the rise of the mystical point of view.

#### **The Later Empire and the Germanic Invasions :**

J.B. Bury, History of the Later Roman Empire (\* 2 vols., Dover). The standard account; full and authoritative, by one of the distinguished historians of this century.

I. Lot, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages (\* Narper). A masterly study which places stress on the economic factors in the decline. A valuable introduction by Glanville Downey Summasizes recent scholarship on the problem of "decline and fall".

Mortimer Chambers (Ed.), the Fall of Rome (\* Holt, Rinehart, and Winston). Well-chosen excerpts from historical writings dealing with the decline of Rome provide a compact, illuminating survey of historical opinion on the subject. Solomon katz, The Decline of Rome (\* Cornell).

A brief, perceptive, well-written survey. Samuel Dill, Roman Society in the last century of the Western Empire (\* Meridian). A brilliant older work.

Edward Gibbon, the Triumph of Christendom in the Roman Empire (\* Harper). Chapters XV-XX from Gibbon's masterpiece, the Decline and Fall of the Roman Empire. The entire work is available in a three-volume Modern Library edition.

**Sources :**

B. Davenport (Ed.), The Portable Roman Reader (\* Viking). One of several good anthologies now available in paperback. There are numerous available editions of the works of Cicero, Caesar, Virgil, Horace, Plutarch, Tacitus, Suetonius, and other important Roman writers, many of them in paperback, which enable the student to experience Roman civilization first hand. For early christianity the New Testament is the ideal source-Modern paper.

أوروبا في العصور الوسطى

back editions of the four Gospels and the Acts of the Apostles are readily available. St. Augustine's confessions has been published in several paperback editions. For the city of God, see vernon J. Bourke, (Ed.), St. Augustine's city of God, (Doubleday Image). An intelligent abrigement.

Gregory of Tours, History of the Franks, tr. O.M. Dalton (Oxford). Provides an interesting account of Clovis and the early Franks in Gaul.



## القسم الثاني : العصور الوسطى الباخر : بداية تكون الحضارة الغربية

- ٥ — بقاء بيزنطة :
- بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية .
  - الحكومة البيزنطية .
  - المسيحية البيزنطية :
  - الثقافة البيزنطية .
  - عصر جوستنيان .
  - الاتجاه نحو الشرق .
  - المحنة والبقاء .
  - التراث البيزنطي .
- ٦ — الغرب المتغير :
- « العصور المظلمة » .
  - التغير الاقتصادي والاجتماعي .
  - غرب أوروبا سنة ٦٠٠ م .
  - فاعلية العصور المظلمة .
  - الديرية المسيحية الباكرة .
  - الديرية البندكتية .
  - البابا جريجوري الكبير ( ٥٩٠ - ٦٠٤ م ) .
  - اعتناق انجلترا للمسيحية .
  - الكنيسة والحضارة الغربية .
  - الجدول الكرونولوجي للقرنين السادس والسابع .
- ٧ — ظهور الاسلام :
- الاسلام ، وبيزنطة والعالم المسيحي الغربي .
  - محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ( حوالي ٥٧١ - ٦٣٢ م ) .
  - الاسلام .
  - الفتوحات الاولى ( ٦٣٢ - ٦٥٥ م ) .
  - الحرب الاهلية ( ٦٥٥ - ٦٦١ ) .

- الأمويون ( ٦٦١ - ٧٥٠ م ) •
- العباسيون ( ٧٥٠ - ١٢٥٨ م ) •
- الثقافة الإسلامية •
- ٨ — أوروبا الكارولنجية :
  - أوروبا الجديدة •
  - تكنولوجيا الزراعة •
  - النهضة السياسية الفرنجية •
  - الإصلاح البندكتي •
  - التحالف الفرنجي البابوي •
  - شارلمان ( ٧٦٨ - ٨١٤ م ) •
  - امبراطورية شارلمان •
  - الشيوقراطية الكارولنجية •
- ٩ — الغزوات الجديدة :
  - النهضة المتوقفة •
  - الكارولنجيون المتأخرون •
  - غزوات العرب والهنغار •
  - الفايكنج •
  - الفايكنج في العالم المسيحي الغربي •
  - الفايكنج في شمال الأطلسي وشرق أوروبا •
  - غروب شمس عصر الفايكنج •
- ١٠ — بقاء أوروبا بعد زوال الحصار :
  - رد فعل الغزوات - انجلترا •
  - تجدد الهجوم الدانمركي •
  - ردود فعل الغزوات - النظام الاقطاعي الفرنسي •
  - ردود فعل الغزوات - ألمانيا •
  - الامبراطورية الألمانية •
  - أوروبا قبيل العصور الوسطى العالية •

## ٥ - - بقاء بيزنطة :

### بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية :

بحلول القرن السادس الميلادى كانت الامبراطورية قد تفتت الى مجموعة من الدويلات البربرية التى ورثتها ، وان كانت الامبراطورية ظلت تسيطر على حدود شاسعة ممتدة من اليلقان الى آسيا الصغرى وسوريا ، وفلسطين ، ومصر . وكثير من نفس القوى التى أضعفت الغرب وعملت على اشاعة الفوضى ، أثرت على الشرق أيضا . وعلى الرغم من ذلك انهارت السلطة الامبراطورية فى الغرب ، وظلت باقية فى الشرق . ولكن لماذا حدث هذا ؟

وذلك لسبب واحد ، هو أن الشرق ظل دائما أكثر كثافة سكانية من الغرب . وأن حضارته كانت أكثرها قدما ، وأعمق جذورا ، كما أن مدنه كانت أكبر وأكثر عددا . كما ظل الشرق قلب الامبراطورية الاقتصادية والصناعى ، حتى فى أيام روما العظيمة . وعندما حلت الكارثة أثبت القسم الشرقى على أنه أكثر مرونة بكثير من القسم الغربى .

وكانت آسيا الصغرى مخزنا كبيرا للقوى البشرية للامبراطورية الشرقية ومصدرا للدخل الحكومى . وظلت آسيا الصغرى لعدة قرون المصدر الرئيسى لامداد الجيش البيزنطى بالجند ، كما أنها كانت المصدر الأساسى للمضرائب الحكومية . وابان القرن الخامس الذى تميز بالغارات العنيفة والمفاجئة ، وتمكن فيه البرابرة من غزو الأقاليم الغربية . كانت آسيا الصغرى الدرع الواقى للامبراطورية . وأمدت قواتها المخلصة القوية الأباطرة الشرقيين ببديل نفيس بدلا من سياسة الاعتماد الكامل على الجيوش الجرمانية المأجورة ، والتى أضرت بالمصالح الامبراطورية .

وحمت القسطنطينية المنيعه آسيا الصغرى من الغارات الجرمانية الشرسة . فهذه المدينة العظيمة ، روما الجديدة ، كانت قلب الامبراطورية الشرقية . وطالما ظلت القسطنطينية بعيدة عن كل اعتداء خلف أسوارها العظيمة المتجهة نحو البر والبحر ، فالامبراطورية باقية . وفى القرون التالية اجتاحت الأعداء الامبراطورية حتى وصلوا الى أبواب القسطنطينية الا انهم

ارتدوا على أعقابهم فى كمد وخيبة أمل . وفى القرن السابع صمدت القسطنطينية للحصار الفارسى الكبير ، وفى القرن الثامن ، قاومت القسطنطينية كل غزوات المسلمين التى تميزت بالضراوة البالغة .

لذلك ليس هناك ما يدعو للدهشة أن البرابرة الجرمان فضلوا الغرب غير الحصين . وخلصت حكومة الرومان الشرقية نفسها ، أكثر من مرة ، من الضغوط الجرمانية بالاقتراح على البرابرة أن يتحركوا تجاه الغرب حيث يتوقعون حظا أفضل ، وفتوحات أسهل . وليس هناك أدنى شك ، فى صحة هذا الافتراض .

تمتعت الامبراطورية الشرقية بميزة أكثر من الامبراطورية الغربية أبان القرن الخامس العيصب بفضل ادارتها الحكومية . اذ تعاقب على حكمها جماعة من الأباطرة المقتدرين الذين احتفظوا بثرواتها ، وبخزانتها العامرة ، وعملوا على تقوية استحكامات القسطنطينية ، فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الغربية فى طريقها الى الانهيار . وبلاشك ساعدت القيادة الممتازة للامبراطورية الشرقية على أن تنجو من الأخطار ، بيد أن أباطرتها ماكان لهم تحقيق القليل لولا موقع عاصمتهم الاستراتيجى الرائع ، وكذلك الموارد الاقتصادية والبشرية الثابتة للأراضى التى حكموها . وهكذا كان لمهد الحضارات القديمة القوة على التصدى لطوفان البرابرة الذين غيروا الغرب الذى كان أقل قدما فى التحضر .

### الحكومة البيزنطية :

تتألف حضارة الامبراطورية البيزنطية من ثلاثة عناصر : الحكومة الرومانية ، والديانة المسيحية ، والثقافة اليونانية الرومانية - فأخذت الامبراطورية الشرقية عن روما نظامها القانونى ، والبيروقراطى ، والمبادئ الادارية . وفى الواقع كانت الحكومة البيزنطية نتاجا مباشرا لهيمنة القرنين الثالث والرابع للميلاد . فالأوتوقراطية البيزنطية لها جذورها فى تمجيد دقلديانوس لشخص الامبراطور ، كما ظهرت القيصرية البابوية البيزنطية منذ عهد امبراطورية قنسطنطين المسيحية وثيودوسيوس الأول - واستمرت الضرائب مرهقة طوال القرنين الثالث والرابع للميلاد ، كما بقيت الحياة فى الامبراطورية البيزنطية مرهقة وغير آمنة .

كان أسلوب الحياة البيزنطية العامة دفاعيا ومحافظا على كل ما هو قديم . فالدولة بالرغم من أنها كانت مستتبدة - فانه كان يتعين العمل على الإبقاء عليها مهما كلف الأمر ، وكذلك النظام البيروقراطى المتزايد والمربط بالتقاليد كان يمقت بشدة كل ما هو جديد . ولم يحاول أحد المخاطرة فى معارضة السياسات الجريئة للأباطرة أصحاب المقدرة على الإبداع ، بالرغم من أن الدولة عانت من عهود الفوضى السياسية والحكم الذى لم يحقق كن الأمانى . وكان النظام البيروقراطى فاسدا ومخربا برغم أنه قدم للامبراطورية ثباتا ورسوخا ملحوظا .

أما الجيش فكان أكثر فاعلية عن النظام البيروقراطى - وإذا كان الجيش صغيرا نسبيا الا أنه كان قوة فعالة بدرجة عالية ، ومديبا تدريبا كاملا وتحت قيادة مقتدرة فى العادة . وفى كثير من الحروب كان بقاء الامبراطورية تحت رحمة القدر ، فالقيادة البيزنطيون على مثال الموظفين الاداريين الذين تركزت السلطة فى أيديهم قليلا ما عرضوا أنفسهم للمخاطر اذ فضلوا الحذر على الجرأة ، والمكر على العنف الشرس . وكانت الحرب فنا وعلما بالنسبة للبيزنطيين . وعلى الرغم من أن أعداءهم كانوا يفوقونهم فى العدد ، فانهم نادرا ما كانوا يهزمون البيزنطيين أو يفوقونهم براعة فى اصطناع المناورات . ومع ذلك فغالبا ما اختارت الامبراطورية التصالح مع أعدائها بدفع الاتاوات لهم بدلا من المخاطر فى الدخول فى معارك ضدهم .

### المسيحية البيزنطية :

ان المسيحية أوجدت الاحساس بالتفانى لرفعة الدولة على أوسع مدى ، وهو الأمر الحيوى لبقائها على مر الدهور . فالمسيحيون الأرثوذكس بالامبراطورية ، برغم أنهم قد غرقوا فى بحر الضرائب حتى آذانهم ، وتعرضوا لعذاب الحكومة المستتبدة والمتحكمة فانهم ظلوا مرتبطين بالولاء بالامبراطور المقدس وبتمسك شديد . اذ لم يكن الامبراطور مجرد ملك علمانى ، وانما نائباً لله Viceroy of God وأن دولته هى مملكة المسيح . وعندما شيد قنسطنطين روما الجديدة سنة ٣٣٠ م ، كرس هذه المدينة للمسيح - الأقدس Holy Trinity ومريم العذراء المقدسة Blessed Virgin Mary .

واعتبرت الامبراطورية البيزنطية نفسها على امتداد تاريخها الطويل تحت رعايتهم الخاصة . وإذا ما انتهت الدولة انتهت المسيحية كخليفة للمسيح .

لما اعتقده البيزنطيون • وحاربت جيوشهم ليس لجرد الدفاع عن الامبراطورية ولكن فى سبيل الله العلى القدير ، ولذلك كانت كل حرب ، حرب صليبية • كما عملت العقيدة المسيحية على زيادة لهيب الحماسة الوطنية ، وازدادت هذه الحماسة بشكل كبير فى بيزنطة المسيحية عما كان عليه الحال فى روما الوثنية •

واستمر اباطرة بيزنطة فى المحافظة على مفهوم القيصرية البابوية التى بدأت منذ عهد قنسطنطين • حيث عملت الكنيسة الشرقية فى تعاون تام مع الدولة ، وغالبا ما أخذ بطيرك القسطنطينية الأوامر من الامبراطور المقدس ، بل ان قرارات المجامع العامة تطلبت موافقة الامبراطور • غير أنه بالرغم من سيطرة الامبراطور على الكنيسة فانها عملت على تعظيم وتبجيل سلطاته وحققت ولاء الأرثوذكس له ، وان كانت الكنيسة قد ضاقت من مشاكله ومسئوليته أيضا ، اذ صارت المنازعات الدينية من الأمور التى تحظى باهتمامات السلطة الامبراطورية ، كما كانت الهرطقة تهديدا للدولة •

وكما حدث ، عملت الخلافات المذهبية على تفكك الكنيسة الشرقية فى القرنين الخامس والسادس • على أن أشهر هرطقة فى تلك الفترة كان المذهب المعروف باسم المونوفيزيتية Monophysitism الذى ظهر فى مصر ، وانتشر فى سوريا وفلسطين ، وأوجد فى تلك الأقاليم شعورا من العداء المستحكم تجاه الاباطرة الأرثوذكس الذين تراوحت سياساتهم بين محاولات الاستمالة التى لم تثمر عن شئ ، وبين الاضطهاد •

واهتم المونوفيزيتيون بطبيعة المسيح قبل كل شئ • وكان قد تقرر من قبل أن المسيح انسان كامل واله كامل ، بيد أن المشكلة ظلت باقية ، ماهى العلاقة بين انسانية المسيح وألوهيته ؟ هل كان المسيح شخصين فى الحقيقة ؟ أم كان شخصا واحدا بطبيعة واحدة حيث امتزجت الطبيعتان البشرية واللاهوتية • ولكل من هاتين الوجهتين أتباع ومؤيدين بين المسيحيين فى القرنين الخامس والسادس • وتمسك المذهب الأرثوذكس بوجهة النظر الوسط - وهى أن المسيح شخص واحد فى طبيعتين - بينما تمسك المونوفيزيقيون بشدة بالمذهب القائل بمسيح موحد بطبيعة واحدة ممتزجة ومال المونوفيزيتيون الى أن لاهوت المسيح فاق ناسوته • وتم تفسير مذهبهم

على أنه اتجاه نحو روحانية الشرق القديم ، الذى احتقر الطبيعة البشرية ، والكون المادى • وتلك المنازعات المتعلقة بالتعليل اللاهوتى لشخص المسيح ربما تبدو بعيدة خالية من المعنى بالنسبة لأسلوب التفكير فى القرن العشرين ، بيد أنها كانت مهمة الى حد كبير فى عهدهم ، وسببت مشاكل مستعصية للباطرة الشرقيين • وكانت الوحدة الدينية أمرا أساسيا وجوهريا لبقاء الامبراطورية ، لذلك عمل الباطرة بحكم سيطرتهم على الكنيسة الشرقية ، على تحمل مسئولية تحقيق هذه الوحدة والابقاء عليها • فحاول العديد من الباطرة استنباط مذهب يعمل على ارضاء جميع الأطراف — على سبيل المثال، أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة — بيد أنهم فى الحقيقة لم يتمكنوا من ارضاء أحد •

أما الغرب ، الذى كان يأمل الباطرة استرداده فى يوم ما ، كان أرثوذكسيا بئيات • ورفض قبول أى صيغة مذهبية يمكن أن يستشم منها مجرد اشارة طفيفة الى المونوفيزيتية • وفى سنة ٤٥١ م عقد مجمع كنسى فى خلقيدونية Chalcodon الذى كان تحت نفوذ البابا الرومانى الكبير ، ليو الاول • وأعلن هذا المجمع بقوة وجهة نظر الأرثوذكس عن المسيح كشخص واحد فى طبيعتين • ونتيجة لذلك ، كون المونوفيزيتيون فى مصر كنيسة منفصلة لها هيئة كهنوتية منظمة فى مراتب متسلسلة Hierarchy والتى مازالت موجودة حتى يومنا هذا • وطوال السنين التى تلت ذلك التاريخ حاول الباطرة استعادة المونوفيزيتيين ، تارة بمحاولات ايجاد حل وسط وأخرى بالاضطهاد • غير أن المونوفيزيتية ظلت نواة Nucleus معادية للسلطة الامبراطورية — اذ صارت غاية عملت على تجميع وحشد الحركة الانفصالية القومية • وعندما اجتاحت الجيوش الاسلامية اراضى الامبراطورية ، فى القرن السابع الميلادى ، رحب بهم المونوفيزيتيون نى سوريا وفى مصر ، لأنهم فضلوا التسامح النسبى عند الحكام العرب على المسيحية الأرثوذكسية ذات الطابع القهرى الذى مارسه الباطرة • ولم تتمكن الامبراطورية من تسوية هذه المسألة المذهبية بصفة نهائية الا بعد أن فقد ، الى الأبد ، تلك الأقاليم الغنية والمملوءة بالمتاعب والمشكلات •

### الثقافة البيزنطية :

أخذت الامبراطورية الشرقية المبادئ القانونية والحكومية ، وعلم اللاهوت

عن المسيحية الهلينية لامبراطورية القرن الرابع ، واخذت عن بلاد اليونان لغتهم وفلسفتهم والهامهم الأدبى . وطوال عهد البيزنطيين ، ظلوا يحافظون ويتمسكون بتراثهم اليونانى ، بيد أن حضارتهم الهلينية تطورت الى حد كبير وفقا للمسيحية والمؤثرات الشرقية ، وبصفة خاصة فى ميدان الفن ، حيث حققوا اندماجا رائعا للأنماط الهلينية والشرقية القريبة . فالفاهيم التقليدية للعصور القديمة اليونانية والرومانية - كالمباني الضخمة المستقيمة المتناسبة بشكل رائع ، والتماثيل الواقعية القوية - كلها تعرضت للتطوير العميق وفقا للتحول الدينى فى القرنين الثالث والرابع للميلاد . وطوال عهد الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، كان أسلوب الحياة الجديد المبني على الايمان بالآخرة باعثا على ظهور قيم فنية جديدة عملت على عدم الاهتمام بالأمور الدنيوية والمادية والتركيز على الرموز الدينية والتمجيد الدينى بدلا منها . وكان القديس هو بطل العصر الجديد ، وركزت الصورة الفنية للبشر على قداستهم أكثر من خلوصهم من العيوب الفسيولوجية . وكان الفن المسيحى الجديد يعبر عن الملابس الكثيفة ، والبنية النحيلة ، والوجه الوقور ، والهزيل ، والعينين الغائرتين . وسواء صارت البراعات الفنية للرسم المتطورة وفقا للتراث اليونانى - الرومانى فى حكم المهمل أو الذى تم تجاهله ، فان الفنانين المسيحيين استخدموا عوضا عنه الألوان المتألقة والتي تفيض بالحياة لنقل احساس بالبهاء الفائق المماثل لجمال الفردوس .

وكان هذا الفن الجديد ، بكل روعته الشرقية وعظمته الدينية من الناحية الكلاسيكية متناسبا مع الروح البيزنطية ، وظل يهيمن على الامبراطورية الشرقية بقية تاريخها . وزينت الكنائس ذات القباب الفخمة مدن الامبراطورية وتوهجت من الداخل بزخارف الفسيفساء الزاهية الألوان والمثبتة على خلفيات من الذهب . وجاهد الفنان البيزنطى ألا يصور الطبيعة وانما ما فوقها ، وحتى يومنا هذا ، فالزائر الذى يخطو الى داخل احدى الكنائس البيزنطية العظيمة - أيا صوفيا Sancta Sophia فى القسطنطينية ، وسان مارك St. Mark فى فيينا Venice - ينتابه شعور مفاجئ أنه خطا الى مابعد هذا العالم كلية ، الى عالم آخر . وباختصار ، كان الفن البيزنطى ناجحا فى تحقيق أهدافه بنفس القدر الذى حققه الفن المتنوع فى اثينسا البيريكلسية Periclean Athens أو روما الأوغسطية ،



### عصر جوستنيان :

استعملنا في الصفحات السابقة تعبيرى « بيزنطى » ، و « الشرقى الرومانى » بشكل متبادل تقريبا . وربما يكون هناك سؤال عن التوقيت الذى توقف فيه استعمال « الشرق الرومانى » وأصبح « البيزنطى » . وكما رأينا فمن المستحيل الاجابة على هذا السؤال ، طالما أن العناصر الأساسية للحضارة البيزنطية تطورت رويدا رويدا بعد انتهاء هيمنة القرن الرابع الميلادى . وبصفة عامة ، فان تحول الامبراطورية الشرقية الى « الصبغة البيزنطية » Byzantinization تمخض عنه تحول بطى ، بيد أنه مستمر من وجهة النظر الغربية الى الشرقية ، ومن اللاتينية الى اليونانية ، والتراث التقليدى الى الشرقى ومع ذلك أصبح الفن شرقيا منذ البداية وان ظل محتفظا بالعناصر الكلاسيكية Classicism اليونانية الرومانية حتى النهاية . ولم ينس البيزنطيون أبدا تراثهم اليونانى الرومانى ، أو أن حاكمهم كان « امبراطورا رومانيا » . بيد أنه بمرور الوقت صاروا مشغولين الى حد كبير بصراعاتهم ضد الأعداء الشرقيين : الفرس ، والمسلمين ، والقبائل الآسيوية البدوية المتعددة ونسوا لغتهم اللاتينية . وكفوا عن الاهتمام الجاد بالبابا الرومانى ، أو بأقاليمهم التى فقدوها فى الغرب . وأداروا ظهورهم الى أوروبا ، واتجهوا بوجوههم الى آسيا .

كان الامبراطور جوستنيان ( ٥٢٧ - ٥٦٥ م ) آخر أباطرة القسطنطينية الرومان فى نواحي كثيرة . وبالرغم من أن عهده يشير الى العصر الذهبى للفن البيزنطى ، وذروة القيصرية البابوية ، فانه كان يتحدث اللغة اللاتينية ، ويهيم بحلم إعادة بناء الامبراطورية الرومانية القديمة بكل عظمتها السالفة . على أن صياغته للقانون الرومانى واسترداده للغرب كانتا مهمتيه العظيمتين .

وعندما اعتلى جوستنيان عرش الامبراطورية سنة ٥٢٧ م ، كانت الامبراطورية الشرقية أقوى مما كانت عليه منذ العديد من العقود . إذ نجا أسلافه من أسوأ الغارات الجرمانية وكسروا مبالغ مالية ضخمة فى خزائن الامبراطورية . وبات ثيودوريك فى العام السابق على اعتلاء جوستنيان للعرش وهو الحاكم المقتدر للقوط الشرقيين فى ايطاليا ، كما أن العديد من الدويلات المتبربرة فى الغرب بدا عليها أنها فقدت حماسها الباكر . وكان

جوستنيان رجلا شديد التمسك بمعتقداته ، وغاية فى النشاط ، وسامى الفكر ، وتخلّى عن الطابع البيزنطى المحافظ ، وانتهج سياسة قائمة على التصميم الشديد ، والجرأة . كانت انجازات عصره مثالا للروعة والاعجاب - ولو أن امبراطوريته أوشكت على الافلاس لشدة الانهاك .

تلقى جوستنيان العون الصادق ، والتشجيع فى تحقيق خطته من زوجته الجميلة الذكية - والمنحرفة السابقة ثيودورا - ومن مجموعة من المساعدين المشاهير وأصحاب المواهب ، فى مبادئ القانون ، والادارة ، والمعمار والشئون الحربية . غير أن جوستنيان نفسه كان العبقري الأول لعصره ، والمنفذ لسياسة الامبراطورية ، دون أن يعرف التعب أو الكلال اليه سبيلا ، انه « الامبراطور الذى لا ينام » . كان جوستنيان لاهوتيا مثقفا حاول بنشاط التشبيث بالتوفيق بين الأرثوذكسية والمونوفيزيتية . غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح . وسدد ضربة قاضية للوثنية التى كانت تحتضر ، باغلاق المدارس الوثنية فى أثينا ، التى كانت تعمل منذ أيام أرسطو ، وأفلاطون \* وكان جوستنيان مولعا بالمعمار واتفق بسخاء على تجميل القسطنطينية . وتحت اشرافه قدم أعظم المهندسين الموهوبين أروع عمل فنى لعصره فى بيزنطة - كنيسة آيا صوفيا ( الحكمة المقدسة ) ، فى مدينة القسطنطينية ، وفى داخل هذا البناء الرائع ، ذهب وفضة وعاج ، وفسيفساء لامعة ، وأحجار كريمة ، وقبة ضخمة ، كانت معجزة فنية اذ بدت وكأنها معلقة فى الهواء \* . وكان المظهر الكلى يفوق الوصف . ويقال أن جوستنيان تعجب عند افتتاح كنيسة آيا صوفيا قائلا : « المجد لله الذى جعلنى جديرا باتمام هذا العمل آيا سليمان لقد تفوقت عليك ! » .

كان جوستنيان ، أيضا أحد الشخصيات العظيمة المبدعة فى تاريخ التشريع ، وأمر بأن المجموعة الضخمة من الآراء القانونية القديمة ، وكذلك التشريعات الامبراطورية للتراث الرومانى لابد أن تجمع فى مجموعة قانون مدنى محدد بوضوح - وهى مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis ومن ذلك الحين فصاعدا ، هيمن هذا العمل الضخم ، والذى كان نتاج جهد جماعى غير عادى ، على العمل التشريعى البيزنطى . وأكثر من ذلك كانت هذه المجموعة القانونية الأداة التى عن طريقها تم احياء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر فى غرب أوروبا من أجل قيام التنظيم للقانون الرومانى فى القرن الثانى عشر فى غرب أوروبا من أجل قيام النظم

القانونية للدول الأوربية . وعلى يدى جوستنيان أصبح القانون الرومانى أكثر منطقيا وترتيا عن ذى قبل ، بيد أنه اتخذ طابعا مميزا لجصره أيضا الذى ساعد فى يوم من الأيام على ظهور الفاشستية بين الأمم الغربية . وكان ملوك العصور الوسطى المتأخرة وأوربا فى العصور الحديثة بين الأمم الغربية . وكان ملوك العصور الوسطى المتأخرة وأوربا فى العصور الحديثة الباكرة قادرين على تحدى فكرة الحكومة القانونية الجرمانية فى العصور الوسطى بالتحول من العادة الجرمانية المبنية على القوانين الفجة الى المبادئ الأوتوقراطية لقوانين جوستنيان العظيمة ، وان كان ذلك بشئ من التحريف لأنه فى مجموعة القانون المدنى وهى الجهد الجامع للحكمة القانونية لروما القديمة التى زانها جوستنيان بإيمانه بأن القانون هو نتاج ارادة الامبراطور .

ولما كان جوستنيان يهيم باعادة أمجاد روما القديمة لذلك اتجه بكل اهتماماته لاسترداد الغرب كاجراء حتمى . فأرسل الى شمال أفريقيا جيشا صغيرا الا أنه كان مدربا تدريبا جيدا ، تحت قيادة بليزاريوس Belisarius ، قائدة المقتدر ، وأخضع حكومة الوندال الفاسدة ؛ اخضاعا كاملا بعد معركةين سريعتين . وفى سنة ٥٢٤ م احتل بليزاريوس قرطاجة Carthage عاصمة الوندال . وبعد ذلك يعامىن قاد قواته الى ايطاليا على أمل تحقيق نصر سهل مماثل على مملكة القوط الشرقيين . بيد أن مقاومة القوط الشرقيين كشفت عن عناد غير متوقع . الا أنه بعد نضال مرير لمدة عشرين عاما ( ٥٣٥ - ٥٥٥ م ) ، خضع القوط خضوعا كاملا وعادت ايطاليا الى أحضان الامبراطورية - ومن سخرىات القدر ، ان الخراب الناتج عن تلك « الحرب القوطية » قضت على حضارة ايطاليا القديمة من الناحية الواقعية . ان شبه الجزيرة التى كانت قد ازدهرت على عهد ثيودوريك القوطى ، تحولت الى صحراء فى ذلك الحين . أما مدينة روما فقد انخفض عدد سكانها ، وتهدمت مبانيها بعد أن تلقتها الأيدي مرة أخرى ابان الصراع الطويل . وهكذا لم ينجح جوستنيان فى استرجاع الماضى كما كان يأمل ، وانما نجح فى تدميره فحسب .

حققت قوات جوستنيان بعض النجاح على القوط الغربيين فى اسبانيا ، واحتلال شريط من الأرض على امتداد شاطئ البحر المتوسط ، بيد أنها كانت عاجزة عن ردع حكومة الفرنجة الغاصبة فى بلاد الغال . وفى النهاية

نجح فى السيطرة على معظم المناطق الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، وان كلفه ذلك ثمنا باهظا . على ان الاراضى الزراعية التى غزتها قوات جوستينيان تعرضت للجذب والبوار الى الحد الذى عجزت فيه عن الوفاء بالضرائب المرهقة اللازمة لدعم الحرب الطويلة ، وخزانة الدولة التى تم استنزافها . وكان عيب جوستينيان الاكبر فى عدم قدرته على المواءمة بين الطموحات والموارد المالية ، لذلك ترك امبراطوريته المترامية الأطراف فى غاية الانهك . واذا ماحاولنا استعادة أحداث استرداد الغرب والتأمل فيها نجد أنها كانت خطأ فادحا . ومع ذلك فانه لمن الصماقة أن ننقد جوستينيان لمحاولته استعادة وحدة البحر المتوسط ، واستبداده روما ، اذ باعتباره امبراطورا رومانيا ووارثا لتقاليد أوغسطس ، ودقديانوس فانه كان ملزما بأن يقوم بالمحاولة .

#### الاتجاه نحو الشرق :

كانت السنوات الأخيرة لعصر جوستينيان توقع الكابة فى النفس نتيجة للانهك الاقتصادى المتزايد الذى عانت منه الامبراطورية ، والوباء الذى اشاع الخراب ، وتزايد التعصب المقيت بين الأرثوذكس والمونوفيزيقيين . وكانت العقود التى تلت موت جوستينيان ٥٦٥ م بمثابة تحول تدريجى فى السياسة الامبراطورية لأن الامبراطورية المترنحة تخلصت عن الكثير من حدودها الغربية التى فتحتها ، واستجمعت ماتبقى لها من قوة بغية التصدى للأعداء الخطرين شمالا وشرقا . وانقسمت اللغة اللاتينية الطريق للغة اليونانية كلغة للإدارة الامبراطورية ، وعرف الأباطرة منذ ذلك الحين بلقب باسيليوس Basilius أكثر من قيصر Caesar أو أوغسطس Augustus . كما تلاشى حكم اعادة قيام الامبراطورية الغربية شيئا فشيئا . وبعد موت جوستينيان بثلاث سنوات ، هاجمت قبيلة جرمانية بدائية ، وهم اللومبارديون Lombards ايطاليا ، وأحدثت خرابا بالأراضى الرومانية المعذبة . واستمر البيزنطيون يسيطرون على جنوب ايطاليا والقليل من المدن الساحلية تجاه الشمال ، بما فيها عاصمتهم رافنا Ravenna بيد أنه فى أماكن أخرى لم تتوقف هجمات اللومبارديين . وفى مدى عقود قلائل بعد موت جوستينيان ، نجح القوط الغوييون Visigoths فى تحطيم السلطة البيزنطية فى أسبانيا ، بينما ظل شمال أفريقيا فى أيدي البيزنطيين لمدة زادت عن قرن الى أن سقط أخيرا فى أيدي الفاتحين المسلمين حوالى سنة ٦٩ م .

وفى الوقت نفسه وجه خلفاء جوستينيان المحاصرون بالأعداء من كل الاتجاهات عملية اصلاح الأحوال المالية ، والتصدي للمشاكل الشرقية .  
فبلاد الفرس ، التى كانت هادئة نسبيا فى عصر جوستينيان ، فوضت من جديد ضغوطها الخطيرة على الحدود الشرقية للامبراطورية ؛ كما بدأت القبائل السلافية تتدفق صوب البلقان منذ القرن السابع الميلادى فصاعدا .  
وقبيلة جديدة من البدو الآسيويين ، الآفار Avars الذين راقبوا باشتهاء ثراء بيزنطة النسبى ، الا أن دفعات مالية منتظمة وباهظة نجحت فى منعهم من التقدم . على أن الانشغال بالشرق ، والتخلى التدريجى عن الغرب ، واختفاء اللغة اللاتينية من البلاط الامبراطورى ، وازدياد اتجاء الثقافة البيزنطية نحو الشرق ، والنظرة البيزنطية كل ذلك شكل بداية عهد جديد .

#### المحنة والبقاء :

ووصل التهديد من الشرق ذروته فى عهد الامبراطور هرقل Heraclius المحارب المقتدر ( ٦١٠ - ٦٤١ م ) ، اذ حارب هرقل باستماتة لعدة سنوات ضد الجيوش الفارسية القوية التى عقدت العزم على تدمير الامبراطورية ، وفى وقت واحد ( ٦٢٦ م ) صمدت القسطنطينية أمام حصار مزدوج وعنيف قام به كل من الفرس والآفار . وفى النهاية تمكن هرقل من القضاء على الجيش الفارسى ، وأجبر الفرس على عقد معاهدة سلام مهينة . ولم يكد يتم القضاء على الفرس ، حتى اندفع المسلمون ، الذين تحمسوا لدين محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ( ت ٦٣٢ م ) ، تجاه فلسطين وسوريا ومصر وبذلك فصلوا تلك الأقاليم الغنية عن حكم القسطنطينية بصفة نهائية . ومات هرقل منهكا وحزينا ، وأصبحت الامبراطورية البيزنطية قاصرة على آسيا الصغرى ، والبلقان ، وعدد قليل من الحدود التى كان من الصعب الدفاع عنها ، وبعيدة فى الغرب . والتى فقدتها الامبراطورية بعد ذلك بحوالى قرنين من الزمان .

ظلت بيزنطة باقية بفضل موارد آسيا الصغرى المالية التى لا غنى عنها . واذا كانت القسطنطينية قد تعرضت للحصار الاسلامى العنيف ( ٧١٧ - ٧١٨ م ) ، الا أنها احتفظت بصلابتها . وفى الواقع تمكن البيزنطيون من استرداد توازنهم فى القرون التالية كما مدوا نفوذهم . اذ نجحوا فى تحويل السلاف والروس الى المسيحية وضمهم الى الجماعة المؤمنة بالكنيسة

الشرقية • وحاربوا العرب حتى أجبروهم على التوقف عن مهاجمتهم ،  
وطردوا القبائل الرحل من البلقان • وعاشوا عصورا ذهبية جديدة في  
الفن والمعرفة • والواقع ، انه في الوقت الذي سقطت فيه القسطنطينية في  
أيدي الأتراك سنة ١٤٥٣ م كانت الامبراطورية تجتاز حركة احياء عظيمة  
للحركة الانسانية - الكلاسيكية التي لها اثر مهم على الثقافة في النهضة  
الايطالية •

#### القراث البيزنطي :

ظلت القسطنطينية على امتداد العصور الوسطى الحصن الحصين  
بشرق أوروبا ضد المسلمين • اذ لم يحم سورها المنيع الامبراطورية الرومانية  
فحسب ، وانما حمى غرب أوروبا من الهجمات المصحوبة بالخراب والدمار  
التي قام بها الغزاة الآسيويون أيضا • على أن الغرب مدين للشرق الأوربي  
بأكثر بكثير من جنوده وأسواره • اذ خدمت الامبراطورية الشرقية غرب  
أوروبا والعالم الغربي كحارس أمين للثقافة الكلاسيكية • فعلى سبيل المثال ،  
كانت كتابات الفلاسفة اليونانيين ، باستثناء القليل منها غير معروفة في غرب  
أوروبا في العصور الوسطى الباكورة ، بيد انها كانت محفوظة وتدرس في  
القسطنطينية • حيث قام البيزنطيون باعادة ترتيب القراث الروماني القانوني  
العظيم وجعله ثابتا بشكل دائم الى ما شاء الله • واثر الفن البيزنطي على  
أعمال الرسامين في العصور الوسطى وعصر النهضة • ونجحت البعثات  
التبشيرية البيزنطية في تنصير وتحضير السلاف ، ووضعت الاسس السياسية  
واللاهوتية لروسيا القيصرية • والواقع انه عندما سقطت السطنطينية سنة  
١٤٥٣ م ، أصبحت موسكو Moscow روما الثالثة ، اذ استعمل حكامها  
الزى البيزنطي كقياسة ، وهيموا على كل من الدولة الكنيسة كما فعل  
أسلافهم البيزنطيين • ويبدو أن حكام روسيا الحاليين ، بسيطرتهم على  
الدولة ونمط الايديولوجية الشيوعية ، فانهم ينفذون التقليد البيزنطي  
فيما يتعلق بالقيصرية البابوية في صورة علمانية •

ومع ذلك فان للإنجازات البيزنطية حدود • اذ ظلت بيزنطة دولة  
خاضعة لحكومة الفرد المطلقة حتى النهاية ، كما أن عبقريتها الخلاقة توقفت  
عن النمو والتطور نتيجة للإبقاء على ما هو قائم ، ومقاومة التجديد أو التغيير  
بشدة • واقتصرت حركتها الابداعية على ميدان الفن والهرطقة الى حد كبير •

وكانت معظم تاريخها الطويل مجتمعا واقعا تحت سيطرة السلطة الحكومية ،  
والغالبية العظمى من نشاطها كان مكرسا لخدمة بقائها لذلك كان نصيب  
التأمل والتفكير الاجتماعى ، أو السياسى ، أو اجراء التجارب التكنولوجية  
أو الاجتهادات الفلسفية الجريئة ، قليلا جدا . وادت بيزنطة خدمة جليلة  
جدا فى حفظ الفكر والآداب اليونانية - الرومانية القديمة ، بيد انها أضافت  
القليل من عندها الى ذلك التراث الرائع . وربما كان ميراث بيزنطة من  
التراث الكلاسيكى القديم كاملا ، وربما كان البيزنطيون فى حالة من الرهبة  
أمام روعة انجازات أجدادهم الى حد أنهم كانوا غير قادرين نفسيا فى أن  
يتفوقوا عليها أو يطوقوها اتجاهات جديدة . ووفقا لهذا المفهوم كان  
البيزنطيون أسرى لماضيهم . وظلت رفعة الثقافة فى القسطنطينية على  
تناقض شديد مع جهل وبربرة العصور الوسطى المبكرة فى الغرب ، الا أن  
الغرب ، على الرغم من بربريته له أسبقية الانطلاقة الجديدة التى لا تبارى .  
وتعود فترة الانحطاط الفكرى ، وعودة الحياة شبه المغلقة تدريجيا فى  
القسطنطينية الى تحررها من الاشراف الكامل فى الماضى بصفة أساسية .  
على أن الروح اليونانية - الرومانية للعصور القديمة عملت على احياء  
وإثراء العالم المسيحى الغربى دون أى عائق .

## ٦ الغرب المتغير :

### « العصور المظلمة » :

فيما بين سنة ٥٠٠ م ، ٧٠٠ م ، كانت الثقافة الرومانية فى الغرب فى حالة شديدة من الفساد ، كما أن الحضارة الجديدة لغرب أوروبا كانت فى مرحلة البداية . على أن أبرز الخصائص المميزة لأوروبا فى القرنين السادس والسابع للميلاد كانت ، الجهل والهمجية ، والحياة السياسية والاجتماعية القريية الى الفوضى بسبب ضعف السلطة الحكومية . وفى كثير من النواحي ، كانت أوروبا فى العصور الوسطى الباكرة « مجتمعا ناميا » وفقا لوصفنا فى أيامنا هذه .

ويمكن ادراك المستوى الفكرى لتلك الفترة ادراكا كاملا بالنظر بايجاز الى العلماء الذين تولوا أعمال القيادة . فالأسقف جريجورى من مدينة تور Gregory Of Tours ( ت ٥٩٤ م ) ، الذى كتب عن تاريخ الفرنجة History Of The Franks يعتبر أفضل مصادرنا عن تاريخ كلوفس Clovis وخلفائه ، وإن كان قد كتب بلغة لاتينية بربرية غير ملتزمة بالقواعد النحوية ، وملا تاريخه بالمعجزات المفرطة فى الخيال والمخالفة للعقل . وكتابة يعبر عن عالم القسوة البدائية والقوة الغاشمة الملبدة تماما بغيوم السحر والخيال الخرافى .

وكذلك البابا جريجورى الكبير ( ت ٦٠٦ م ) الذى وضع جنباً الى جنب فى المكانة مع أمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين كأحد علماء الكنيسة اللاتينية الأربعة . وبالرغم من أن كتاباتهم كانت تتسم بالحكمة العملية العميقة ، وبعد النظر السيكلوجى ، فإنها كان لها تأثير شعبى وفاقته لاهوت أوغسطين فى البساطة والايضاح . فالمواضيع اللاهوتية التى تمسك بها أوغسطين ألقى عليها جريجورى بعض الظلال نتيجة لتركيزه على مواضيع أخرى مثل الملائكة والشياطين ، والآثار المقدسة الخاصة بالقدسين والشهداء .

Isidore Of Seville

وكان الأسقف أيزيدور من سيبيل



( ت ٦٣٦ م ) مشهورا على أنه أعظم -مفكرى عصره . وكانت الاتيمولوجيا  
Etymologies أعظم مؤلفاته التي قصد منها أن

تكون موسوعة لكل المعرفة ، بيد أن قيمتها ضعفت الى حد كبير نتيجة للعجز  
المحوظ فى القدرات على النقد عند أيزيدور . وقام بحصر كل معلومة بسيطة  
استطاع أن يجدها . سواء أكانت حقيقية أم غير حقيقية ، ولها قيمة علمية .  
كبرى أم تافهة فعلى سبيل المثال كتب عن موضوع المخلوقات الخيالية مايلى :

« ان جماعة السينوفال Cynocephali يدعون بهذا الاسم لأن  
لهم رؤوس كلاب ، وما يخرجونه من أصوات نباح يدل على أنهم حيوانات  
أكثر من كونهم بشر . وهم من مواليد الهند . كما أن السيكلوبوس  
Cycloposes جاءوا من الهند أيضا ، وعرفوا بهذا الاسم لأن لكل  
عين واحدة فى وجهه . . . والبلاديين Blemmyes الذين ولدوا فى ليبيا  
Lybia ، فيعتقد أن أبدانهم ليس لها رؤوس ، وأن أقواهم وعيونهم فى  
صدورهم ، والبعض الآخر ولد دون رقبة ، وأعينهم فى أكتافهم . . . ويقال  
أن البانوتيين panotii من سايثيا Sythia لهم أذان طويلة  
جدا لدرجة أنها تغطى أجسادهم . . . ويقال أن سلالة السكيوبيود  
Sciopedes يعيشون فى أثيوبيا . ولكل فرد منهم ساق واحدة ، ولهم  
سرعة فائقة فى الحركة ، وفى فصل الصيف يستلقون على ظهورهم فى العراء  
ويستظلون بأقدامهم الطويلة ، وأخيرا يقرر أيزيدور فى انطلاقة مفاجئة من  
الشك أن :

« ويقال ان هناك سلالات بشرية مخيفة بشكل قابل للتصديق ، غير أنها  
ليست موجودة ، أنها مجرد عملية تخيلات » .

على أن بحث أيزيدور بشأن الأرقام فهو مفيد علميا . فرقم اثنان  
وعشرون رقم سرى لأن « الله عمل فى البداية اثنين وعشرين عملا » . ولذلك  
فهناك اثنان وعشرون سدسا Sextarii فى البوشل Bushel  
وعشرون حرفا أبجديا فى اللغة العبرية ، واثنان وعشرون جيلا منذ آدم حتى  
يعقوب ، - ومن المحتمل أن الملاحظة الحاسمة - وجود اثنين وعشرون  
سفرا فى العهد القديم - منذ الأستر Esther .

وانصافا لأيزيدور، فانه يجب التأكيد على أن الفقرات السابقة لا توضح مناقبه وبالإضافة الى ذلك ، فإن معظم ماكتبه أيزيدور من كلام مقبول وغير مقبول ، فكله منقول من التراث القديم . غير أنه قام بتجميع وتصنيف هذه المادة العلمية وفقا لطابع السذاجة الذى كان طابعا مميزا لعصره . وتكمن أهمية أيزيدور فى أنه كان بسيطا ، وتعوزه المقدرة على النقد ، بيد أنه كان أفضل ما أنتجه عصره .

### التغير الاقتصادى والاجتماعى :

وفما يثير الاهتمام أن قادة الفكر الثلاثة فى العصر المظلم كانوا أساقفة ، والثلاثة كانوا من مدن : - تور ، وروما ، وسيرفيل . كما أن مدن الغرب كانت فى طريقها للتدهور منذ بداية القرن الثالث ، وعند بداية سنة ٦٠٠ م كانت أثرا بعد عين . أما فى شمال الألب فإن المجالس المحلية الحكومية التى تمتعت بالحكم الذاتى ، والتى كانت قائمة فى العصور القديمة اختفت دون أن تترك أثرا . ومع ذلك ، نجحت كثير من المدن فى البقاء على شكل مراكز إدارية كنسية . وظلت هذه المدن مراكز رئيسية مهمة للأساقفة ومكانا أساسيا للكنائس الأسقفية . وفى غالب الأحوال احتوت تلك الكاتدرائيات على رفات وأثار القديسين المهمين ، وبذلك الوسيلة صارت مراكز للزيارات المقدسة . فعلى سبيل المثال احتوت مدينة تور Tours رفات القديس مارتين St. Martin ذلك العامل الشهير الذى وردت معجزاته فى كتاب تاريخ الفرنجة للأسقف جريجورى والتى تركز عليها مرارا لدرجة جعلت المرء يشك فى أن هذا الأسقف الصالح انما كان يستهدف الدعاية للمدينة كمكان تجارى يرتاده الناس بفضل وجود رفات القديسين به .

وعلى الرغم من بقاء العديد من المدن كمراكز أسقفية ، فانه لعبت مجرد دور خارجى فى ثقافة واقتصاد الدويلات البربرية . وكانت المؤسسات التقليدية لذلك العصر هى ، الدير ، والقرية الريفية ، والمزرعة الكبيرة أو الفيلا التى يملكها بعض أفراد الطبقة الاستقرائية الثرية من الرومان أو الجرمان ، والتى كانت تنقسم الى قطع من الأراضى الزراعية الصغيرة يعمل بها الفلاحون المستأجرون الذين كانوا أشباه أحرار . ونشأت تجارة الترف الدولية ذات النطاق المحدود ، غير أنها تميزت فى القرنين السادس والسابع بخاصية

الاقتصاد الاقليمي بشكل عام . وانتجت المجتمعات الزراعية الصغيرة معظم احتياجاتها ، واقتربت من حد الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية .

وباستثناء بريطانيا وشمال شرق بلاد الغال ، مال المزارعون الجرمان الأحرار الى مستوى الألقان الشبيه بالرق . بيد أن مكانة المحارب البربرى بقي قومه هى التى حددت نمط الحياة الأرستقراطية ، واختفت المفاهيم الاجتماعية فى حياة المزرعة الرومانية الكبيرة رويدا رويدا . واندمجت المقومات الأساسية للشخصية الرومانية والبربرية معا عن طريق التزاوج ، وتكونت طبقة اجتماعية واحدة ، عنيدة ، خشنة الطباع ، مولعة بالحرب ، جرمانية أكثر من كونها رومانية .

اثبت الملوك البرابرة ، باستثناء ثيودوريك عدم مقدرتهم كلية على العمل ، وفقا للتراث الرومانى الادارى الذى ورثوه . إذ انهار نظام الضرائب الرومانى كلية تقريبا ، وانتقل امتياز سك العملة الى الاشراف الخاص ، وتدهورت سلطة وثروة الحكومة وفقا لذلك ، ليس بسبب كون الملوك كرماء ، ولكن لأنهم كانوا جهلة . فكان ينقصهم أبسط المفاهيم عن مسئولية الحكومة ، واعتبروا ممتلكاتهم اقطاعات خاصة يمكن لهم استغلالها أو التصرف فيها وفقا لأهوائهم . وحددوا منحا عشوائية من الأرض والسلطة السياسية لكل من الكنيسة وعلية القوم ، واعتبروا مابقى بعد ذلك ممتلكاتهم الخاصة ، وبذلك عملوا على دمج أسوأ ملامح الحكم الفوضى والاستبدادى . ووفقا لما ذكره مؤرخ فرنسى حديث « لم يحدث فى تاريخنا أن كان مفهوم الدولة معروفا بالقدر الكامل الذى نعرف به كسوف الشمس » (\*) .

ومما لاشك فيه أن غرب أوروبا كان تحت سيطرة حكومة أكثر قوة فى عهد الهيمنة الرومانية ، فى حين أنه فى فترة سيطرة الدويلات البربرية كان تحت حكومة دون المستوى السابق بشكل جذرى . ولم يفعل الملوك الجرمان شيئا على الاطلاق من أجل انعاش الاقتصاد العام أو العمل على معالجة مسألة الفقر المدقع . وناضلت الكنيسة بشجاعة لملء الفراغ وذلك بتوزيع الصدقات وإبراز محاسن فضيلة الرضا وقبول الأمور والأحوال السائفة دون شكوى أو تذمر ، الا أن الكنيسة نفسها لم تكن مؤهلة بالقدرات التى

---

\* Robert Latouche, The Birth of Western Economy, tr. E.M. Wilkinson (London, 1961), p. 129.

تسمح لها بالتغلب على المشكلات والصعاب التي أثارته حالة الاضطراب. الكامل في الغرب الذي تحت يد البرابرة • اذ اقتصر التنظيم الكنسي على المدن المدرسة ، والأديرة المسورة الى حد كبير • ومع ذلك قام أبناء الأبرشيات الريفية بالعمل على الوفاء باحتياجات سكان الريف رويدا رويدا • والواقع أن الأبرشية بالريف لم تصبح احدى الملامح المميزة للكنيسة الغربية. قبل القرن الثامن الميلادي • اذ قبل هذا التاريخ كان المزارع محظوظا اذا ما وقعت عينه على قس ولو مرة واحدة في السنة • واذا كانت الملكية والكنيسة هما أكبر ملاك للأراضي الزراعية في الممالك البربرية ، الا أنهما كانتا تمثلان أصحاب الأراضي المستغلين ، والمولعين بجمع الأموال أكثر من كونهما مصادر ان للعدالة والنعمة الالهية • وهكذا كان سكان الريف تحت رحمة الظروف السياسية والروحية كما كانت الحياة الريفية قاسية ، ومليئة بالشائعات ، وغير ممتعة •

#### غرب أوروبا سنة ٦٠٠ م :

سبق لنا ان القينا نظرة عامة على أوروبا سنة ٥٠٠ م غداة انهيار الامبراطورية الغربية • وفي ذلك الحين سيطرت حكومة ثيودوريك القوطية الشرقية على ايطاليا ، وحكم الوندال شمال أفريقيا ، وهيمن القوط الغربيون على اسبانيا ، ونجح كلوفس وفرنجيته في فتح بلاد الغال ، وبدأت الأنجلو ساكسون Anglo-Saxons في استيطان بريطانيا • وبعد ذلك الحين بقرن من الزمان ، قضت جيوش جوستينيان على دولتين من تلك الدول ، اذ صار شمال أفريقيا بيزنطيا بعد أن كان ونداليا ، كما انهارت مملكة القوط الشرقيين في ايطاليا •

وبحلول سنة ٦٠٠ م كانت قبائل الأنجلو - ساكسون قد احتلت معظم بريطانيا واستبعدوا كثيرا من سكانها الأصليين الكلت ، وأجبروا الباقين على الاتجاه الى الجبال الغربية لاقليم ويلز • وكانت بريطانيا الأنجلو سكسونية في ذلك الحين مجموعة صغيرة من الممالك الوثنية ، المستقلة ، والمكونة من خليط غير متجانس من السكان حيث كانت مرحلة اعتناقهم للمسيحية مازالت في بدايتها •

وتجاه الجنوب سيطر الفرنجة على بلاد الغال على عهد أسرة كلوفس.

القاسية وغير المقتدرة - الأسرة الميروفنجية ، والتي عرفت باسم ميروفنش .  
Merovech الجد الأعلى لكلوفس . واتبعت الأسرة الميروفنجية «الفرنجية» .  
العادة الجرمانية فى تقسيم المملكة بين أبناء الحاكم المتوفى . وفى العادة  
كان الأبناء ينشغلون فى حرب أهلية مريعة ، الى أن يسيطر ملك واحد  
على دولة الفرنجة . وبعد وفاته ، يتم تقسيم المملكة بين أبنائه ، وتتكرر  
المسرحية الهزلية المريعة . وكانت الأسرة الميروفنجية تميل الى السلب  
والنهب ، ويسيطر عليها الجهل ، والتعصب ، والايمان بالخزعبلات ، كما أن  
الكنيسة الميروفنجية صارت غير منظمة وسادها الفساد .

وعاق الفساد أعمال الكنيسة والدولة فى أسبانيا الخاضعة للقوط .  
الغربيين . فالملكية التى اعتنقت الكاثوليكية بدلا من الأريوسية سنة ٥٨٩ م ،  
كانت قادرة أخيرا على استعادة شاطئ البحر المتوسط الذى كان تابعا لها  
من بنزينة ( حوالى ٦٢٤ م ) ، غير أن الملوك القوط الغربيين سمحوا أن  
تنقل سلطتهم من أيديهم شيئا فشيئا الى طبقة الارستقراطية من ملاك  
الأراضى والذين اتسموا بالجشع والعدوان . وطريقة الحكم هذه البالية  
والعتيقة جعلت الدولة فريسة سهلة للمسلمين الفاتحية فى أوائل القرن  
الثامن الميلادى .

وكانت إيطاليا قد تدهورت منذ القرن الذى عاش فيه ثيودريك . إذ أن  
حروب جوستينيان القوطية المرعبة تلاها غزو اللومبارديين Lombards  
البدائيين . وبحلول سنة ٦٠٠ م كانت شبه الجزيرة ، التى هلك معظم  
سكانها ، موزعة بين البيزنطيين فى مدينة راغينا Ravenna والجنوب ،  
واللومبارديين فى الشمال . أما البابوية التى كانت تحت سلطة بيزنطة من  
الناحية الاسمية ، فقد سيطرت على الأراضى المحيطة بمدينة روما ، وحاولت  
المحافظة على استقلالها الهش باثارة اللومبارديين ضد الدولة البيزنطية .

### فاعلية العصور المظلمة :

تلك كانت أحوال غرب أوروبا سنة ٦٠٠ م . ومن النظرة الأولى  
لا يستطيع المرء الا أن يجد سوى القليل من الأمل فى مثل هذه الكآبة والظلام  
السائد . ومع ذلك كان هذا هو المجتمع الذى تمخضت عنه الحضارة  
الغربية . وكانت هذه فترة التكوين - عصر بداية التطور الحضارى التى بدت .

ففيها الاتجاهات البسيطة من الناحية الظاهرية في يوم ما تزداد ملامحها في التقاليد القوية التي أثرت تأثيرا شديدا على مجرى التاريخ الأوربي . وحتى في سنة ٦٠٠ م كانت هناك ومضات من الضوء وسط الظلام . إذ ظلت الثقافة الكلاسيكية باقية ، إلا أنها كانت في شكل مبتذل ، وفي متناول الجمهور . ولم يكن أيزيدور من سيفيل مثل أوجستين ، بيد أنه كان أكثر بكثير من مجرد متبربر . وبالرغم من أن الكنيسة تلطخت بالجهل والفساد في بيئتها ، فإنها ظلت محتفظة ببعض مقدراتها على الإلهام ، والتنوير الروحي ، والتهديب .

وفي أقصى الشمال ، انضمت أيرلنده إلى المسيحية على يد القديس بـتريك St. Patrick في القرن الخامس الميلادي ، وبحلول سنة ٦٠٠ م كشفت أيرلنده عن ثقافة مسيحية كلتية خلقة بشكل مذهش . وبرع العلماء الأيرلنديون في معرفة الأدب اليوناني واللاتيني في وقت كانت فيه اللغة اليونانية غير معروفة في أي مكان في الغرب ، وأنتج الفنانون الأيرلنديون مخطوطات وفيرة مزخرفة بالذهب والفضة والألوان الزاهية بشكل رائع في نمط كلتي Celtic متسم بخطوط متحنية . ولا كانت الكنيسة الأيرلندية في معزل عن الكنيسة الأوربية لوجود ممالك الأنجلو - سكسون الوثنية لذلك كانت لها عاداتها المميزة التي اكتسبتها تدريجيا . إذ أقامت نظامها حول الدير أكثر من الأبرشية ، كما كان رؤساء الأديرة هم القادة أكثر من الأساقفة . وكان الرهبان الأيرلنديون مشهورين بثقافتهم العالية والصرامة المتزمتة في حياتهم ، ومجالهم الواسع المدى فيما يتعلق بأنشطتهم التبشيرية . كما نجحوا في تنصير أجزاء كبيرة من سسكتلاند Scotland وفقا لفهمهم الخاص للمسيحية . وبحلول سنة ٦٠٠ م كانوا يمارسون الأنشطة التبشيرية في القارة الأوربية نفسها .

#### الديرية المسيحية الباكر :

كانت الديرية أعظم قوة فعالة وأهم مؤسسة اجتماعية في العصور الوسطى الباكرة على أن الدافع تجاه الحياة الديرية ليس وقفها على المسيحية ، وإنما وجد في أكثر من ديانة وبالتحديد في ديانتين فحسب وهما البوذية Buddhism ، واليهودية Judaism فعلى سبيل المثال فإن جماعة الإيسين Essences الذين ربما قامت طائفتهم بكتابة

لغيفات الدرج الخاصة بالبحر الميت . . . Dead Sea Scorrills  
أقاموا نوعا من النظام الديرى اليهودى \*

كانت هناك على الدوام شخصيات متدينة توافقة الى الانسحاب من العالم المملوء بالآثام وتكريس حياتها للارتباط بالله بصفة دائمة ، بيد أن هذا الدافع كان قويا بشكل بارز بين المسيحيين . إذ أصبحت الديرية أكمل أسلوب للحياة المسيحية - والتجسيد الكامل لكلمات المسيح : « وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو أبيا أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية » (انجيل متى : ١٩ : ٢٩) \*

ان الدافع للانقطاع للعبادة والتركيز الزهدى للذات ألفتة المسيحية لأول مرة فى أواخر القرن الثالث الميلادى عندما خلا القديس المصرى أنطون الى نفسه بالصحراء ليعيش حياة متقشفة لناسك ورع . وعندما ذاع خبر ورعه ، تجمعت حوله جماعة من النساك الراغبين فى اغتراف نفحة من نفحات قداسته . ثم نظم لهم القديس أنطون Antony مجتمعا من النساك الذين عاشوا معا ، بيد أنهم لم يتعاملوا مع بعضهم البعض على شاكلة سكان الشقق فى مدينة أمريكية كبيرة وفى الحال ظهرت مجتمعات من النساك مشابهة فى كل أنحاء مصر . وامتدت الى الأقاليم الأخرى من الامبراطورية وكثر عدد النساك القديسين فى القرنين الرابع والخامس . ولقد حقق أحدهم ، القديس سيمون العمودى St. Simeon Stylites العزلة الضرورية بأن عاش على قمة عمود طوله ستون قدما لمدة ثلاثين عاما ، مثيرا بذلك دهشة ومحاكاة واسعتى الانتشار . \*

وفى الوقت نفسه ظهر نمط عملى للحياة الديرية مبنى على حياة يسودها التعاون والمشاركة . وهذه المجتمعات الديرية الباكرا التى بدأت فى أوائل القرن الرابع بمصر وانتشرت بسرعة فى كل أنحاء الامبراطورية ، جذبت العديد من المسيحيين المتحمسين الذين وجدوا تحديا غير كاف من جهة الكنيسة بعد الامبراطور قنسطنطين عندما ظهر بها اتجاه متزايد بالاحساس بالرضى . على أن شخصية الفرد التقى الذى عاش فى الصحراء ، وكذلك القديسين الذين عاشوا فوق الأعمدة أفسحوا المجال الى قيام حياة ديرية أكثر تنظيما ، الا أن المجتمعات الدينية الباكرا ظلت مفتقرة الى التنظيم

واستمرت فى تمسكها بضرورة ممارسة العادات المتبعة بالتقشف ، مثل :  
الصيام القاسى ، وارتداء القمصان الوبرية ، والثياب المصنوعة من القبطان ،  
وهى كلها أمور ابتدعها النساك .

### الديرية البندكية :

غير القديس بندكت من مدينة نورزيا St. Benedict of Nursia  
( حوالى ٤٨٠ - ٥٤٤ م ) طريقة الحياة الديرية الغربية ، وذلك  
بصبح قداستها المتوهجة بالفطرة السليمة والبادئ الواقعية فى التنظيم .  
وفى سن الشباب هجر بندكت مدينة روما الفاسدة ومارس حياة النساك فى  
كهف بالقرب من بقايا القصر الريفى للإمبراطور نيرون Nero . وبمرور  
الوقت ذاع خبر طهارته وورعه وتجمع حوله المريدون والأتباع . وكما ثبت  
فى النهاية ، لم يكن بندكت مجرد ناسك عادى ، ان كان رجلا يتمتع ببصيرة  
سيكولوجية قوية - ومقدرة على التنظيم رائعة ، ان تعلم على مهل من  
تجاربه الديرية المتعددة منذ شبابه كيف تكون الحياة الديرية على أحسن  
وجه . ونظرا لنشأة بندكت فى أسرة رومانية أرستقراطية لذلك أضاف الى  
عمله النزعة العملية ومعنى النظام ، والانضباط وهى أمور رومانية تقليدية -  
وأسس بندكت عددا من الأديرة التى جذبت اليها ليس فقط القديسين الذين  
تميزوا ببعد النظر ، ولكن أيضا الأشخاص العاديين ، بل وحتى أبناء الأسر  
الرومانية الثرية . وأخيرا شيد بندكت دير مونت كاسينو Monte  
Cassino فى أعلى جبل فى منتصف الطريق بين روما و نابلى . ومنذ  
ذلك الحين ، ولعدة قرون كان دير مونت كاسينو أحد المراكز الدينية الرئيسية  
للحياة الدينية فى غرب أوروبا . وفى مونت كاسينو ، شيد بندكت ديرا  
نموذجيا يحكمه دستور شامل ، عملى ، قائم على المودة والرحمة . ومات  
القديس بندكت فى غمرة حروب جوستينيان القوطية ، غير أن نظامه الديرى  
ظل باقيا لهم ، غرب أوروبا .

ووصف البابا جريجورى الكبير نظام القديس بندكت الديرى على أن  
« حكمته واضحة للعيان » . فهذا النظام الديرى يشترط حياة منتظمة  
بأحكام ، ونشطة ، ولكنها ليست الى حد التقشف الشديد . وكان الرهبان  
البندكتيون يرتدون ملابس محتشمة ، ويتناولون قدرا كافيا من الطعام .  
ومن النادر أن يتركوا ليقعلوا ما يحلوا لهم . كانت حياة هؤلاء الرهبان



- مكرسة لله . ولتحقيق القداسة الشخصية ، ومع ذلك كانت أيضا حياة في  
- مقيور أى مسيحي نذر حياته لله ، ويمكن وصفها بأنها كانت أكثر جاذبية ،  
إذا ما قورنت بالتعامل القاسى المتزايد خارج عالم هؤلاء الرهبان . وكان  
اليوم الديرى مملوءا بالأنشطة المرتبة بكل عناية : صلاة جماعية ، وقراءة  
- تعبدية ، وعمل فى فلاحة الأرض ، والعمل الخاص بشئون المعيشة ، ونسخ  
المخطوطات ، الخ ، وفقا لاحتياجات الدير ومقدرة الراهب . والتزم الراهب  
- بالعفة ، والفقر ، والطاعة . ويجب أن يكون الراهب عزبا ، وأن يتخلص  
من كل ما يملك ، كما يجب عليه أن يطيع رئيس ديريه . ويقوم الرهبان  
بانتخاب رئيس الدير مدى الحياة ، على أن يكون رئيسا لا منازع له ،  
- بيد أنه كان عليه أن يستشير الرهبان فى كل قراراته . وكان رئيس الدير  
مستولا مسئولية كاملة أمام الله ، ولديه تعليمات أن يعالج الأمور وفقا  
للنظام الديرى وبكل دقة . وتم تحذير رئيس الدير من أن يغضب أو ( يثقل  
- على رهبانه أو أن يكون سببا فى « مجرد الهمس » . وهنا تبدو مكانة  
الحكمة التى أشار إليها البابا جريجورى ، والتى كانت بلاشك العامل  
الأساسى فى نجاح نظام بندكت الديرى .

وفى مدى قرنين بعد موت بندكت كان نظامه الديرى قد انتشر فى كل  
- أنحاء العالم المسيحي الغربى . على أن النتيجة لم تكن قيام تنظيم ديرى  
هرمى ، وانما مجموعة من الأديرة المستقلة والقائمة بذاتها ، ولها نظامها  
الديرى وحياتها الخاصة ولا تخضع لغيرها من الناحية الادارية . وتصور  
- بندكت أديرته على أنها أماكن لها قداستها الروحية والتى يجد بها الاتقياء  
مكان يقيمون به بعيدا عن المجتمع البشرى . غير أن مجتمع البرابرة الغربى  
الأمى ، الذى كان يعانى من حالة اضطراب كاملة ، كان فى أمس الحاجة  
الى نظم وتعاليم بندكت . ولم يكن فى استطاعته السماح لهم بالتنازل عن  
- الأمور الدنيوية . على أنه قد ثبت فى النهاية أن البندكتيين كان لهم تأثير  
ضخم على العالم الذى اعتزلوه ؛ إذ خرجت مدارسهم الغالبية العظمى من  
- المتعلمين الأوربيين فى العصور الوسطى الباكرة . ومارسوا مهمة الجسر  
الثقافى ، ونسخ وحفظ المؤلفات اللاتينية المتعلقة بالعصور القديمة . وكانوا  
على رأس تغلغل المسيحية فى غابات ألمانيا الوثنية ، وفى اسكنديناوه ،  
- وبولنדה ، وهنغاريا فيما بعد . ومارسوا مهمة الكتبة والمستشارين  
للملوك ، كما تم اعدادهم لشغل المناصب الكنسية العليا . ونظرا لتلقيهم

الهباء من الأراضى - من قبل المتبرعين الاتقياء على مر أجيال كثيرة ، لذلك امتلك الرهبان البندكتيون الأراضى والأطيان الشاسعة التى أصبحت نماذج لعصرهم فى التنظيم الزراعى الذكى ، والابتكار التكنولوجى • ويظهر الانقطاع ، أصبح رؤساء الأديرة من كبار المقطعين ، ومسؤولين عن الادارة السياسية والقانونية والخدمة العسكرية على المناطق الكبيرة التى تحت ادارتهم • - وكانت الأديرة البندكتية قبل كل شئ ، بمثابة جزر للسلام ، والأمن ، والتعلم ، وسط محيط من الوحشية والبربرية ، كما كانت مراكز روحية وثقافية لتطور اندماج التراث المسيحى بالجرمانى والذى زود الحضارة الأوروبية بطبقة تحتية • وباختصار كانت الديرية البندكتية المؤثر الحضارى الأسمى فى الغرب المتبربر •

#### البابا جريجورى الكبير ( ٥٩٠ - ٦٠٤ م ) :

قام البندكتيون بتنفيذ مهمتهم الحضارية بفضل تأييد البابوية الحماسى والذى كان بلا حدود • وأكمل هذا التحالف بين هاتين المؤسستين على يد جريجورى الكبير البابا البندكتى الأول ، الذى اعترف على الفور بمدى امكانية البندكتيين فى التأثير فى نشر الايمان الكاثولىكى ، وامتداد القيادة البابوية فى كل مكان عبر العالم المسيحى •

وسبق لنا معرفة البابا جريجورى كأحد علماء العصر المظلم ، وأنه قام بتبسيط الفكر الأوغسطينى ، وجعله فى متناول مدارك الجمهور • وبالرغم من أن لاهوته كان مؤثرا الى درجة كبيرة فى القرون التالية ، فانه فشل فى الارتفاع كثيرا فوق المستوى الفكرى لعصره • وتكمن عبقريته فى فهمه الشديد للطبيعة البشرية ، وفى قدرته كشخصية ادارية ومنظمة - كما أن كتابه عن رعاية الكاهن لأبناء أبرشيته Pastoral Care هو بحث عن واجبات والتزامات الأسقف ، والذى تضمن الكثير من الحكمة العملية والرعى الأخلاقى العام • اذ أنه قدم الاجابة على الكثير من الأمور المتعلقة بالأحوال السائدة فى عصره ، وأصبح أحد الكتب الراسخة الانتشار فى العصور الوسطى •

أحب جريجورى الحياة الديرية وارتقى العرش البابوى وقد بدا عليه الشعور الصادق بالأسف والندم • وعند سماعه نبأ اختياره ذهب الى مخبئه وأجبر على الانتقال الى بازيلিকা Basilica القديس بطرس الرومانية ،

رغم انْفِه ، وذلك لاتمام مراسيم رسامته بابا • غير أنه ما أن كيف نفسه وفقا لمسئوليائه الجديدة ، حتى بذل كل طاقة من أجل اتساع نطاق السلطة البابوية • ولما كان البابا جريجورى الكبير يسير وفقا لتعاليم البابا ليو الأول ، لذلك اعتقد بكل تحمس كخليفة للقديس بطرس أنه الحاكم الشرعى للكنيسة • وقام بإعادة تنظيم النظام المالى للأراضى والأطيان التابعة للبابوية ، واستخدم الدخول المتزايدة فى الأعمال الخيرية ، وذلك للتخفيف من حدة حالة الفقر المدقع فى عصره • على أن استقامته وحكمته ، وقدرته الادارية حققت له مركزا ملكيا تقريبا فى روما ووسط ايطاليا ، وسما مركزه على اللومبارديين والبيزنطيين المعاصرين له ، والذين كانوا فى ذلك الحين يناضلون من أجل السيطرة على شبه الجزيرة • وإذا كانت عملية اصلاح الكنيسة الفرنجية ليست فى نطاق سلطاته المباشرة ، الا أنه شرع فى تنفيذ خطة تهدف الى انضمام كل من فرنسا ومانيا الى الحضيرة البابوية عندما أرسل جماعة من الرهبان البندكتيين من أجل تنصير انجلترا الوثنية •

#### اعتناق انجلترا للمسيحية :

قاد القديس أوغسطين البندكتى الارشالية التبشيرية الى انجلترا ، ( يلاحظ عدم الخلط بينه وبين القديس أوغسطين من هيبو ، رجل اللاهوت الكبير فى عصر أسبق ) • وفى سنة ٥٩٧ م وصل أوغسطين وأتباعه الى مملكة كنت Kent الانجليزية ، وبدأوا عملهم هناك •

وفى ذلك الحين كانت انجلترا مقسمة الى عدد من الممالك البربرية المستقلة • وكانت مملكة كنت اقواها ، ونظرا لأن زوجة ملك كنت كانت مسيحية لذلك حظى أوغسطين باستقبال ودى • وسارت عملية التنصير على قدم وساق ، وفى يوم عيد العنصرة Whitsunday سنة ٥٩٧ م تم تعميد ملك كنت والاف من رعيته • وكانت « مدينة كنت » أو كانتربورى Canterbury عاصمة المملكة قد أصبحت المركز الرئيسى لكنيستته الجديدة ، وأصبح القديس أوغسطين نفسه أول رئيس للأساقفة بها •

وايان العقود التالية ، علا وخبا مصير المسيحية البندكتية الانجليزية وفقا لتغيير الأحوال فى الممالك البربرية • وفى منتصف القرن السابع الميلادى ، تدهورت مملكة كنت وانتقلت السلطة السياسية الى مدينة نورثمبريا

Northumbria - التي تقع فى أقصى شمال الممالك الأنجلو - ساكسونية .  
وأصبح هذا المكان البعيد مسرحا للصراع والصدام بشكل خطير بين القوتين  
العظميين المبدعتين فى ذلك العصر : الكنيسة الكيلتية الأيرلندية المتجهة نحو  
الجنوب من أديرتها فى سكتلندا ، والمسيحية البندكتية الرومانية المتجهة  
نحو الشمال من مدينة كينت .

واشتركت الحركتان الدينيتان فى دين واحد ، بيد أنهما اختلفتا فى  
الخلفيات الثقافية ، وفى الأفكار العامة عن الحياة الديرية والتنظيم الكنسى .  
بل وفى طرق حساب ميعاد عيد الفصح . وكان مستقبل علاقات انجلترا  
بالقارة الأوروبية والبابوية معرضا للخطر ، إذ كان من المحتمل أن يؤدى  
الانتصار الكلتى الى عزل انجلترا عن المصدر الرئيسى لتطور المسيحية  
الغربية . بيد أن الملك أوزوى Oswy حسم الموقف لصالح المسيحية  
البندكتية - الرومانية والسلطة البابوية فى انجلترا فى مجمع وايتباى  
Whitby سنة ٦٦٣ م . وتم اقرار ذلك . وبعد ست سنوات ، سنة

٦٦٩ م ، أرسلت البابوية العالم المثقف ثيودور من تارسوس Theodor  
of Tarsus ليتولى مسئولية الأسقفية فى مدينة كانتربرى  
Canterbury ، وأن يعيد تنظيم الكنيسة الانجليزية بما يجعلها تسير  
وفقا لنظام هرمى . ونتيجة لتنصير نورثومبريا ، وجهود الأسقف ثيودور  
المضنية أصبحت انجلترا أعظم مجتمعات أوروبا المسيحية نشاطا وإبداعا  
والتي كانت من قبل قرن واحد من الزمان تؤمن بالوثنية بشكل واضح .

وتمخض اللقاء الأيرلندى - البندكتى فى نورثومبريا فى القرن السابع  
عن حركة ثقافية مهمة عرفت بالنهضة النورثومبرية . وأثرت فى التعاليم  
الأيرلندية والبندكتية . الى الحد الذى جعل الحضارة البربرية الغربية  
تجبل الى أوجها فى هذه البلاد البعيدة . وساهمت المخطوطات المزخرفة  
بشكل واضح ، والمنسوخة بالخط الكلتى المنحنى الشكل والكتابة الجديدة ،  
والملمحة الشعرية القوية ، والمباني المثيرة للانفعال ، فى ازدهار الحضارة  
النورثومبرية فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع . وتمركزت  
النهضة النورثومبرية فى الأديرة العظيمة التى شيدها الأيرلنديون ، والبعثات  
التبشيرية البندكتية ، وبخاصة دير جارو Jarrow البندكتى . وهنا قضى  
القديس بيده المجلد St. Bede the Venerable وعالم عصره ،  
حياته كلها .

دخّل بيده دير جازو في سن الطفولة ، وبقي به حتى موته سنة ٧٣٥ م .  
 وأشهر أعماله العديدة كتابة « التاريخ الكنسي لانجلترا » وهو دراسة تعرض  
 اتجاهها بارعا في النقد بشكل ممتاز فاق من سبقوا بيده في العصور  
 الوسطى ، وكذلك من عاصروه ، وكتاب التاريخ الكنسي هذا هو مصدرنا  
 الرئيسي عن تاريخ انجلترا الباكر . ويظهر هذا الكتاب سعة أفق ثقافية  
 بشكل ملحوظ وعقلية ثاقبة ، وجعل من بيده أعظم شخصية مفكرة منذ  
 أوغسطين من هيبو Augustine of Hippo

ويموت بيده سنة ٧٣٥ م كان الملوك النورثومبريين قد فقدوا سيطرتهم  
 السياسية كما كانت الثقافة النورثومبرية في طريقها الى التضاؤل التدريجي .  
 غير أن عادات الدراسة المتعمقة انتقلت من انجلترا الى القارة الأوروبية على  
 يد جماعة من المبشرين البندكتيين الذين لا يخشون لومة لائم . وفي سنة  
 ٧٤٠ م أصلح القديس بونيفيس St. Boniface الكنيسة في بلاد  
 الفرنجة Frankland ، وجعلها تتشرب المثالية البندكتية ، وأكثر  
 ارتباطا بالبابوية . وفي ذلك الحين كان قد مضت مائة وأربعون سنة على  
 موت البابا جريجورى ، بيد أن شخصيته ظلت باقية بشكل فعال . وشيد  
 القديس بونيفيس والمبشرون الانجليز الآخرون أديرة بندكتية جديدة بين  
 الجرمان شرق نهر الراين وبدأ العمل الطويل والشاق في تنصير وتحض  
 هؤلاء الناس المتوحشين تماما كما فعل القديس أوغسطين ورهبانه في تنصير  
 شعب كينت الوثني . وفي أواخر القرن الثامن انتقل المركز الثقافي للعالم  
 المسيحي مرة ثانية من انجلترا الى امبراطورية القائد الفرنجي شارلمان ،  
 الذي سنتناوله في فصل لاحق ، والذي ازدهرت امبراطوريته بخطوات  
 سريعة . ومن المهم القول أن الكوين Alcuin . العالم الموجه في مملكة  
 شارلمان ، كان راهبا بندكتيا من نورثومبريا .

### الكنيسة والحضارة الغربية :

اختلف الغرب المتبربر عن الشرق البيزنطي في مظاهر عديدة ، وكان  
 انخفاض مستوى الغرب الحضارى البعيد المدى أكثر هذه المظاهر وضوحا .  
 بيد أن الأكثر أهمية في مظاهر الاختلافات هذه ، هي أن الكنيسة الغربية  
 كانت قادرة على معارضة القيصريّة البابوية البيزنطية ، وأن تبدو أمورها

بشكل مستقل عن الدولة تقريبا • إذ في غالب الأحوال عملت السلطة الروحية والعلمانية يداً في يد • بيد أنه لم يحدث إطلاقاً أن اندمجتا كما حدث في القسطنطينية وهو الأمر الذي كان قائماً في معظم الحضارات القديمة بشكل واقعي • وتميز الغرب المسيحي الباكر بوجود قسمين واضحين - ونعني الفصل بين القيادة الثقافية والتي كانت كنيسة وديرية ، والسلطة السياسية التي كانت في أيدي الملوك البرابرة • وقد قدمت هذه الثنائية الطبقة التحقيقية بسلاسة وفاعلية الثقافة الغربية • وتمخض عن هذه الثنائية توتراً خلافاً استهدف التغيير أكثر من اتخاذ شكل محدد ، وإيجاد سلسلة متصلة من النماذج الثقافية الرائعة ، وكذلك الأشكال الفكرية والروحية الجديدة بصفة دائمة • وعلى شاكلة مدينتي القديس أوغسطين ، فان الثقافة البطولية الحربية للدول الجرمانية والثقافة المسيحية الكلاسيكية للكنيسة والدير ظلتا على الدوام في عملية اندماج ، بيد أنهما لم يندمجا اندماجاً كاملاً على الإطلاق • على أن التفاعل بين هذين العالمين تحكم في تطور حضارة العصور الوسطى •

#### الجدول الكرونولوجي للقرنين السادس والسابع :

- ٤٨١ - ٥١١ م : حاكم كلوفس •
- ٤٩٣ - ٥٢٦ م : ثيودوريك يحكم إيطاليا •
- ٥٢٧ - ٥٦٥ م : عهد جوستينيان •
- حوالي ٥٤٤ م : موت القديس بندكت •
- ٥٩٠ - ٦٠٤ م : مدة بابوية جريجوري الكبير •
- ٥٩٧ م : وصول بعثة القديس أوغسطين الى كينت •
- ٦٣٢ م : ٦٣٢ م : موت محمد ( صلى الله عليه وسلم ) : وبداية الفتوحات الاسلامية •
- ٦٣٦ م : موت القديس إيزيدور من سيرفيل •
- ٦١٠ - ٦٤١ م : عصر هرقل في القسطنطينية •
- ٦٣٦ م : مجمع وايت باي : نورثومبريا تؤمن بالمسيحية البندكتية - الرومانية •
- ٧١٧ - ٧١٨ م : حصار العرب للقسطنطينية •
- ٧٣٣ م : موقعة تور : أقصى توغل للعرب في غرب أوروبا •
- ٧٣٥ م : موت بيده المبجل •

## ٧ - ظهور الاسلام :

### الاسلام ، وبيزنطة والعالم المسيحي الغربى :

خلال الجزء الأكبر من العصور الوسطى ، انقسمت امبراطورية انجر المتوسط القديمة الرومانية الى ثلاث وحدات ثقافية مميزة : العالم المسيحي الغربى ، العالم المسيحي البيزنطى والعالم الاسلامى . وتميزت هذه الثقافات الثلاث بوجود اختلافات عميقة فى الابداع والأسلوب . ومع ذلك فمن وجهة نظرنا المستقلة احتوت تلك الثقافات على أمور كثيرة مشتركة . اذ ان كلا من تلك الثقافات هى بمثابة وريث للحضارة اليونانية - الرومانية . كما أن لكل منها وجهة نظر دينية قوية نقلت بجزارة من التراث العبرى . وفى الواقع ، فان كلا منها تدعى بأن الله الذى ورد ذكره فى كتاب العهد القديم هو خاص بها ، وتتنظر كل منها الى التاريخ على أنه صراع أخلاقى مرير ، يبدأ منذ بداية الخليفة وينتهى يوم الحساب . وكان هناك قدر كبير من التبادل والتداخل بين الثقافات الثلاث فى العصور الوسطى . ومع ذلك لم يحدث أن تأثرت احدهما بشكل حاسم بالثقافتين الأخرتين . وبالرغم من أن كلا منها تعرضت للآثار والتحفز من بعضها البعض ، فان الواحدة منها صنعت قدرها بنفسها .

وحتى حوالى القرن الثانى عشر الميلادى كان العالم المسيحي فى العصور الوسطى أكثر الثقافات الثلاث تخلقا وبدائية ، وكان عليه أن يتعلم الكثير من الاسلام وبيزنطة . وتشكلت التركية الاندماجية للتراث الكلاسيكى ، والمسيحي والجرمانى بطرق كثيرة بفضل الحضارتين المتجاورتين ، بيد أن تأثير هؤلاء الجيران على الغرب أعاقه عداء الغرب الشديد تجاه المسلمين ، وكذلك البيزنطيين « الضعاف ، والخونة » . وفى القرنين الثامن والتاسع للميلاد كان احتكاك غرب أوروبا بالاسلام محصورا فى ساحة القتال الى حد كبير . ولم يبدأ الغرب فى الاعتماد على التراث الثرى للفكر والثقافة الاسلامية الا فيما بعد ذلك .

محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ( حوالى ٥٧١ - ٦٣٢ م ) :

ظهر الاسلام بشكل غير متوقع فى أوائل القرن السابع الميلادى  
أوروبا فى العصور الوسطى

وتطور بسرعة مدهشة الى حضارة عظيمة ، وامتاسكة ممتدة من الهند الى أسبانيا . وموطن هذا الدين الجديد الذى فرض نفسه بالقوة (\*) فى شبه الجزيرة العربية - فى أراضى المملكة العربية السعودية الحديثة - تلك المنطقة التى كانت مأوى للقبائل البدوية العنيفة لعدد لا حصر له من القرون والتى هاجرت بصفة دورية الى مناطق فلسطين الغنية والمتحضرة ، وإلى سوريا ، وبلاد ما بين النهرين فى الشمال . ويبدو أن كثيرا من الغزاة الساميين فى الشرق الأدنى القديم قد جاءوا فى الأصل من الصحراء العربية - العموريون ، والكلدانيون ، والكنعانيون ، وحتى اليهود - واستوعبت هذه الشعوب حضارة الهلال الخصيب القديمة بسرعة وطورتها فى أشكال مبدعة وجديدة ، بيد أن أقاربهم الذين عاشوا فى شبه الجزيرة العربية ظلوا على بداوتهم وعدم نظامهم .

وحتى ظهور محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ظل العرب متمسكين بطرقهم البدوية ، وبيدانتهم المختلفة التى تؤمن بتعدد الآلهة ، بيد أنه فى ذلك الحين بدأت مؤثرات حضارية جديدة تجعلهم يشعرون بكيانهم . وقام طريق القوافل العريق الممتد شمالا من جنوب شبه الجزيرة العربية بدور حلقة الاتصال المهمة فى شبكة تجارية بعيدة المدى بين الشرق الأقصى والامبراطوريتين البيزنطية والفارسية . وعلى امتداد هذا الطريق ظهرت المدن لخدمة القوافل ، وظهر قدر « يسير من الحضارة مع قيام الحياة فى المدينة : والواقع أن مدينة مكة كانت أهم هذه المدن التجارية ، التى أصبحت مركزا تجاريا ذات نشاط صاحب ان قامت بإرسال قوافلها شمالا وجنوبا ، وازدادت ثراء لما حققه الوسطاء من رجالها من الأرباح . وفى مكة والمدن الأخرى التى مرت بها القوافل كانت الحياة القبلية تفسح المجال للحياة التجارية ، كما بدأت أفكار غريبة جديدة تتحدى الأفكار القديمة ووجهات النظر القديمة : وفى مكة ، حوالى سنة ٥٧١ م ، ولد النبی محمد ( صلى الله عليه وسلم ) .

وعند مولد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، كان قد مر على موت جوستنيان ست سنوات . ومن بين الذين عاصروا محمدا ( صلى الله عليه وسلم )

---

(\*) يختلف المترجم مع المؤلف فى هذا الرأى ، ويرى المترجم أن الاسلام انتشر فى الجزيرة العربية وغيرها بالحكمة والموعظة الحسنة .



وسلم ) . الإمبراطور هرقل ، والبابا جريجوري الكبير ، والأسقف أيزيدور من مدينة سيرفيل . وعندما وصلت بعثة بندقى التبشيرية من روما الى كنت . Kent سنة ٥٩٧ م ، لتبدأ تحويل انجلترا الى المسيحية ، كان محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) فى العشرينات ولم يكن معروفا بعد خارج عالمه المحيط به .

ولد محمد ( صلى الله عليه وسلم ) من فرع فقير للعشيرة التى تتولى الزعامة فى مدينة مكة . ولم يكن لديه خلفية ثقافية تقليدية ، وأصبح أحد تجار القوافل ، وعن طريق رحلاته التجارية تعرف على الديانة اليهودية ، والمسيحية والزرادشتية بشكل وثيق . وكان محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) متقد الفكر ، ورفيق الشعور ، وله شخصية قوية ، وجذابة ، وساحرة ، وتلقى الوحي فى أواخر الثلاثينات . وبدأ يدعو لدينه الجديد عن طريق الاقصاد وارسال الرسائل . ولم يحظ سوى بتأييد قليل من مكة باستثناء زوجته ( خديجة ) و ( بعض ) أقاربه . والقليل من الفقراء الذين آمنوا بدعوته . ويبدو أن الطبقة الاقتصادية الحاكمة والمستغلة Oligarchy

فى مكة كانت مستثناة من تعاليم هذا الناصر الفقير . وربما خافوا من أن يرفض الدين الجديد الايمان بالكعبة التى كانت المعبد الأساسى فى مكة . والتى بها الحجر النيزكى المقدس ( الحجر الأسود ) ، والتى كانت مركزا مريحا ومقيدا للجهنم . وكان اعتقادهم أن دين محمد ( صلى الله عليه وسلم ) سيقضى على أهمية مكة الاقتصادية كمكان للحج ، مبني على التقدير الخاطىء . الناجم عن الجهل ، غير أن عداهم للدين الجديد أجبر محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) على ترك مكة سنة ٦٢٢ م والاقامة فى المدينة ، التى تقع على بعد ٢٨٠ كيلومترا شمال مكة على طريق القوافل .

كان الانتقال الى المدينة والمعروف بين المسلمين بالهجرة ، نقطة تحول مهمة فى انتشار الاسلام - وتحدد بداية لتاريخ التقويم الاسلامى . وأمن سكان المدينة بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأصبح رئيسا سياسيا للمدينة وهاديا دينيا أيضا . واندمجت السلطة الدينية والمدنية تحت قيادة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) . وكان المجتمع الدينى دينا ودولة فى وقت واحد ، ومن هذه الناحية ، فان هذا المجتمع وضع الأساس للحضارة الاسلامية فيما بعد .

أعلن أهل المدينة الحرب على مكة ، وأغاروا على قوافلها التجارية ، وفرضوا الحصار الاقتصادي عليها . وفى سنة ٦٣٠ م انتصرت المدينة على مكة ، ودخلت مكة فى الدين الجديد وفى خلال العامين الباقيين من حياة محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، أمنت كثير من القبائل فى شبه الجزيرة العربية عن طواعية ، بعد أن صار محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) شخصية أسطورية تقريبا . وعند وفاته سنة ٦٣٢ م كان قد وحد العرب لأول مرة فى التاريخ فى نظام سياسى دينى متماسك ، ومنظم جيدا ، ومجهز عسكريا ياتقان ، بفضل الدين الجديد القوي المبني على الايمان بالله الواحد . وانحصرت أنشطة سكان الصحراء العرب الذين اعتادوا العنف فى ذلك الحين فى تحقيق هدف واحد نبيل - ألا وهو هداية العالم .

### الاسلام :

كان الدين هو الرابطة التى وحد بها محمد ( صلى الله عليه وسلم ) شبه الجزيرة العربية . وعرف الدين الجديد باسم الاسلام . وعلم محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بضرورة خضوع كل البشر لمشيئة الله الواحد القهار رب العالمين . وأن حب الله ورحمته تفوق حب ورحمة كل صاحب سلطة وجلالة ، وأن خير الأعمال ليست فى حب الله فحسب ولكن أيضا فى طاعة وأوامره . ولم ينظر محمد ( صلى الله عليه وسلم ) على أنه شخصية مقدسة . وإنما على أنه أحد رسل الله وخاتم الأنبياء ، وأن موسى ، وأنبياء العهد القديم Old Testament ، وعيسى من بين هؤلاء الرسل .

واحترم الاسلام كتابى العهد الجديد والقديم ، وكان متسامحا نسبيا مع اليهود والنصارى - « أهل الكتاب » . غير أن المسلمين لهم كتابهم الخاص بهم « القرآن الكريم » الذى ينسخ ماقبله من الكتب . ويعتقد المسلمون أن القرآن من عند الله . القرآن هو المجموعة الكاملة والشاملة لكتاب محمد ( صلى الله عليه وسلم ) ، وهو الأساس الوطيد للدين الاسلامى « قل لان اجتمعت الاثس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (١) . ويعتقد المسلمون أن القرآن كلام الله ، وأوحاه الى محمد ( صلى الله عليه وسلم ) عن طريق جبريل ومن أصل « أنزلى » فى

السماء • وعلى ذلك فإن الهاماته وطلاوته تشمل معانيه وكل حرف فيه ،  
ويوهيه ٢٢٢ر٢٢٢ آية • وأنه اذا ماتمت ترجمته ، فانها لن تتضمن ماله من  
-حلاوة وطلاوة • ويعتقد المسلمون أن على المسلم تلاوة القرآن باللغة  
العربية • وبانتشار الاسلام انتشرت اللغة العربية وفقا لذلك •

ويبدو أن القرآن أوسع الكتب انتشارا • وبالإضافة الى كونه كتابا  
يبدويا للعبادة فإنه النص الذى تعلم منه المسلمون من غير العرب اللغة  
العربية • والقرآن هو السلطة العليا لا فى الدين فحسب ، وإنما فى القانون ،  
والعلوم ، والمسائل الانسانية • ولذلك أصبح الأساس القياسى العام فى  
المدارس الاسلامية لأى مادة علمية يمكن تصورها •

وتتضح عبقرية محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بوضوح فى قدرته  
على تكييف لغة قديمة مثل اللغة العربية فى القرن السابع الميلادى فى تقديم  
المفاهيم الدينية الممتعة عقليا ، وكذلك القانونية ، والأخلاقية التى يجدها  
المرء فى كتابه الدينى •

ووعده محمد ( صلى الله عليه وسلم ) من آمنوا به بجنة النعيم اذا  
«عاشوا حياة مستقيمة ، وامتزنة ، واتبعوا مبادئ الاسلام • وقبل كل  
«شئ ، على المسلم أن يشهد بأن ( لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله )  
وعلى المسلم الحق أن يؤدى الصلاة ويصوم ( رمضان ) ، ويحج البيت  
بمكة مرة واحدة على الأقل ، وأن يعمل على خير المسلمين والدعوة  
«الاسلامية • والجهاد فى الاسلام دور له مكانته العليا لأن العمل من أجل  
«رفعة شأن العقيدة مماثل لاعلاء شأن الدولة تماما بتمام : وللقانون العام  
«فى الأراضى الاسلامية وازع دينى ، كما ظل اندماج الدين والسياسة الذى  
«وضعه محمد ( صلى الله عليه وسلم ) بالمدينة احدى الخصائص الأساسية  
«فى المجتمع الاسلامى • ولا يوجد كهانة فى الاسلام ، أو سلطة «اكليركية »  
«معزل عن الدولة ، وكان خلفاء محمد ( صلى الله عليه وسلم ) السياسيين ،  
«هم حماة الاسلام ، والذين لهم حق الولاية على المؤمنين • على أن التوتر  
الذى نشأ بين الكنيسة والدولة ، والذى اثبت أنه الحافز لأوروبا فى العصور  
«الوسطى لم يكن معروفا فى العالم الاسلامى •

### الفتوحات الإسلامية الأولى ( ٦٣٢ - ٦٥٥ م ) :

بعد موت محمد ( صلى الله عليه وسلم ) مباشرة تفجر النشاط العربي أخيرا بفضل تعاليم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) ، واتجهوا الى فتح العالم . على أن الفتوحات التي أثارت الدهشة والاعجاب كانت نتيجة لقوة نشاط الاسلام من ناحية ، ولضعف وانهك أعداء الاسلام من ناحية ثانية . فكان الامبراطور هرقل قد انتهى من هزيمة الفرس ، وكانت بيزنطة والفرس في حالة انهك وضعف نتيجة لصراعهم الطويل والمضنى . كما ظل المونوفيزيون في سوريا ومصر على عدااء شديد مع سادتهم البيزنطيين . الأرثوذكس .

ودخل العرب هذه الأراضى المجردة ، والتي عانت من الشعور بالمرارة ، وهم في حالة من الحماس الدينى المتقد ، بالاضافة الى وقوعهم تحت دافع اغراء الثروة والتعظيم للعالم المتحضر . ولم يكن لدى العرب خطة مدروسة للفتح - اذ ان معظم حملاتهم بدأت كغزوات بهدف السلب والنهب - غير أن الانتصارات غير المتوقعة كانت نتيجة لقوة الدفع المتجمعة بشكل دائم . وعندما وصلوا الى سوريا البيزنطية ، أبادوا جيشا بيزنطيا ضخما سنة ٦٣٦ م ، وفتحوا دمشق ، وبيت المقدس ، ويطول سنة ٦٤٠ م ، كانوا قد فتحوا كل الأراضى ، وانتزعوها بصفة نهائية من قبضة السيطرة البيزنطية . وفى سنة ٦٣٧ م أنزلوا هزيمة ساحقة بالجيش الفارسى ، ودخلوا طيسفون Ctesiphon عاصمة الفرس ، وهم في نهضة شديدة لما شاهدوه من مظاهر الثروة والغنى . وفى خلال عقد استطاع العرب اخضاع كل بلاد الفرس ، ووصلوا الى حدود الهند . وفى السنوات التالية توغلوا بعمق فى داخل شبه القارة الهندية ووضعوا أسس دولة باكستان الإسلامية الحديثة . واعتنق سكان الامبراطورية الفارسية الاسلام رويدا رويدا . كما تعلموا اللغة العربية . وقدر لهم فى سنوات تالية أن يلعبوا دورا رئيسيا فى السياسة والثقافة الإسلامية .

وفى الوقت نفسه اندفع المسلمون باصرار تجاه الغرب الى مصر . واستولوا على الاسكندرية سنة ٦٤٠ م وبهذا ضموا اليهم المدينة العظيمة التى ظلت مركزا للثقافة اليونانية منذ العصر الهلنى . وبوقوع كل من مصر وسوريا فى أيدي العرب ، استطاعوا أن يصلوا الى البحر ، ويتحدوا

السيطرة البيزنطية التي أقامها البيزنطيون منذ أمد بعيد في شرق البحر المتوسط . فاستولوا على جزيرة قبرص ، وغزوا جزيرة رودس ، وفي سنة ٦٥٥ م حققوا نصرا ساحقا على الأسطول البيزنطي .

### الحرب الأهلية ( ٦٥٥ - ٦٦١ ) :

توقف الفتح الاسلامي من حين لآخر في سنة ٦٥٥ م بسبب انشغال الامبراطورية الجديدة في صراع شرس بين أفراد السلطة الحاكمة . اذ صار تعاقب الخلافة مجالا لمحاولات الأمويين للمحافظة عليه ، وهم كانوا احدى الأسر الرئيسية ، من بين القلة الاقتصادية التي كانت تسيطر على مكة قبل الاسلام . وكان هذا الصراع بينهم وبين علي ( كرم الله وجهه ) صهر محمد ( صلى الله عليه وسلم ) . وتزعم علي ( كرم الله وجهه ) فريقا قدر له أن يصير قويا في القرون التالية الى أبعد حد . وأصر أتباع علي ( كرم الله وجهه ) على أن يكون الخليفة من نسل النبي ( صلى الله عليه وسلم ) . وكما حدث فان محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) لم يعيش له بنين ، وتزوجت ابنته فاطمة ، من علي ( كرم الله وجهه ) ابن عم النبي ( صلى الله عليه وسلم ) .

وفي سنة ٦٦١ م هزمت قوات الأمويين قوات علي ( كرم الله وجهه ) في احدى المعارك وبدأ عهد الخلفاء الأمويين الذين استولوا على السلطة لمدة قرن من الزمان تقريبا . بيد أن الفريق المناصر للسلطة الشرعية الذي كان يؤيد عليا ( كرم الله وجهه ) فيما مضى استمر يقاوم في عناد وأصرار كأقلية نذرت نفسها لاثارة المتاعب ، باذلة غاية جهدها لتأييد العديد من ذرية علي ( كرم الله وجهه ) وفاطمة ، تلك الذرية التي يصعب حصرها . وبمرور الوقت تطورت الحركة السياسية الى مذهب ديني عرف بالتشيع ، الذي يؤمن بأن الخلفاء يصدق هم - الذين كانوا من نسل محمد ( صلى الله عليه وسلم ) من ذرية علي وفاطمة - الذين كانوا بعيدين كل البعد عن الرذائل ، ومعصومين ، ويعرفون معلومات سرية لم ترد في القرآن . وتحول التشيع الى حركة سرية تكتنفها الأسرار وتعمل في الخفاء ، وتظهر على السطح من حين لآخر في شكل تمرد شعبي مسلح . وفي القرن العاشر الميلادي نجح التشيع في السيطرة على مصر واقامة دولة الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وتفرع عنها جماعة الحشاشين ، وهم من المسلمين الذين اشتهروا

يسوء السمعة والاستعداد للقيام بعمليات القتل ، وما زالت بقاياهم الموجودة حتى يومنا هذا وهى الفرقة الاسماعيلية تحت قيادة أغاخان .

#### الأسرة الأموية ( ٦٦١ - ٧٥٠ ) :

توقف الفتح الاسلامى بشكل مؤقت بانتصار الأمويين على على (كرم الله وجهه ) . وانتقلت عاصمة الامبراطورية الاسلامية النامية التى كانت فى المدينة قبل الحرب الأهلية فى ذلك الحين الى دمشق فى سوريا . غير أن الطبقة الارستقراطية العربية القديمة ظلت تمارس سيطرتها القسوية على الدولة الاسلامية . وفى ذلك الحين كانت القسطنطينية هدفا عسكريا رئيسيا ، بيد أن المدينة العظيمة على بوغاز الدردنيل تصدت لسلسلة من الهجمات الاسلامية الشرسة فيما بين ٦٧٠ م و ٦٨٠ م .

وساعد على تدعيم الدفاع البيزنطى سلاح سرى ، غير عادى ، وهو المعروف باسم « النار الاغريقية » وهو سائل يشتعل عند تعرضه للهواء ولا تنطفئ بالماء ، ولكن يمكن أن يتم الاطفاء باستخدام الخل أو الرمال . وفى سنتى ٧١٧ - ٧١٨ م هاجم أسطول وجيش عربى القسطنطينية دون جدوى ، وبعد أن استنفد المسلمون كل طاقاتهم ومواردهم دون نجاح أوقفوا محاولاتهم لاحتلال المدينة . وعاشت بيزنطة لمدة بضعة قرون أخرى ، ومنع المسلمون من جنوب شرق أوروبا لباقي العصور الوسطى .

ومع ذلك ، فى الوقت نفسه كانت الجيوش الاسلامية تحقق انتصارات مثيرة للاعجاب والدهشة . ومن مصر تحركت الجيوش الاسلامية تجاه الغرب على امتداد الساحل الافريقى الى مملكة الوندال القديمة ، والتى كانت فى ذلك الحين تحت حكم بيزنطة البعيدة . وفى سنة ٦٩٨ م استولى المسلمون على قرطاجة . وفى سنة ٧١١ م عبروا مضيق جبل طارق الى اسبانيا ، وقضوا على مملكة القوط الغربيين المتداعية على جناح السرعة .

مطاردين المسيحية الى معاقل جبال البرانس Pyrenees Mountains

ثم اتجه المسلمون الى جنوب بلاد الغال Gaul ، وهددوا مملكة الفرنجة الميروفنجيين Merovingian Franks . وفى سنة ٧٣٣ م أى بعد موت النبى ( صلى الله عليه وسلم ) أجبر شارل مارتل ( المطرقة ) Charles Martel ذلك الفرنجى الارستقراطى المتقد الذكاء ، المسلمين

على توقف فتوحاتهم أخيرا عند تور Tours ، بفضل قيادته لجيش مسيحي شديد الاصرار . ان المسيحيين فى تور لم يكونوا من النوع الذى يمكن أن يتصوره المرء عندما أنشدوا ، «الى الأمام أيها الجنود المسيحيون » . انهم كانوا فرجة أشباه البرابرة يرتدون جلود الذئب ، تاركين شعورهم الطويلة ذات الضفائر تتدلى خلف ظهورهم . غير أنهم نجحوا فى إيقاف القوة الدافعة للتوسع الاسلامى فى غرب أوروبا ، تماما كما نجح البيزنطيون فى إيقافها فى الشرق .

### العباسيون ( ٧٥٠ - ١٢٥٨ م ) :

فى سنة ٧٥٠ م ، بعد سبعة عشر عاما من تاريخ موقعة تور ، أطاحت أسرة جديدة بالدولة الأموية والأمرأة الجديدة عربية الأصل بيد أنه من برنامجها السياسى السماح بمشاركة أكبر للشعوب ذات الحضارة العالية . وهى الشعوب التى دخلت الاسلام فى أعداد كبيرة . وعلى رأسهم الأرستقراطية الفارسية التى أسلمت ، وهم الذين يمثلون الحكم العباسى ، ولذلك بعد أن انتصر العباسيون بوقت قصير انتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد على نهر دجلة ، فى عمق أراضى الامبراطورية الفارسية القديمة . والتى كانت تبعد عن آثار مدينة بابل القديمة بعدة أمطار .

وصارت بغداد فى عهد العباسيين الباكر من أعظم مدن العالم . اذ صارت مركزا لشبكة تجارية كبيرة تمتد عبر العالم الاسلامى . وما بعده . وتدفق الحرير ، والتوابل والأخشاب المعطرة من الهند ، والصين ، وجزر الهند الشرقية ، والغبراء والعبيد من شبه جزيرة سكندرية . Scandinavia والذهب ، والرقيق ، والعاج من أفريقيا الاستوائية . وكانت بغداد رابطة لسلسلة من النظام المصرفى الواسع المدى الذى له فروع فى المدن الأخرى من العالم الاسلامى . اذ صار فى الامكان تحرير شيك فى بغداد وصرفه فى المغرب Morocco ، التى تبعد أربعة الاف ميل بالغرب . وكان قصر الخلافة العباسية يشغل ثلث بغداد بالكامل ، ويحتوى على عدد لا حصر له من غرف النوم والحجرات العامة ، ومساكن الخدم الذين كانوا من الخصيان ، ومساكن الزوجات والسرارى ، والخادومات ، ومبائى موظفى الدولة وقاعة رائعة للاستقبال عرفت باسم « قاعة الشجرة » . التى كان بها شجرة صناعية من الذهب والفضة ، وعلى فروعها تشقشق

وتغره الطيور. الآلية : ووصلت ثروة بغداد وثقافتها الى القمة فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد ( ٧٨٦ - ٨٠٩ م ) الذى صارت ثروته وقوته مسألة أسطورية . واعتاد الزام الامبراطورية البيزنطية على أن تدفع له اناوة منتظمة . وفى احدى المناسبات انقطعت هذه الاتاوة ، لذلك أرسل الرسالة المتعجرفة التالية الى امبراطور القسطنطينية :

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون أمير المؤمنين ، الى نيقفورس Nicephorus  
كلب الروم . قرأت خطابك ، يا ابن الكافرة . وجوابى لن تسمعه بآذنيك ،  
وانما ستراه بعينيك والسلام .

وتلت تلك الرسالة حملة عسكرية ناجحة أجبرت البيزنطيين على معاودة دفع الاتاوة للعرب .

كان عهد هارون الرشيد ، عصر نشاط فكرى جدير بالذكر ، اذ تم فيه استيعاب وامتزاج التراث الثقافى فى بلاد اليونان ، وروما ، وبلاد الفرس والهند . وشيد ابن هارون وخليفته معهدا فكريا عظيما فى بغداد - بيت الحكمة - الذى صار على الفور مكتبة . وجامعة ، ومركزا ثقافيا . ومن ثم فلقد دفع العباسيون الحضارة الى مستوى أبعد بكثير عما وصلت اليه فى عهد أسلافهم الأمويين . ونشأت الثقافة الاسلامية فى عصر تميز بالسرعة الملحوظة . وفى الوقت الذى كان فيه شارلمان ، يناضل بكل جهد مضنى من أجل نشر الحضارة بين الفرنجة Franks أشباه المتبربرين ، كان هارون يتربع على عرش بغداد التى كانت تتألق بهاءا .

ويشير قيام الدولة العباسية الى انتهاء استقلال الاستقرائية للسلطة السياسية . وفى ذلك الحين كانت الحكومة تحت رحمة خليط من الأجناس والشعوب ، الذين كانوا من أصول متواضعة فى أغلب الأحوال . وعلق على ذلك أحد الارستقراطيين الساخطين بقوله : « اللهم اهدنى الى بلد ، لا أرى فيها أبناء سفاح » . ونقلت الحكومة العباسية عن الطرائق الادارية البيزنطية والفارسية الى حد كبير . وادار شئون الدولة من العاصمة نى بغداد جهاز بيروقراطى معقد ومركب ، الذى ظل على اتصال وثيق بالأقاليم



من خلال حشد كبير من جامعي الضرائب ، والقضساء ، والسعاة ، والجواسيس . ووصلت الحكومة العباسية الى التمييز من الناحية الثقافية ، بالرغم من أنها لم تكن أكثر حساسية تجاه تحقيق الحاجات الملحة للعدالة الاجتماعية عن الحكومات الأخرى والمعاصرة لها . وأخذ الحكم العباسي على عاتقه تنفيذ الرى الانتشارى ، وتجفيف المستنقعات تدريجيا ، وبذلك زادت مساحات الأراضى القابلة للزراعة . بيد أن حالة المزارع ، والفاعل الكادح ظلت منخفضة ، نتيجة لمنافسة الأعداد الوفيرة من العبيد . وكان لتألق الثقافة العباسية أثرا طفيفا على الجماهير الكادحة ، الذين بالإضافة لدينهم الاسلامى القائم على التمسك الشديد بتعاليمه ، ظلوا يمارسون نفس أساليب الحياة التى قد عرفوها منذ ألفى سنة مضت .

إن الثورة العباسية التى قامت سنة ٧٥٠ م تبعتها سلسلة طويلة من الانحلال السياسى ، وذلك لتخلص اقليم بعد الآخر من سيطرة الخليفة فى بغداد . فحتى أيام هارون الرشيد التى تميزت بالقوة والازدهار كانت الأقاليم الغربية البعيدة - أسبانيا ، والمغرب ، وتونس - تحت حكم أسر محلية مستقلة . وفى أواخر القرن التاسع اكتسب الاتجاه نحو الانحلال السياسى قوة دفع لأن مصر ، وسوريا وشرق بلاد الفرس ( إيران ) تخلصوا جميعا من السيطرة العباسية . وفى ذلك الحين ، كان العباسيون يفقدون سيطرتهم على حكوماتهم نفسها فى بغداد شيئا فشيئا . واغتصب قادة الجيش الطموحون السلطة رويدا رويدا ، وفرضوا سيطرتهم على جهاز الضرائب ، وأجهزة الحكومة الأخرى . وظلت الدولة العباسية قائمة حتى سنة ١٢٥٨ م الى أن تعرضت بغداد للمخرب والدمار على يد المغول ، بيد أن الخلفاء أصبحوا رهائن فى أيدي القائد العام للجيش وحرس القصر منذ سنة ٩٥٠ م .

### الثقافة الإسلامية :

وطوال هذه الفترة التاريخية للانحلال السياسى ظل العالم الاسلامى متحدا بفضل وحدة اللغة ، والثقافة ، والعقيدة . واستمر العالم الاسلامى يناضل بقوة ضد بيزنطة وغالبا ماحقق نجاحا فى السيطرة على البحر المتوسط ، ونجحوا لفترة من الوقت فى احتلال الجزر الرئيسية مثل كريت ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا .

والواقع انه فى ذلك الحين كان كل سكان سوريا ، مصر ، وشمال افريقيا قد اعتنقوا الاسلام . برغم أن هذه الأقطار قد قامت ذات مرة بدعم الكنائس المسيحية المتحمسة والمنظمة الجيدة . وفى العادة لم يضطهد المسلمون المسيحيين ، وإنما فرضوا عليهم الضرائب . والواقع أن عبء الضرائب الذى استمر فترة طويلة كان وسيلة أكثر فاعلية فى التحول الى الاسلام عما كان يمكن أن تؤديه الاضطهادات القاسية .

وظلت النهضة الفكرية الرائعة فى عصر هارون الرشيد قائمة بكل قوتها . وأصبح العربى الذى عاش فى الصحراء ولم تتح له فرصة تلقى المعرفة من قبل وريثا لثقافة بلاد اليونان ، وروما ، وبلاد الفرس ، والهند . وفى مدى أقل من قرنين على موت النبى ( صلى الله عليه وسلم ) ، كانت الثقافة الاسلامية ، قد وصلت الى مستوى الحضارة الناضجة وذات المستوى الرفيع .

وكان الظهور القوى للحضارة الاسلامية نتيجة لنجاح العرب فى استيعاب التراث الحضارى للشعوب الخاضعة للسيادة الاسلامية وتوظيفهم لهذا التراث فى امتزاج ثقافى جديد وفريد على حد سواء . وإذا كان الاسلام قد اقتبس ، الا أن هذا الاقتباس لم يكن دون استيعاب على الاطلاق . وما نقله الاسلام عن الحضارات السابقة قام بتحويله الى الحد الذى صار منسوباً اليه .

وصاحب الانحلال السياسى فى القرنين التاسع والعاشر انتشار النشاط الثقافى فى كل أنحاء العالم الاسلامى . وعلى سبيل المثال ، فإن قرطبة ، خلال القرن العاشر الميلادى ، والتي كانت عاصمة لأسبانيا الاسلامية حققت ثروة هائلة ، وصارت مركزاً لازدهارها الثقافى الرائع . وكاث قرطبة . بغداد أخرى ، بعد أن صار عدد سكانها نصف مليون أو أكثر . ولا يمكن أن تضاهيها أى مدينة أخرى فى غرب أوروبا حتى عن بعد بالنسبة لعدد سكانها ، وجمالها ، أو نظام إدارة شئونها المحلية كما أن مساجدها الكبيرة ، وقصورها أو قنوات المياه بها ، والحمامات ، وأسواقها ومحلاتها التجارية التى تعج بالنشاط ، وفوق كل هذا ، روعتها ، وقصورها المنتشرة التى بها أجر ملون له أضواء لامعة ، والمدينة محاطة بالمآذن الجميلة ، ونافورات المياه كل هذا جعل قرطبة أعجوبة العصر .

وعبر كل العالم الاسلامى ، من قرطبة الى بغداد ، والى أقصى الشرق .  
كان العلماء والفنانون المسلمون يطورون التراث الثمر للحضارات السابقة .  
وقام المهندسون المعماريون بتحويل الأنماط اليونانية - الرومانية الى أشكال  
جديدة ومميزة ورائعة . وقام الفلاسفة بدراسة وتوضيح كتابات أفلاطون .  
وأرسطو برغم عداء رجال الدين المتزمتين . وقام الأطباء بتبسيط مذهب  
جالينوس الطبية القديمة وأسلافه الاغريق ، وقاموا بوصف وتحديد الأدوية .  
الشفافية الجديدة . وقام علماء الفلك بتحسين نظام بطليموس التعمق بمركز  
الأرض ، وأعدوا جداول دقيقة لحركات الكواكب السيارة ، وأطلقوا أسماء  
عربية على النجوم ، مثل النسر الطائر Altair ، وذنوب الدجاجة Deneb  
والثور Aldebaran ، وهى التى تستعمل حتى يومنا هذا .  
وابتكر عمر الخيام الشاعر وعالم الفلك الفارسى المشهور تقريبا فريدا فى  
وقته . واقتبس علماء الرياضيات المسلمون من بلاد اليونان والهند على  
حد سواء بأسلوب متمسم بالابداع . ومن الاغريق تعلم العرب علم الهندسة  
وحساب المثلثات ، ونقلوا عن الهندوس مايعرف حاليا بالأرقام العربية ،  
والصفر ، وعلم الجبر ، الذى انتقل فى نهاية الأمر الى الغرب ليحدث  
تغييرا أساسيا فى علم الرياضيات .

غير أن المثقفين والعلماء المسلمين ، بالرغم من استيعابهم التام  
للتقافات القديمة ، وملاحظاتهم الدقيقة للعالم الذى حولهم ، فانهم كانوا  
بصفة عامة غير موفقين ليحلوا محل أسلافهم فى أى مجال أساسى . لقد  
قاموا بالاختصار ، والتفسير والايضاح وأعادوا صياغة المعلومات . بيد  
أنهم قدموا الدليل والبرهان على القليل من الآراء العلمية الأساسية . إذ لم  
يقدموا أى أنظمة جديدة للفكر العقلانى ليحل محل أفكار أرسطو وأفلاطون ،  
وجالينوس - وإذا كانوا قد عرفوا أنهم فاقوا بطليموس الا أنهم لم يصلوا  
الى مستوى كوبر نيكوس Copernicus .

ويشكل نفس هذا القصور فى التفكير بطريقة خلاقة فى العبارات  
المتناسكة الكبيرة سمة مميزة للأدب الاسلامى . وأما النثر الغربى فهو  
عبارة عن شذرات ، وعرضى ، إذ تأخذ النادرة الفردية حق الأسبقية على  
القصة الطويلة . وحاول الشعراء المسلمون كتابة القصائد القائمة بذاتها  
على أن يؤلفوا قصائد طويلة ، ومترابطة منطقيا . والواقع أن رباعيات  
الخيام يبدو أنه تم نظمها وفقا للترتيب الأبجدى .

ومع ذلك لا يمكن انكار المآثر الضخمة للإسلام . لقد فتح العرب بلادهم الشاسعة بجيوشهم ، وعقيدتهم وبلغتهم . وفى النهاية ، فإن تعبير «عربى» انطبق على كل مسلم من أسبانيا الى الهند ، بصرف النظر عن جذوره العرقية . وفى نطاق الاطار اللغوى والدينى الذى طوقها تماما قدمت الثقافة العربية حافزا جديدا ، واتجاها نحو شعوب الامبراطوريات السابقة أصحاب الحضارات العريقة . فالتراث الاسلامى الثرى كان قادرا فى يوم ما على أن يقدم غذاء نفيسا للنهضة الغربية المتجددة .

### الجدول الكرونولوجى الاسلامى

- محمد ( صلى الله عليه وسلم ) : حوالى ( ٥٧١ - ٦٣٢ م )
- الهجرة : ٦٢٢ م
- الفتوحات الأولى : ٦٢٢ - ٦٥٥ م
- الحرب الأهلية : الأمويون ضد على : ٦٥٥ - ٦٦١ م
- العهد الأموى : الفتوحات الجديدة : ٦٦١ - ٧٥٠ م
- حصار العرب للقسطنطينية : ٧١٧ - ٧١٨ م
- هزيمة العرب عند تسور : ٧٣٣ م
- العهد العباسى : ٧٥٠ - ١٢٤٨ م
- هارون الرشيد : ذروة السلطة السياسية : ٧٨٦ - ٨٠٩ م

## ٨ - أوروبا الكارولنجية :

### أوروبا الجديدة :

لقد لاحظنا من قبل التناقض المدهش بين بغداد فى عهد هارون الرشيد وبلاد الفرنجة فى عهد شارلمان ، انه تناقض بين حضارة تجارية ، غنية ، ومثيرة للعجاب وبين شعب زراعى شبه متبربر يناضل من أجل ترابط سياسى وفكرى . بيد أن غرب أوروبا فى القرن الثامن ، برغم بعده الشديد عن المستوى الحضارى لروما القديمة أو بغداد المعاصرة ، فانه كان يتحمل الكثير من أجل رفع شأن المكانة المهمة من أجل مستقبل أفضل . ولأول مرة كانت أوروبا الغربية قد بدأت توضح للقليل من الأوربيين أنهم شعب قائم بذاته ، مشترك فى حضارة مميزة وجديدة ، بجذورها فى أثينا ، وأورشليم ، وروما ، وألمانيا ، مترابطة معا - أكثر مما هو عليه حال المسلمين - وذلك بوجود عقيدة مشتركة ، ولغة مشتركة رفيعة المستوى ، وتراث مشترك . وظهرت أوروبا الجديدة من الناحية الروحية بفضل البندكتيين المنتشرين فى كل مكان ، واتحدت سياسيا بفضل أسرة ملوك الفرنجة الكارولنجيين الذين اشتق اسمهم من شارل الكبير ، أو شارلمان الشهير .

وتختلف الامبراطورية الكارولنجية اختلافا بينا عن الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة . إذ كانت الامبراطورية الكارولنجية أرضا دون وجود مدن كبيرة ، وزراعية بالكامل فى اطار نظام اقتصادى مع تركز ثقافتها فى الدير والكنيسة الكبرى فى الأبرشية Cathedral أكثر من السوق أو الساحة العامة بالمدينة الرومانية Forum . وبالرغم من أن شارلمان مد سلطته الى ايطاليا ، فان عاصمته وقلبه ظلّا فى شمال بلاد الفرنجة . وخلاصة القول فان أوروبا الجديدة لم تعد تواجه البحر المتوسط ، إذ كان محورها قد انتقل شمالا .

### تكنولوجيا الزراعة :

ان ملامح البهجة النسبية لعصر شارلمان كانت نتاجا للعمليات الخلافة التى كانت ذات أثر فعال خلال القرون المظلمة السابقة . ومن وجهة النظر الاقتصادية فان أكثر تلك العمليات أهمية واثارة للانتباه هى تطور طريقة

الزراعة الجديدة التى عملت على زيادة انتاجية او غلات الاراضى الصالحة للزراعة فى شمال أوروبا فوق المستوى للامبراطورية الرومانية القديمة .

وعند بداية القرن الثامن الميلادى بطل استخدام محراث الحفر العميق الذى استخدم فى الأزمنة الرومانية ، وذلك فى كل مكان بالمناطق الشمالية من الغرب المتبربر واستبدل بمحراث ثقيل له عجلات ، وحديدة المحراث القاطعة ، وشفرة المحراث والدجر ( حديدة عقفاء فى المحراث ترفع التربة وتقلبها ) التى كانت تخترق التربة بعمق وتسحقها وتطرحها جانبا ، وبذلك تحدث الضلوع ( الضلع هو شقة مرتفعة متطاولة فى أرض محروثة ) ، والأخاديد . وكان تطور هذا المحراث الثقيل معقدا ومتدرجا . وربما دخلت الفكرة الأساسية غرب أوروبا على يد السلاف Slaves فى القرن السادس أو السابع . ان ادخاله فى الغرب فتح المجال لوجود مناطق شاسعة من التربة الواقعة والخصبة التى لم يكن المحراث القديم قادرا على احدث اثر فيها ، كما عزز الاتجاه نحو تقسيم الحقول الى مساحات طويلة من الأرض يحراثها فريق يتكون من ثمانية ثيران وفقا لحاجة المحراث الثقيل . وفى ذلك الحين شارك الفلاحون بعضهم بعضا فى استخدام ثيرانهم ، وفى أعمالهم لكى يستخدموا المحراث الجديد ، وبهذا العمل وضعوا الأساس للمجتمعات الزراعية التعاونية فى أوروبا العصور الوسطى بمجالس القرية القسوية لتنظيم توزيع العمل والثروة .

وان الزيادة السريعة فى الانتاج الناتجة عن ادخال المحراث المركب الثقيل جعل من الممكن احدث تغير جوهري فى طريقة زراعة المحاصيل . وفى العصر الكارولنجى كان معظم شمال أوروبا ، قد بدأ يأخذ بنظام الدورات الزراعية الثلاث بدلا من نظام الدورتين الزراعتين التقليديتين فى الأزمنة الرومانية . وفيما مضى كانت الزراعة التقليدية تنقسم الى حقليْن ، أحدهما يزرع كل عام والآخر يترك محروثا العام الثانية من غير زرع رغبة فى اراحته . بيد انه وجد التربة الزراعية الخصبة الشمالية التى دخلها المحراث الضخم ليست فى حاجة الى سنة كاملة للراحة بين المحاصيل . وبدلا من ذلك فان هذه الاراضى كانت فى الغالب مقسمة الى ثلاثة حقول ، كل منها يخضع لثلاث دورات كل عام ؛ زراعة الخريف ، وزراعة الربيع ، والفترة الثالثة تترك الأرض من غير زرع رغبة فى اراحته . وان عملية

التحول من نظام الحقلين الى الحقول الثلاثة كان لها اثر مهم فى الاقتصاد الأوربى ، لأنها عملت على زيادة انتاج المواد الغذائية بشكل مثير للانتباه ، وجلبت قدرا من الازدهار الاقتصادى لشمال أوربا . ومن المرجح أن المحراث الثقيل ، ونظام الحقول الثلاثة لم يكن من الممكن استخدامها بفعالية فى تربة جنوب البحر المتوسط السهلة التفتت والجافة ، لذلك ساعد ذلك على الاتجاه شمالا فى التكوين الاقتصادى والثقافى لأوربا الكارولنجية .

واستفاد عصر شارلمان من الاتجاه نحو الميكنة اذ ان الطاحونة المائية ، التى كانت تستعمل بين الفينة والفينة فى العصور القديمة لطحن الغلال ، صارت تستعمل على نطاق واسع فى ذلك الحين ، وكانت مظهرا تقليديا للمزرعة الكارولنجية . وخلال القرون التى تلت موت شارلمان دخلت الطاحونة المائية استعمالا جديدة - لتزويد صناعة النسيج الناهضة بالطاقة المحركة ابان القرن الحادى عشر ولدفع رؤوس مطارق الحدادين . ومن ثم استمر التقدم التكنولوجى الميروفنجى ، الكارولنجى فى القرون التى تلت . وبحلول سنة ألف ميلادية ، انتشر وضع حدوة للفارس بشكل تدريجى ، وكذلك طوق بعنقه بشكل فعال ، وكلاهما وقدا من سيبيريا Siberia وأواسط آسيا مما جعل من الممكن تماما ابدال الثور بالحصان الأكثر نشاطا بشكل تدريجى ، حتى صار الحصان ، حيوان الجر الثقيل فى المزارع بشمال غرب أوربا . وفى القرن الثانى عشر ظهرت الطاحونة الهوائية للمرة الأولى فى الريف . وأدت هذه المظاهر الجديدة للتقدم الى انتاجية أكبر وثابتة ، وتشكل أساس الحضارة المزدهرة والوافرة لشمال أوربا فى العصور الوسطى العالية ( حوالى ١٠٢٥ - ١٣٠٠ م ) . وبدأت القواعد الاقتصادية الرئيسية المبينة على طاقة العبيد تضمحل رويدا رويدا حيث أن القوى البشرية أفسحت المجال للحيوان والقوى المحركة أكثر فأكثر .

واستفادت أوربا الكارولنجية كثيرا من المرحلة الباكرا لهذه الثورة التى استمرت طويلا فى التكنولوجيا الزراعية ، بيد أن المزارعين فى العصر الكارولنجى ظلوا على مقربة من مستوى الكفاف . اذ ان وجود سنة واحدة قاسية كان كافيا لتحطيمهم . وابلان مجاعة سنة ٧٩١ م الشديدة ، على سبيل المثال ، أكل الفلاحون لحم البشر بل قيل أنهم أكلوا لحم بعض افراد أسرهم . وكانت الأحوال تتحسن لكن ببطء شديد .

أوربا فى العصور الوسطى

### النهضة السياسية الفرنجية :

تدهورت سلالة كلوفس الحاكمة ، من الميروفنجيين عبر القرون ، بعد أن تحولوا من حكام مستبدين متعطشين الى الدماء ، الى مجرد مهرجين بالبلاط يضعون التيجان على رؤوسهم . وبحلول سنة ستمائة للميلاد ، انتقلت السلطة الحقيقية الى الطبقة الأرستقراطية . وفى ذلك الحين وكنديجة للسياسة الميروفنجية الخاصة بتقسيم السلطة الملكية وأراضى التاج بين أبناء الملك المتوفى ، تجزأت الأراضى الفرنجية الى مناطق متميزة عديدة ، كانت نيوسـتريا Neustria ( باريس وشمال غرب فرنسا أكثرها أهمية ، وأوسـرازا Austrasia ( الشمال الشرقى الذى يكتسب الخصائص الألمانية الى حد كبير ، وتشمل أراضى الراين Rhineland وبورجندى Burgundy فى الشمال الشرقى ) .

وخلال القرن السابع الميلادى استولت أسرة أرستقراطية قوية على السلطة فى أوسـترازا ، عرفت فيما بعد بالكارولنجيين وأصبح الكارولنجيون « رؤساء بلديات القصر » ونعنى بذلك أنهم سيطروا على الوظائف الاد رية فى البيت الملكى الميروفنجى وجعلوا هذا الأمر وراثيا . ولما بدأ الميروفنجيون فى الضعف وعدم المقدرة أصبح الكارولنجيون وسادة أوسـترازا الحقيقيين . وعمل رئيس القصر الكارولنجى على زيادة سلطته عن طريق جمع عدد كبير من المحاربين المدربين حوله وفقا للتقليد الجرمانى القديم المعروف باسم كوميتاتوس Comitatus . وأصبح هؤلاء الرجال أتباعا له Vassals ونعنى بذلك أنهم وضعوا أنفسهم تحت حمايته ورعايته ، وأقسموا يمين الولاء له . وكان لأفراد الطبقة الأرستقراطية الآخرين أتباعهم الخاصين بهم وا مسلحين ، بيد أن الكارولنجيين سيطروا على الموقف بالكثرة الكبيرة لعدد أتباعهم . وفى سنة ٦٨٧ م قاد رئيس القصر الكارولنجى جيشا أوسـترازا فى موقعة حاسمة ضد النيوسـتريين . ومنذ ذلك الحين فصاعدا صار الكارولنجيون الأسرة المسيطرة فى كل بلاد الفرنجة . وبوجود نيوسـتريا تحت سيطرتهم ، مالت بورجندى الى الاتفاق معهم . وعندما اندفع المسلمون فى بلاد الغال فى أوائل سنة ٧٣٠ م ، واجهوا شعبا فرنجيا متحدا تحت قيادة رئيس القصر الكارولنجى القسوى والمقتدر ، شارل مارتيل Charles Martel - « المطرقة » ( ٧١٤ - ٧٤١ م ) .



ولم يقم هذا المحارب المتحجر القلب والذكي برد المسلمين على أعقابهم فى موقعة تور Tours ( ٧٣٣ م ) فحسب وانما حقق النصر تلو النصر على المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، مدعما بذلك سلطته على الفرنجة وموسعا حدود دولة الفرنجة . وعلى شاكلة أسرة آدم Adams فى التاريخ الأمريكى ، كان للكارولنجيين فى القرنين السابع والثامن الحظ السعيد فى تقديم ممثلين مقتدرين الى حد بعيد لعدة أجيال . وكان والد مارتيل قد نجح فى هزيمة نيوستريا ، أما مارتيل نفسه ، فقد هزم المسلمين . والواقع أنه هزم كل من دخل معه فى معركة وحصل ابنه بيبين القصير Pepin the Short على تاج الفرنجة وحظى حفيده شارلمان برياسة الامبراطورية .

ومن المدهش أن الكارولنجيين اتبعوا نفس سياسة تقسيم الارث بين الورثة الذكور ، وهى التى أضعفت الميروفنجيين كثيرا . وهنا أيضا ، لعب الحظ الكارولنجى دورا حاسما فى التاريخ ، لأنه حدث أن رؤساء البلديات الكارولنجيين - وفيما بعد الملوك - كان عندهم وريث واحد فقط عبر عدة أجيال . وتحققت الوحدة الفرنجية لا عن طريق السياسة ، ولكن رغم أنفها . فعندما مات شارل مارتل ، تم توزيع أراضيه وسلطته بين ابنه ، كارلومان Carloman ، وبين القصير . غير أن كارلومان انضم الى دير بندكتى سنة ٧٤٧ م بعد أن أمضى فى الحكم ست سنوات ، تاركا الميدان الى اخيه بيبين . ويمثل كارلومان نوعا جديدا للحاكم المتبربر ، المتأثر بشدة بالتيارات الروحية فى عصره ، والتى بشرت تقواه بوجود عدد لا حصر له من الملوك القديسين فيما بعد . وكانت الثقافة المسيحية والسلطة الجرمانية تقتربان من بعضهما البعض .

#### الاصلاح البندكتى :

ان امتزاج هذين العالمين تحقق الى حد كبير على يد بيبين القصير ( ٧٦٨ - ٧٤١ م ) ، الذى دعم النهضة المسيحية والبندكتية فى بلاد «الفرنجة» وحقق تحالفا له نتائج بعيدة المدى بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية . وفى أوائل القرن الثامن الميلادى كانت الكنيسة الفرنجية قد تطرق اليها الفساد ، والفوضى ، والجهل - وكل محصلة قرون عديدة من الحكم الميروفنجى الذى اتسم بسوء الادارة . فكثير من المناطق لم يكن بها قساوسة على الاطلاق . كما لم يتخل العديد من الفلاحين عن وثنياتهم .

وأما عن القساوسة أنفسهم ، فأنهم قدموا الأضاحى من الحيوانات للآلهة ، واحتفظوا بالخليلات فى بيوتهم . وخلال سنة ٧٤٠ م قاد القديس بونيفيس St. Boniface جماعة من البندكتيين الذين كرسوا حياتهم من أجل اصلاح الكنيسة الفرنجية . ولعدة سنوات مارس بونيفيس أعمال التبشير بين الجرمان الوثنيين ، واتضح له أن من الواجب العمل داخل العالم المسيحى بنفس القدر فى خارجه . وبونيفيس ، مثل البندكتيين الآخرين ، كان مرتبطا ارتباطا وثيقا مع البابوية وكان يعمل فى ألمانيا تحت قيادة بعثة تبشيرية بابوية . وفى ألمانيا شيد بونيفيس ورفاقه العديد من الأديرة المهمة التى صارت مراكز روحية وثقافية مهمة فى الكنيسة الجرمانية . وفى بلاد الفرنجة أصلح بونيفيس الأديرة وفقا لمبادئ النظام الديرى البندكتى . ورأى ضرورة قيام المدارس الديرية ، وعمل على تطوير النظام الأبرشى Parish System على نحو ملائم ، لتبليغ الانجيل الى سكان المناطق الريفية . وهذه البعثة التبشيرية العظيمة ، والتى كانت ثمرة للثقافة البندكتية الأنجلو سكسونية Anglo-Saxon للقرن السابق ، وضعت الأساس لثقافة مسيحية متجددة لعصر شارلمان .

#### التحالف الفرنجى - البابوى :

من المحتمل أنه بناء على مساعدة بونيفيس طلب يبين القصير مساعدة البابوية ليضع على رأسه التاج الفرنجى . وكان الملوك الميروفنجيون يعيشون خلف الظل ولا قيمة لوجودهم . ومع ذلك ظلت أسرهم محتفظة بنفوذ ضخم بصفة دائمة ، وهو النفوذ الذى كانت تتمتع به الأسرة المالكة الجرمانية . وإذا ماكان عند الكارولنجيين أمل فى أن يحلوا محل الميروفنجيين على العرش الفرنجى ، فإن عليهم أن يتصلوا بأعظم القوى المقدسة المتاحة فى عصرهم : ألا وهى البابوية المقدسة . وكان البابوات من ناحيتهم يبحثون منذ زمن بعيد عن حليف قوى ، ومحل ثقة ، ضد البيزنطيين الغير جديرين بالثقة ، وضد اللومبارديين Lombards المعتدين فى إيطاليا . وبحلول سنة ٧٥٠ م بلغت مشاكل البابوية مرحلة الأزمة . فالأويديون السياسيون للبابوية فى إيطاليا ، والأباطرة البيزنطيون ، قد اعتنقوا مايشبه المذهب الدينى الخارج على التعاليم المسيحية ، وهو المعروف باسم عبادة التماثيل Iconoclasm وهذا المذهب أدان استعمال كل التماثيل والصور الخاصة بالمسيح والقديسين عند ممارسة طقوس التعاليم المسيحية . وكان الشرق

البيزنطى منقسما تقريبا الى شطرين بسبب الخلاف حول تحطيم التماثيل والصور الدينية ، بينما كان الغرب معاديا لهذا الاتجاه الجديد بشكل جماعى . غير أن البابوية لم تستطع الاتجاه لطلب مساعدة اللومباريين الذين مازالوا على بربريتهم ، والذين كانوا سنة ٧٥٠ م فى حالة من الثورة من حين لآخر ويهددون ليس فقط الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا ولكن أيضا الأراضى التابعة للبابا نفسه . وفى سنة ٧٥١ م سقطت رافنا Ravenna العاصمة البيزنطية فى ايطاليا فى أيدي اللومبارديين . ولم تكن البابوية فى أمس الحاجة الى بطل أكثر من مثل هذا الوقت .

وفى العام نفسه الذى سقطت فيه رافنا وجد البطل ، اذ كان يبين القصير قد أرسل مبعوثيه الى روما ومعهم السؤال التالى :

« هل من الصواب أن يستمر حاكم لا حول له ولا قوة حاملا لقب ملك ؟ » فأجاب البابوية بالنفى ، ومن ثم تم الاتفاق . وفى سنة ٧٥١ م تم تتويج بيبين ملكا للفرنجة - على يد يونيفيس نفسه ، وبذلك صار تقليدا - وذلك بعد أن تم حشد مابقى على قيد الحياة من الميروفنجيين على أحد الأديرة . وفى سنة ٧٥٤ م سافر البابا شمالا ليمسح العاهل الجديد بزيت البركة ، وبذلك نقل كل وازعه الروحى الى الدولة الكارولنجية الناهضة . وفى مقابل ذلك ، قاد بيبين جيوشه الى ايطاليا وهزم اللومبارديين ، وأعطى البابوية جزءا كبيرا من وسط ايطاليا . وهذه « المنحة التى قدمها بيبين » خلصت البابوات من ضغوط اللومبارديين المنذرة بالسوء كما أصبحت القاعدة الأساسية للولايات البابوية التى قدر لها البقاء كخاصية مميزة للسياسة الايطالية حتى القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك الحين تم انقاذ البابوية من الأخطار التى كانت معرضة لها . ولقد ظل الأمر ينظر اليه على أنه اذا ماكان فى مقدور البابوات منع بطلهم الجديد من أن يصبح سيدهم .

شارلمان ( ٧٦٨ - ٨١٤ م ) :

كان بيبين القصير ، مثل كل الملوك الناجحين فى العصور الوسطى الباكرة قائدا مقتدرا . وكأول ملك كارولنجى فإنه اتبع تقاليد والده الحربية ، وطرد المسلمين من اكويستين Aquitaine ( اقليم يقع جنوب غرب

فرنسا الحالى) وترك بلاد الفرنجة أكثر اتساعا، وأفضل تنظيما عما وجدها .  
لقد كان يبين ملكا عظيما بيد أن ابنه تفوق عليه لأنه كان أعظم منه تماما .  
وكان شارلمان : ( ٧٦٨ - ٨١٤ م ) قائدا حربيا ناجحا بشكل غير عادى ،  
رجل دولة له قدرة نادرة ، ومحباً للعلم ، وملكاً يتمتع باحساس عميق  
بالمسئولية من أجل رفاهية المجتمع الذى يحكمه . وفيما يتعلق بالناحية  
الأخيرة ، فإنه يمثل تقدما جديرا بالذكر على أسلافه الميروفنجيين ، الذين  
كانت علاقتهم بدولتهم شيئا لا يذكر بالنسبة لكرمه .

وتفوق شارلمان على معاصريه من الناحيتين الرمزية والواقعية . وكان  
طوله ستة أقدام وثلاث بوصات ونصف بوصة ، ومكتنز الرقبة ، ومنفوخ  
البطن غير أنه كان مهيبا برغم كل ذلك . واستطاع أن يكون رقيقا وثرثرا ،  
بيد أنه استطاع أيضا أن يكون متحجر القلب وقاسيا ، وعنيفا ، ونظر زليه  
شعبه بالاعجاب والخوف . وامتلك شارلمان ورعا قويا ، كان ظاهريا ،  
شجعه على بناء الكنائس ، وجمع رفات واثار القديسين ، ويناضل ببطولة  
لأحياء الثقافة المسيحية فى بلاد الفرنجة ، بيد أن ذلك لم يمنعه من ملء  
بلاطه بالجوارى ، والشخصيات الأخرى ذات السمعة السيئة . وباختصار  
فبالرغم من عبقرية شارلمان العسكرية والسياسية ، فإنه كان رجلا يعيش  
عصره ، ويتناغم مع القوى التقدمية ، ومع ذلك فإنه لم يكن متعلقا بالماضى  
المتبربر على الإطلاق .

وقبل كل شيء كان شارلمان ملكا محاربا . وفى الحقيقة قاد جيوشه  
فى حملات كل عام . واعتنق فكرة ارسال البعثات التبشيرية رويدا رويدا .  
ووضع برنامجا لتوحيد وزيادة نفوذ الغرب المسيحى . وبناء على توصية  
البابوية ، تتبع شارلمان خطوات والده فى ايطاليا ، حيث هزم اللومبارديين  
نهائيا سنة ٧٧٤ م . ودمجهم فى دولته النامية . ومنذ ذلك الحين فصاعدا  
استعمل لقب « ملك الفرنجة واللومبارديين » وفيما بين سنة ٧٧٨ م و ٨٠١ م ،  
قاد شارلمان سلسلة من الحملات ضد المسلمين فى اسبانيا ، واقام منطقة  
واقعة على الحدود ، وهى « منطقة الحدود الأسبانية » ، على الجانب  
الأسباني من جبال البرانس ومركزها برشلونة Barcelona . وفى سنة  
٧٨٧ م ، هزم بافاريا وضمها الى دولته ونظم منطقتها فى الأجزاء الشرقية  
البعيدة فحولها الى حاجز دفاعى متقدم ضد السلاف . وكانت هذه المنطقة

المقامة على الحدود الشرقية النواة لدولة جديدة عرفت فيما بعد باسم النمسا Austria ، وفى سنة ٧٩٩ م ، استمر شارلمان فى التقدم تجاه الجنوب الشرقى ، محطما بذلك دولة الآفار الغنية ، والتي قامت على السلب والنهب ، وأقلقت شرق أوروبا لفترة طويلة .

غير أن معظم مجهودات شارلمان الحربية والتي استمرت الى فترة طويلة كانت موجهة ضد السكسون Saxons الوثنيين فى شمال ألمانيا . ومن أجل تحقيق هدف مزدوج بشأن حماية أراضى الراين الفرنجية ، ومن أجل ضم هذه الأرواح الى الكنيسة قام شارلمان بحملاته لمدة زادت عن ثلاثين عاما ( ٧٧٢ - ٨٠٤ م ) . وألحق بهم الهزيمة ، وأجبرهم على اعتناق المسيحية بالقوة عندما قاموا بالثورة عشية انسحاب جيوشه من هناك .

وفى نوبة من الغضب الجامح أمر شارلمان بإعدام أربعة آلاف وخمسمائة من السكسون الذين لا يدينون بالمسيحية ، وتم ذلك كله فى يوم واحد فحسب . وتحول اليوم بأكمله الى سفك للدماء سنة ٧٨٢ م . ونتيجة لذلك ، استسلم الشعب السكسونى للأكراه الوحشى الذى مارسه جنود الفرنجة والرهبان البندكتيون . وبحلول سنة ٨٠٠ م تمت سيطرة الفرنجة على الشعب السكسونى بشكل تام ، وفى العقود التالية تشربت أرواحهم بالتحاليم المسيحية رويدا رويدا . وبعد ذلك بقرن ونصف كان السكسون يحكمون أقوى وأعظم دولة مستنيرة فى أوروبا .

#### امبراطورية شارلمان :

نجحت جيوش شارلمان فى دمج أراضى وسط ألمانيا الشاسعة فى حضارة جديدة بينما فشلت فرق أوغسطس العسكرية فى ذلك . ولم يعد شارلمان مجرد ملك فرنجى وإنما صار سييدا على الغرب بحلول سنة ٨٠٠ م . وظلت دويلات مسيحية قليلة مثل الممالك الأنجلو - سكسون بانجلترا خارج نطاق سلطة شارلمان ، بيد أنه مع وجود تلك الاستثناءات القليلة الشأن نسبيا ، فإن نفوذ شارلمان السياسى امتد فى كل أنحاء العالم المسيحى الكاثوليكي . والواقع أنه كان امبراطورا حقا وصدقا . وفى يوم الميلاد سنة ٨٠٠ م تم الاعتراف الرسمى بانجازاته الرائعة عندما وضع البابا الناتج الامبراطورى على رأسه وتناداه ، « امبراطور الرومان » ومن وجهة

النظر القانونية ، فان هذا العمل المثير والصانع بعهد جديد أعاد الى الوجود  
الامبراطورية الرومانية بعد فترة انقطاع بلغت ثلاثمائة وأربع وعشرون عاما .

وان التتويج الامبراطورى لشارلمان من الصعب تفسيره . كما اثار  
جدلا عنيفا بين المؤرخين . وعلى مثال تتويج بيبين القصير ملكا سنة  
٧٥١ م ، فمن المحتمل ان ذلك يمثل تلاصقا بين المصالح البابوية والكارولنجية .  
ولعدة سنوات كان شارلمان يحاول تحقيق منزلة رفيعة مساوية لمنزلة أباطرة  
بيزنطة . ففي سنة ٧٩٤ م ألغى ممارسة التقليد الذى جرى بين الملوك  
الجرمان ، بشأن التنقل الدائم من اقليم الى آخر ، وأقام عاصمته الدائمة  
فى مدينة آخن Aachen . وهنا سعى الى ايجاد قسطنطينية خاصة به -  
اذ أطلق على آخن « روما الجديدة » . وتم بناء كنيسة رائعة على النمط  
البيزنطى - شبيهة بكنيسة ايا صوفيا Saneta Sophia .  
ومن المحتمل ان حفل التتويج سنة ٨٠٠ م كان نتاجا لنفس سياسة التقليد .

ومن ناحية أخرى ، لابد ان البابوية اعتبرت عملية التتويج فرصة  
نادرة لاسترداد بعض من حقها فى التقدم على شارلمان ذلك الحق الذى فقدته  
أمام شارلمان نظرا لأنه كان قويا بكل مافى الكلمة من معنى . ومما لاشك  
فيه أن الكارولنجيين قد تدرجوا من ملوك الى أباطرة ، بيد أن امبراطوريتهم  
حملت سمة « صنع فى روما » ، منذ ذلك الحين فصاعدا . وفى سنوات  
تالية أصر البابوات على أن مايمنحوه يستطيعون انتزاعه . فاذا كانت  
البابوية قادرة على تعيين الأباطرة ، فانها أيضا قادرة على عزلهم . والواقع  
أنه قبل ذلك بوقت قصير قدمت خزانة المحفوظات البابوية وثيقة مزورة  
شهيرة عرفت باسم ، « هبة قنسطنطين » (\*) والتي ورد فيها أن الامبراطور  
المسيحى الأول تخلّى عن طيب خاطر عن سلطته الى البابا ثم استردها كنوع  
من التفويض البابوى . واعتقد البابوات أن الأباطرة يجب عليهم أن يكونوا  
نوابا للبابا - مستخدمين سلطتهم السياسية العلمانية فى صالح الكنيسة  
الرومانية .

لقد كانت نظرية التفوق البابوى فى عيني البابوية مقنعة الى حد أنها

---

(\*) من المحتمل أنها ظهرت حوالى سنة ٧٤٠ م .

بررت استعمال أى وثيقة تاريخية تدعم هذه القضية . ولذلك فإن « مبة قنسطنطين » لم تكن محاولة لاعادة كتابة التاريخ ، وانما كانت محاولة لدعم ماتعتبر البابوية حقيقة تاريخية .

على أية حال ، احترم شارلمان البابوية بصفة دائمة ، بيد أنه كان غير راغب فى وضع نفسه فى دور التابع الذى طالبت به النظرية البابوية . وكان حريصا على الاحتفاظ بلقب « ملك الفرنجة واللومبارديين » ، جنبا الى جنب مع اللقب الجديد « امبراطور » ، استثنى البابا من حضور حفل التتويج وقام بتتويج نفسه بنفسه . وفى تلك المناورات نشاهد الاجراء التمهيدى لصراع مرير وطويل حول العلاقة الصحيحة بين الامبراطورية والبابوية الذى وصل الى أعلى درجات التصعيد فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . لذلك كانت السيادة المطلقة للعالم المسيحى الغربى فى خطر .

غير أن الصراع ظل مستمرا طوال عصر شارلمان ، إذ كانت سلطة شارلمان منقطعة النظير ، وكان البابوات من الضعف الى الحد الذى جعلهم لا يستطيعون معارضته بشكل جدى . والواقع أن العلاقات البابوية الكارولنجية الحميمة فى عصر بيبين استمرت ، كما أن البابوية شعرت بالهدوء والمعاملة اللطيفة بفضل قبول شارلمان الرقيق .

### الثيوقراطية الكارولنجية :

لم يحدث منذ أن تكونت أوروبا أن اتحدت ، تقريبا ، كما حدث فى عهد شارلمان ، ولم يحدث اطلاقا ، مرة ثانية ، أن تأثر العالم الغربى المسيحى بشدة على يد سيطرة رجال الدين . قبابوية التى قامت بمسح كل من بيبين وشارلمان بزيت البركة ، منحت الكارولنجيين حكومة ملكية بها خاصية مقدسة ، وكهنوتية تقريبا . واستغل شارلمان سلطته الهائلة ليس فى الأمة body Politic فحسب ، ولكن أيضا حكم الكنيسة الامبراطورية . فالقوانين والنظم التى صدرت فى عصره ، والتى عرفت باسم مجموعة الشرائع Capitularies عالجت الأمور الكنسية والعلمانية أيضا . فلم يطالب شارلمان بسن القوانين المتعلقة بتعاليم الكنيسة ، وانما شعر باحساس عميق بالمسؤولية فى تنقية وتنظيم قواعد السلوك والعمل الكنسى . إذ كان

قوة أعظم بكثير من البابا فى الكنيسة الكارولنجية . كما دعا الى عقد عدد من المجمع الكنسية المحلية Synods ، بل أنه ترأس أحدها . والواقع أن النهضة الفكرية المهمة المعروفة باسم « النهضة الكارولنجية » كانت بصفة عامة محصلة لاهتمام شارلمان بمصلحة الكنيسة ودوام الثقافة الكنسية .

وإن تعبير « النهضة الكارولنجية » مضلل على نحو خطير . إذ لم يقدم عصر شارلمان فكرا نظريا عظيما ، ولا نظاما لاهوتيا أو فلسفيا مبتكرا ، أو ليوناردو دافنشى Leonardo da vinci . وإذا ما بحثنا عن « نهضة » فمن المحتم أننا سنصاب بخيبة أمل . فالعمل الفكرى فى العصر الكارولنجى كان أقل إثارة للخيال الى حد كبير - وأكثر تخلفا . وجمع شارلمان العلماء من كل أنحاء أوروبا ، وبدأوا فى انقاذ الثقافة الأوروبية من هوة الجهالة التى كانت تنحدر اليها تدريجيا تحت الكوين التورثمبرى من يورك The Northumbrian of York . واعد الكوين نسخة جديدة صحيحة من الكتاب المقدس ، بعد أن صحح الأخطاء الخطية التى تسلت اليه على مر القرون . وبذلك انقذ الثقافة المسيحية من الفوضى المستحكمة الناشئة عن التجريف الذى تعرض له أعظم كتاب أسامى لتلك الثقافة . وقام الكوين وزملاؤه من العلماء بتنمية وتنظيم الطقوس الكنسية ، وتشجيع الوعظ الخاص بالسلوك والواجبات . واستكملوا الاصلاحات الديرية التى كان قد بدأها بونيفيس Boniface ، ووجدوا أنه من المحتم إقامة مدرسة فى كل دير مهم . ولم تكن القضية محاولة تخريج دفعات على شاكلة أرسطو أو أوغسطين ، وإنما العمل على معرفة القراءة والكتابة ذاتها . وانتشرت تدريجيا طريقة موجودة فى الكتابة - الحرف الصغير الكارولنجى - التى حلت محل الكتابات الغير مقروءة فى الغالب والمتغايرة الخواص ، والتى كانت تستعمل من قبل . وفى كل مكان من المملكة بدأ الرهبان نسخ المخطوطات على مقياس جديد لم يسبق له مثيل . وتقدمت الثقافة المسيحية الكلاسيكية تقدما ضئيلا جدا بفضل تلك الأنشطة ، بيد أنها على الأقل تمت المحافظة عليها . وفوق كل هذا ، اتسعت قاعدتها . وكان العلماء الكارولنجيون مشغولين بعمل حاسم لانقاذ الثقافة . وتحقق نجاح جهودهم وفقا للحقيقة القائلة بأن الفكر الأوربى لا يصح أن يتدهور مرة ثانية الى ما قبل المستوى الكارولنجى . ومن خصائص الاتجاهات الثيوقراطية القوية للعصر أن هذا الانجاز التعليمى الروحى تم انجازه وفقا للمبادرة الملكية



أكثر من البابوية . وبانتهاء الوحدة الأوربية بعد موت شارلمان تبدد الاندماج المؤقت للأنشطة الروحية والسياسية . ومع ذلك استمرت النهضة الفكرية . وفى الأديرة والكنائس الكبرى فى القرنين التاسع والعاشر ، وبصفة خاصة فى الأقاليم الجرمانية التى فتحت مؤخرا ، ظلت عمليات نسخ الوثائق قائمة - واستمرت المدارس تعمل . وبحلول القرن الحادى عشر كانت أوروبا مستعدة لبناء صروح فكرية مبتكرة وشامخة على أسسها الكارولنجية الثابتة .

#### الدولة الكارولنجية :

واستطاع شارلمان الاحتفاظ بامبراطوريته الضخمة الموحدة بفضل شخصيته . وفى عصر الطرق البدائية ، ووسائل المواصلات الرديئة ، كان شارلمان مضطرا الى الاعتماد بشكل مكثف على مقدرة النبلاء Counts والدوقات Dukes ، والحكام العسكريين Margraves ، الذين أداروا أقاليمه . واحتفظ شارلمان لنفسه بالاشراف عليهم بارساله زوجا من المفتشين عرفا باسم « المرسلان من قبل السيد » Missi Dominici من رجال بلاط الى الاقاليم للتحقق من تنفيذ ارادته . غير أن ولاء النبلاء والدوقات كان نابعا من احترامهم لشارلمان ذاته . وأطاعوا أوامرهم ونفذوا مجموعة شرائع لا بسبب الوطنية ، وإنما لحبهم الشديد لشخصه . والخلاصة أن المؤسسات الادارية للامبراطورية الكارولنجية كانت غير كافية بشكل خطير للوفاء باحتياجات الدولة الداخلية ، فتحت المظهر الخادع المتمثل فى القوة العسكرية الفعالة وكذلك الثقافية ، ظلت أوروبا الكارولنجية شبه متبربرة . كما كان الكوين مستسلما للوهم عندما قال لشارلمان : « إذا ماتم تنفيذ نواياك ، فمن المحتمل أن تنشأ أثينا جديدة فى بلاد الفرنجة ، وتكون أوسع وأكبر من أثينا القديمة لأن أثينتنا بفضل تعاليم المسيح ، التى تشرفت بها ، ستبزحكمة أكاديمية أفلاطون » . وكانت رؤية الكوين وهمية ومثيرة للشفقة ، لأن الدولة الكارولنجية ظلت أراضى للمحاربين والمزارعين الجهلة والسذج والذين كانوا نتاجا لمجتمعات بدائية تماما .

إن امبراطورية شارلمان الرومانية كانت تقريبا مجالا مثيرة للسخرية بالنسبة لامبراطورية أوغسطس . ومع ذلك يستطيع المرء فى النهاية أن يعجب بهذا الكارولنجى العنيد الذى استطاع أن يفعل الكثير جدا بإمكاناته

المحدودة - والذي بذل جهودا كبيرة ليسمو فوق ماضيه المتبربر - والذي حاول كشاب بالغ الرشد أن يتعلم الكتابة بيد أنه خافه التوفيق . والذي سعى بكل شجاعة أن يخضع لادارته الرقة العظيمة لمدنية الله City of God عند أوغسطين\* واستطاع المؤرخ كريستوفر داوسون Christopher Dowson قهم طبيعة انجازات شارلمان بشكل قام عندما كتب ، « ان امبراطورية شارلمان الكبير لم تحش طويلا بعد موت مؤسسها .. وأنها لم تحقق فى الواقع أبدا النظام الاجتماعى والاقتصادى لدولة متحضرة . بيد أنها برغم كل ذلك تشير الى ظهور الثقافة الأوروبية لأول مرة منذ أن ولد الشعور بالوعى فى الحياة النشطة ، »

#### الجدول الكرونولوجى الكارولنجى

- ٦٨٧ م الرئيس الكارولنجى فى أوستراسيا يهزم نيوسترا .
- ٦٨٧ م قيام السيطرة الكارولنجية .
- ٧١٤ - ٧٤١ عهد شارل مارتيل .
- ٧٢٢ هزيمة العرب فى قور .
- ٧٤١ - ٧٦٨ عهد بيبين القصير .
- ٧٥١ تنصيب بيبين ملكا للفرنجة .
- ٥٧١ نهاية الأميرة الميروفنجية .
- ٧٥٤ موت القديس بونيفيس .
- ٧٦٨ - ٨١٤ عهد شارلمان .
- ٧٧٢ - ٨٠٤ حروب شارلمان ضد الساكسون .
- ٨٠٠ تنصيب شارلمان امبراطورا رومانيا .

---

\* C. Dawson, The Making of Europe (Meridian Press, 1957), p. 187.

## ٩ - الغزوات الجديدة

### النهضة المتوقفة :

ان حركة الاحياء الاقتصادية والثقافى فى عصر شارلمان ، برغم مرورها بمرحلة التجريب كان مقدرها لها التقدم بثبات تجاه حضارة مزدهرة ، ورفيعة الثقافة لولا الغزوات المدمرة التى أعقبت موت شارلمان سنة ٨١٤ م . وحتى ذلك الحين ، نعمت المملكة الكارولنجية بسلام نسبى . فالحياة الفكرية بالرغم من أنها ظلت متخلفة ، وفى حالة ايقاظ ، فبفضل العملة الفضية الجيدة التى أصدرها شارلمان نشطت التجارة . وذهب أحد المؤرخين مؤخرا بعيدا جدا عندما أشار الى أنه بفضل نفوذ شارلمان القوى فيما يتعلق بسياسته الاقتصادية ، بدأت المدن تنمو وتزدهر مرة ثانية . بيد أن الاشارات المفعمة بالأمل ثبت أنها عارية من الصحة . وخلال القرنين التاسع والعاشر ، اضطرت أوروبا أن تحارب دفاعا عن وجودها ضد الهجمات الشرسة التى قامت بها القبائل الهنغارية Hungarians الشبه رحل من الشرق ، والعرب المسلمون ، والقراصنة من الجنوب ، والفايكنج Vikings المتدفقون من الشمال . ونتيجة لذلك تأخر ظهور حضارة رفيعة المستوى فى أوروبا لمدة قرنين آخرين .

### الكارولنجيون فى أواخر العصر الكارولنجى

من الخطأ أن نعزو التفكك السياسى للامبراطورية الكارولنجية الى تلك الضغوط الخارجية بشكل كلى ، لأن شارلمان نفسه ، قام بتقسيم دولته بين أبنائه العديدين ، من أجل المحافظة على التقاليد الفرنجية . ومع ذلك ، وكما حدث عندما مات لم يكن له سوى ابنا واحدا على قيد الحياة . وظل حظ الكارولنجيين الى جوارهم ، اذ عندما مات الفاتح الكبير سنة ٨١٤ م انتقلت مملكته الى وريثه الوحيد لويس التقي Louis the Pious ( ٨١٤ ... ٨٨٤ م ) ، دون أن تصاب بأذى .

وكان لويس على مستوى الكفاية ، بيد أن قدراته العسكرية والسياسية كانت أقل من قدرات والده شارلمان ، وجده ييبين القصير ، ووالد جده شارل

مارتل بشكل جلى . واذا كانت الوحدة الكارولنجية ظلت قائمة ، الا ان القيادة الكارولنجية كانت قد بدأت فى السقوط . وكان لويس التقى اسما على مسمى . ان قام بطرد المغنين والجوارى من البلاط الامبراطورى ، وأحل محلهم قساوسة ورهبانا . ولما كان لويس أكثر عنادا من والده بكثير لذلك أخذ على عاتقه تحقيق حلم قيام امبراطورية مسيحية موحدة - مدينة الله City of God. على الأرض . ومع ذلك كان أقل صلاحية من شارلمان بالنسبة للعمل الجبار Herculean Task الخاص بتحقيق الوحدة والتلاحم فى امبراطورية ضخمة ومتغايرة الخواص وظفر بها الكارولنجيون . وكان لويس التقى ، الأول فى أسرته الذى آمن بفكرة توريث السلطة العليا السياسية الى ابنه الأكبر ، وبذلك جعل وحدة المملكة مسألة سياسية وليست مجرد احتمال . ومع ذلك ، فمن سخرية الأقدار ، ثبت فى النهاية أنه الكارولنجى الأخير الذى حكم مملكة الفرنجة الغير مقسمة . ان ان خطته الجريئة الخاصة بوجود وريث واحد أحبطتها طموحات أبنائه الأصغر الذين ثاروا علنا ضده ، وأقحموا الامبراطورية فى حرب أهلية .

وعندما انتهى العهد التمس للويس التقى سنة ٨٤٠ م ، تصارع أبنائوه الثلاثة بعنف من أجل الغنائم . وطالب لوثر Lothar أكبر الأبناء الثلاثة باللقب الامبراطورى دون تقسيم ، وبالسيطرة التامة على كل المملكة . أما الاخوان لويس الجرمانى ، وشارل الأصلع ، ناضلا ليظفرا بسلطة ملكية مستقلة فى شرق ، وغرب بلاد الفرنجة على التوالى . وأخيرا اضطر لوثر للاستسلام لقوة أخويه الموحدة . وحسمت معاهدة فيردون Verdun المهمة النزاع سنة ٨٤٣ م حيث قسمت الامبراطورية بشكل دائم وبشرت بقيام الاطار العام السياسى لأوربا الحديثة . وسمحت المعاهدة للوثر بالاحتفاظ باللقب الامبراطورى ، بيد أنه لم يكن له أى نوع من السلطة العليا على امالك الخاصة بـ لويس الجرمانى ، وشارل الأصلع . وحكم لويس شر ؟ بلاد الفرنجة التى أصبحت نواة لدولة المانيا الحديثة . وفى الحقيقة فهو أول ملك على ألمانيا . وأصبح شارل الأصلع ملكا على غرب بلاد الفرنجة التى تطورت الى فرنسا الحديثة . واحتفظ الإمبراطور لوثر باقليم متغاير الخواص ، وضيق ، ومستطيل الذى امتد لعدة آلاف من الأميال تجاه الشمال من ايطاليا عبر بور جوندى Burgundy والسك Alsace ، واللورين Lorraine ونيثرلاند Netherlands ، ويشمل أجزاء من الاراضى

التي بها ألمانيا الغربية حاليا وشرق فرنسا • وهذه المملكة الوسطى شملت: «العاصمتين الإمبراطوريتين» روما وأخين Rome and Aachen ، غير أن حدودها المعرضة للخطر ، والطويلة كان من المستحيل الدفاع عنها من الناحية الواقعية ، وأنها كانت تفتقر إلى عناصر الوحدة تماما • وتم تقسيم هذا الإقليم إلى أجزاء صغيرة عند موت لوثر سنة ٨٥٥ م بين أبنائه الثلاثة ، حيث ورث أحدهم إيطاليا الكارولنجية ، واللقب الإمبراطوري الذي بدأ يفقد أهميته رويدا رويدا • ومن القرن التاسع حتى القرن الثاني عشر ظلت أجزاء مملكة لوثر المتوسطة مصدرا لمنازعات الحدود المريرة التي لا نهاية لها بين ألمانيا وفرنسا •

وان الصراعات بين أحفاد شارلمان حدثت مقابل خلفية غزوات الفايكنج ، والهنغار والعرب التي عجلت وعملت لى الزيادة السريعة للاتجاه نحو التفكيت السياسي الناتج عن مواطن الضعف الداخلي • بيد أنه ، حتى بدون الغزوات ، وبدون التقليد الفرنجي الخاص بتقسيم الخلافة ، كان من غير المحتمل أن تظل إمبراطورية شارلمان الضخمة ، والتي يصعب السيطرة عليها باقية لفترة طويلة دون أن تصاب بأذى بعد أن زالت عنها سيطرة قبضته الحديدية • وكما حدث ، فإن أبسط الوحدات السياسية الناجمة عن معاهدة فيردون Tready of Verdun ، كانت كبيرة جدا - وبعبارة جدا الحقائق الباعثة على اليأس بالمناطق الريفية - إلى الحد الذي يجعلها عاجزة عن التصدي بنجاح لغارات البحارة الفايكنج ، والفرسان الهنغار الخاطفة • وخلال القرنين التاسع والعاشر كادت القيادة الكارولنجية تتداعى بشكل واضح ولا يوجد توضيح لعدم مقدرة الكارولنجهيين المتأخرين أفضل من أسمائهم : شارل البدين ، شارل الساذج ، لويس الطفل ، ولويس الضريع •

### غزوات العرب والهنغار :

ان العرب والهنغار ، والفايكنج الذين قاموا بسلب ونهب الدولة الكارولنجية المتدهورة ، كانوا مدقوعين إلى حد ما بالفراغ السياسي المتزايد ، ومكرهين إلى حد ما على يد القوى المؤثرة في أوطانهم • وعانت أوروبا من نهبهم على نحو خطير • ومع ذلك كانت قوية في النهاية إلى الحد الذي مكنها أن تظل باقية بعد الغزوات واستوعبت الغزاة • وكما حدث ،

فان غزوات القرنين التاسع والعاشر كانت الأخيرة والتي قدر للمعالم المسيحي الغربي التعرض لها . ومنذ حوالى ألف سنة حتى الآن ، حصل الغرب على الفرصة الفريدة فى تطوير نفسه بنفسه ، وحمل نفسه من الاعتداءات الأجنبية التى أضرت كثيرا بالحضارات الأخرى عبر ألف عام الماضية . وكما يقول المؤرخ مارك بلوك Marc Bloch : « وبالتأكيد ليس من غير المقبول الاعتقاد بأن المناعة السياسية ، وغيرها التى من النادر أن يشاركنا مزاياها شعب آخر باستثناء اليابانيين كانت إحدى العوامل الأساسية للحضارة الأوروبية ٠٠٠ » (\*) .

ومع ذلك فان شعوب أوروبا التى تعرضت للهجمات العنيفة فى القرنين التاسع والعاشر لم يكن لديها سبيل لمعرفة أن الغزوات ستنتهى فى يوم ما . اذ كتب مؤرخ فرنجى فى منتصف القرن التاسع فى أسلوب من الأسى :

« ان أعداد السفن فى ازدياد ، فجيوش الاسكندنافيين العرمرم فى تزايد مستمر ، و فى كل مكان صار المسيحيين ضحايا المذابح وعمليات السلب والنهب وحرق ممتلكاتهم وهذا دليل كامل على أن هذه الحال ستظل حتى قيام الساعة - فالاسكندنافيون يستولون على كل مدينة يمرون بها دون أن يستطيع أحد التصدى لهم » .

وفى جنوب بلاد الغال يصلى الشعب من أجل الحماية الالهية ضد العرب « الثالوث الأقدس الأبدى ٠٠٠ ينقذ شعبه المسيحى من ظلم الوثنيين » .

وفى الشمال يصلون ، « بسبب الشعب الاسكندنافى المتوحش ، الذى يدمر ممالكنا نسالك النجاة ، يا الله » .

وفى شمال ايطاليا يصلون ، « من أجل حمايتنا من سهام الهنغاريين » .

والعرب فى القرنين التاسع والعاشر ، على خلاف أسلافهم جاؤوا كقطاع طرق مفضلين ذلك على أن يكونوا فاتحين ومستوطنين . فمن أوكر

---

\* Marc Bloch, Feudal Society, tr. L.A. Manyon. (Chicago, 1961), p. 56.

قرصنتهم فى افريقيا واسبانيا وجزر البحر المتوسط كانوا ينقضون على السفن التجارية لنهبها ، ويجمعون الغنائم من المدن الساحلية وكانوا يبحرون عبر الأنهار الى مسافات طويلة داخل البلاد لاجداث الدمار والخراب . واقامت عصابات القرصنة من العرب مخايء على الساحل الجنوبى لبلاد الغال ، والتي منها انطلق المغيرون ابتغاء السلب والنهب ، واغاروا على كل مكان خلال المناطق الريفية ، واختطفوا السياح والحجاج الذين كانوا يعبرون ممرات الألب *Alpin passes* ولم يمتلك أبدا شارلمان أسطولا بحريا قويا . وكذلك احفاده أنفسهم لا حول لهم ولا قوة للدفاع عن سواحلهم .

وفى سنة ٨٤٦ م اغار القراصنة العرب على روما نفسها ، وافتكوا حرمة كنائسها وسرقوا كنوزها . وحتى سنة ٩٨٢ م هزمت عصابات القرصنة من العرب الملك الجرمانى هزيمة نكراء فى جنوب ايطاليا ، ومنذ ذلك الحين بدأت الاغارات تتوقف تدريجيا . وفى ذلك الحين كان جنوب ايطاليا يعج بالتحصينات ، وتعلم سكانه الدفاع عن أنفسهم بل وبدأوا يتحدون سيطرة العرب على غرب البحر المتوسط .

وأما عن الهنغاريين أو المجر *Maggars* ، فهم الفرسان البدو الأقوياء الذين أتوا من منطقة السهول الاسيوية ، واستوطنوا الأراضى المعروفة حاليا باسم هنجارى *Hungary* . ومنذ سنة ٨٠٠ م حتى سنة ٩٥٥ م اثاروا الرعب فى ألمانيا وايطاليا وشرق بلاد الغال . وامتدت اغارات جماعات الهنغار فى كل مكان ينشدون طلب القرى الصغيرة الخالية من الدفاعات لسلب ما بها ، متجنبين المدن المحصنة ، ومتفوقين فى ركوب الخيل ، وفى اصطناع المناورات ضد الجيوش التي كانت ترسل للتمددى لهم . ومع ذلك ، فبمرور الوقت ، أصبحوا أكثر ارتباطا بالأرض وتخلوا عن الترحل وبذلوا عناية بمزارعهم . وتخلوا عن الكثير من طباعهم البدوية الهمجية .

وفى سنة ٩٥٥ م هزم الملك أوتو *Otto* الكبير ملك ألمانيا ، جيشا هنغاريا كبيرا فى موقعة لتشفيلد *Lechfeld* . وأنتهى الاغارات الى غير رجعة . وفى مدى نصف قرن اعتنق الهنغار المسيحية ، واندمجوا فى المجتمع الأوروبى المسيحى .

أوروبا فى العصور الوسطى

### الفايكنج :

كان الفايكنج أو الاسكندنافيون هم أكثر الغزاة جميعا اثارة للخوف . وخرج هؤلاء المحاربون البحريون الذين نشروا الذعر والرعب من سكنديناڤيا Scandinavia وهى نفس الأرض التى أفرزت الكثير من المتبربرين الجرمان نحو أوروبا منذ قرون قبلهم . ومن ثم فإن الغزاة الجرمان فى عصر الرومان والفايكنج فى القرن التاسع كانت لهم الخلفيات العرقية المتشابهة . وإذا كان الفرد الأوروبى فى القرن التاسع - والذى كان نتاجا لزيجات رومانية - كليتية - جرمانية لا حصر لها والذى تولى كثيرا عن مظهر الهمجية بفضل الكنيسة وحياة الاستقرار - إلا أن الفايكنج بدأ شعبا مغايرا تماما .

وعلاوة على ذلك ، فكما هو الحال الآن ، كانت الشعوب الاسكندنافية منقسمة الى ثلاث مجموعات تقريبا : الدنمرك Danes ، السويد Swedes ، والنرويج Norwegans ، وأبان العصر الذهبى لتوسع الفايكنج فى القرنين التاسع والعاشر ، ركز الدنمرك اهتمامهم على بلاد الفرنجة وانجلترا بعد أن أفزعهم غزو شارلمان لسكسونيا Saxony وغزا النرويج اسكتلندا Scotland وأيرلندا Ireland ، وثمان المحيط الأطلسى ، واستقروا بهذه المناطق جميعها .

وركز السويدي على الشرق - الشواطئ البلطيقية ، وروسيا ، والأمبراطورية البيزنطية . ومع ذلك فإن الشعوب الاسكندنافية مشتركة فى الخصائص الى حد كبير وأن الفروق بينها ليست واضحة على الإطلاق . ولهذا فمن المناسب أن نعتبر غزواتهم ، واكتشافاتهم المدهشة ، وأعمالهم التجارية الواسعة المدى على أنها حركة دولية ضخمة وفريدة فى نوعها .

ولا شك أن انحلال القيادة الكارولنجية قام بمهمة المغنطيس بالنسبة للفايكنج الغيرين ابتغاء السلب والنهب ، إلا أن غزواتهم على الغرب بدأت منذ عصر شارلمان . وأن الأسباب الأساسية لحركتهم الجماعية تجاه الخارج لابد أن تبحث فى اسكنديناڤيا نفسها . إذ كانت اسكنديناڤيا قبل القرن العاشر كتابا منغلقا بالنسبة للمؤرخين . وكانت تعليقاتهم بالنسبة لانطلاقة الفايكنج العنيفة لا تزيد قليلا عن كونها مجرد تخمينات علمية . ومع ذلك ،



فمن المحتمل أن الشعب الاسكنديناوى تعرض لحالة من انخفاض مستوى المعيشة الشديدة بسبب الهجرات الى الخارج فى العصر الرومانى الى أن ازداد عدد السكان هناك فى أواخر القرن التاسع الى حد أن زراعة الاسكندنافيين البدائية لم تعد تقى بسد الحاجة الا بشق الأنفس . ومن المحتمل أن ضغط ازدياد السكان قد تفاقم نتيجة للتطور البطيء للسلطة الملكية المركزية ، وتضييق على الأفراد الفعمين بالقلق وتدفعهم للبحث عن المغامرات والفرص خارج حدود بلادهم . وهناك عامل ثالث وهو تطور تحسينات سفن الفاينج ، والذي صار من الضخامة ما يجعلها قادرة على مواجهة العواصف ، وتسير بقوة الشراع والمجاذيف وقادرة على حمل ما بين أربعين الى مائة بحار محارب ، وتسير بسرعة عشر عقد فى الساعة الواحدة .

وفى تلك السفن المستطيلة هاجم الفاينج - الطوال القامة ، والأقوياء فى العضلات والذين كان شعرهم ضارب الى الحمرة ، - موانى شمان أوربا . وأبحروا فى الانهار الى مسافات بعيدة فى الداخل ، يسلبون وينهبون الخيول أحيانا ويركبوها عبر المناطق الريفية لنشر دمارهم بصورة أشد ضراوة .

#### الفاينج فى العالم المسيحى الغربى :

كانت انجلترا أول من قاسى من هجمات الفاينج . وفى حوالى سنة ٧٨٧ م وصلت ثلاث سفن مستطيلة الى مجرى النهر على الساحل بمدينة دورسيت Dorest ، وتدفع الفاينج منها ليقوموا بنهب وسلب مدينة قريبة بعد أن استولوا عليها . ومنذ ذلك الحين فصاعدا تعرضت ممالك الأنجلو - سكسون Anglo saxon للعذاب والقلق بسبب اغارات الفاينج المتواصلة . وفى سنة ٧٩٤ م أباد اللصوص الاسكنديناويون دير جارو jarrow ، والذي عاش به بيده Bede ومات . وكذلك لقيت المراكز الثقافية الديرية الكبيرة فى نورثومبريا Northumbria مصيرا مماثلا .

وفى سنة ٨٤٢ م نهب الدنمرك مدينة لندن ، وبعد ذلك بسنوات قليلة بدأوا فى اقامة قواعد شتوية دائمة فى انجلترا التى أعفتهم من ضرورة العودة الى اسكنديناويا بعد موسم الاغارات . وفى أواخر سنة ٨٠٠ م

تحولوا من القرصنة العادية الى الاحتلال على نطاق واسع والاستيطان الدائم . واجتاحوا مملكة الأنجلو - ساكسون بعد الأخرى ، حتى أخيرا في سنة ٨٧٠ م لم يكن هناك سوى مملكة وسيكس Wessex الجنوبية التي ظلت متحررة من السيطرة الدنماركية - بل أن وسيكس كانت على وشك السقوط قبل الهجوم الدانمركى .

وبالنسبة للملاحين الفايكنج ، كانت القناة البريطانية The English Channel مكانا سهلا الاجتياز أكثر من عائق ، وهاجمت نفس الجماعات المتغيرة الشواطئ البريطانية والفرنجية دون تمييز . وأقاموا قواعد دائمة عند مصبات الأنهار الكبرى ، وأبحروا فيها لينهبوا الأديرة ويخربوا المدن التي ليس بها تحصينات . وتعرضت مدينة أنتويرب Antwerp للهجمات المصحوبة بالخراب والدمار في سنة ٨٢٧ م ، وروين Rouen سنة ٨٤١ م ، وهامبورج Hamburg ، وباريس سنة ٨٤٥ م ، وأخن Aachen عاصمة شارلمان القديمة ٨٨١ م . والواقع أن أوروبا كانت تحت الحصار .

غير أنه إذا كان بعض الأوربيين قد ركنوا الى الاستسلام المذرى ، فإن البعض الآخر ناضلوا بعناد لحماية أراضيهم وتراثهم . إذ أنقذ ملك وسكس الفريد الكبير King Alfred the great مملكته من الغزو الدانمركى في أواخر سنة ٨٧٠ م ، وبدأ العمل الشاق الخاص بالتصدي للجيش الدانيمركية في انجلترا . وحقق الملك أرنولف King Arnulf ملك شرق بلاد الفرنجة نصرا حاسما على الاسكندنافيين سنة ٨٩١ م في موقعة داييل Dyle . وبذلك خفف كثيرا من ضغط الفايكنج على ألمانيا ، بالرغم من أنه في نفس اللحظة كانت الاغارات الهنغارية قد بدأت . واستمر غرب بلاد الفرنجة يعاني لفترة من الوقت ، غير أنه حوالى سنة ٩١١ م أقام الملك شارل البسيط Charle the Simple دويلة حاجزة صديقة من الفايكنج في شمال فرنسا بفضل معاهدة مهمة جدا مع شيخ قبيلة اسكندنافي يدعى روللو Rollo . وكان الفايكنج من جماعة روللو يمارسون اغاراتهم من مستوطنهم عند مصب نهر السين Seine River . وقرر شارل الذي كان أقل بساطة عما يتضمنه اسمه ، أنه إذا ما استطاع أن يجعل روللو صهرا له ، فإن المناطق السكنية على نهر السين سوف تثبت تماما أنها قادرة على أن تكون حاجزا فعلا ضد اغارات أخرى وأصبح

روللو مسيحيا ، وزوجه شارل البسيط شقيقته ، واعترف روللو - على الأقل فى بعض النواحي - بعلو منزلة مملكة الفرنجة الغربية . ومن ثم نالت دويلة روللو شرعية فى أعين العالم الغربى المسيحى ، وباتساع رقعة تلك الدويلة رويدا رويدا على عهد روللو وخلفائه صارت تعرف باسم نورثمن Northmen أو « نورماندى » Normandy وبعد فترة قرن ونصف صار النورمان Normans مسيحيين صالحين كالفرنجة سواء بسواء ، واستعملوا اللغة والثقافة المسيحية ، ومع ذلك ظلوا محتفظين بكثير من نشاطهم القديم . وفى القرن الحادى عشر قدمت نورماندى أعظم الأقوياء من محاربين ، مشاركين فى الحملات الصليبية ، ورجال الأعمال ، والرهبان .

### الفايكنج فى شمال الأطلسى وشرق أوروبا :

تشكل فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا جزءا واحدا فقط من الم الفايكنج الكبير فى القرنين التاسع والعاشر . ويحلول منتصف القرن التاسع كان النرويج والدانمرك قد فتحو الجزء الأكبر من أيرلندا Ireland . ومن سنة ٨٧٥ و ٩٣٠ م استقروا فى جزيرة آيسلند Iceland البعيدة . وكان هناك ثقافة اسكنديناافية وهى التى ظلت باقية لقرون عديدة ، والتى تأثرت قليلا بالاتجاهات العامة للحضارة الغربية . وفى آيسلند ، فإن التراث الشفهى الرائع لقصة البطولة الاسكنديناافية ، والمعروفة باسم نورس ساجا Norse Saga ازدهرت وأخيرا تم كتابتها . وربما كان الاسكنديناافيون الذين عاشوا فى آيسلند أعظم البحارة جميعا . واستقروا على الشاطئ جرينلاند Greenland فى أواخر القرن العاشر . وأقاموا مستوطنات مؤقتة على الشواطئ الشمالية لأمريكا الشمالية نفسها فى القرن الحادى عشر ، وبذلك محققين سبقا على كولمبس Columbus بحوالى خمسمائة عام .

وفى الشرق اجتاح الفايكنج من السويد فنلاند Finland وتوغلوا بعيدا تجاه الجنوب عبر روسيا الأوربية لاقامة علاقات تجارية مع القسطنطينية وبغداد . وتباهى أباطرة بيزنطة بشكل غير عادى بالجنود المرتزقة الاسكنديناافيين الطوال القامة الذين خدموا فى حرسهم الامبراطورى . وفى روسيا نفسها نصبت أسرة سويدية نفسها حاكمة فى نوفجورود

Novograd فى أواخر القرن التاسع • على سكان البلاد السلافيين •  
وفى القرن العاشر استولى قائد اسكنديناوى من مدينة نوفجورود على مدينة  
كيف Kive الروسية الاستراتيجية ، والتي صارت نواة للدولة  
الروسية المنظمة والقوية • ونظرا لتأثر الاسرة الحاكمة فى كيف بثقافة  
رعاياها بعمق شديد ، فانها صارت أكثر سلافية عن كونها فى الاصل  
اسكنديناوية • واعتنقوا المسيحية على المذهب البيزنطى فى أواخر القرن  
الحادى عشر ، واتجهوا الى القسطنطينية أكثر من الغرب فيما يتعلق  
بالأفكار الثقافية والدينية • وبالرغم من ذلك أثبت الاسكنديناويون أنهم  
قادرون على إقامة الممالك والقضاء على غيرها ، سواء فى روسيا أو ايسلند ،  
أو فى أى مكان آخر •

### غروب شمس العصر الفايكنجى

ان التغيرات فى الحكومات الملكية المتمركزة فى الدانمارك ، والنرويج  
والسويد ربما كانت عاملا فى عملية دفع الغزاة الفايكنج المغممين بالقلق ،  
الى خارج اسكنديناويا ، أدت الى تهذيب روح الفايكنج • ولما كانت  
اسكنديناويا تزداد تحضرا ، لذلك عرقل ملوكها الأنشطة الرامية الى تجاوز  
الجماعات الحربية المستقلة ، هذا فضلا عن أن الأحوال الاجتماعية ، كانت  
باعثا على الحياة الخالية كلية من القرحال ، والتي تسودها الرقابة الى  
حد ما • وحتى أواخر القرن الحادى عشر استمرت بريطانيا تواجه هجمات  
الاسكنديناويين ، غير أن غزاة القرن الحادى عشر لم يكونوا جماعات من  
القراصنة ، وانما على الأصح كانوا جيوشا ملكية تحت قيادة ملوك  
الاسكنديناويين • وان طبيعة التهديد الاسكنديناوى قد تغيرت تغيرا عميقا •  
وفى أواخر القرن الحادى عشر توقف التهديد كلية • وحوالى سنة ١٠٠٠ م  
اكتسبت المسيحية مؤننين بها فى كل أنحاء العالم الاسكنديناوى : ففي  
ايسلند ، وروسيا ، بل وحتى فى الممالك الاسكنديناوية ذاتها ، أمن  
الاسكنديناويون بدين الرهبان الذين كانوا من قبل يخشونهم جدا • ومنذ  
ذلك الحين لم تعد اسكنديناويا مستودعا أو مقرا للبرابرة الغزاة ، وصارت  
جزءا مبدعا فى الثقافة الأوروبية الغربية •

وحتى فى أوج الغزوات لم يكن الاسكنديناويون برابرة تماما بتمام •

اذ أنهم تفوقوا فى التجارة بالاضافة الى القرصنة ، كما أنهم كانوا اعظم الملاحين للعصر . وأدخلوا الى أوربا فن الملاحة و خلاصة القول ، فانهم أدخلوا روح حب المغامرة العالمية للنظرة المحدودة والمحافطة على القديم للحضارة الكارولنجية .

١٠ - بقاء أوروبا بعد زوال الحصار :

رد فعل الغزوات - انجلترا :

ان غزوات القرنين التاسع والعاشر أحدثت تغيرات مهمة فى النظام السياسى والاجتماعى لغرب أوروبا . وعلى وجه العموم ، اتجهت السلطة السياسية الى الانقسام الى وحدات محلية صغيرة ، لأن الجيوش الملكية البطيئة الحركة المرهقة اتضح انها عاجزة عن التصدى للغارات الخاطفة . تلك كانت الحالة فى فرنسا . بيد أنها كانت أقل واقعية بالنسبة لألمانيا حيث نجحت الملكية بعد فترة من الضعف النسبى ، فى اجتياز مرحلة استعادة القدرة على ردع الغزاة بشكل مثير للدهشة . وفى انجلترا ، فمن ناحية التناقض الظاهرى ، كان لضربات الدانمرك المتكررة أعظم نتيجة فيما يتعلق بتوحيد الدويلات الأنجلو - سكسون المتعددة فى مملكة واحدة .

وفى أواخر القرن الثامن ، عند بداية غزوات الفايكنج ، كانت انجلترا مقسمة الى وحدات مستقلة بعضها عن بعض منذ قترحات الأنجلو - سكسون . بيد أنه على مر القرون كانت الممالك الصغيرة العديدة تنطوى تحت سيطرة ثلاث ممالك أكبر - نورثومبريا فى الشمال ، وميركيا Mercia فى الوسط ، ووسيكس Wessex فى الجنوب . وإن الهجمات الدانمركية فى القرن التاسع التى قضت على القوى المنافسة لمملكة وسكس ، أفسحت المجال لمملكة وسكس ، وبذلك سارعت تجاه الاندماج الذى كان بالفعل على الطريق . بيد أنه اذا كان الدانمرك يقدمون خدمة الى مملكة وسكس ، فإن كليهما لم يكونا بالحقيقة إبان الأيام الكثيرة فى أواخر القرن التاسع ، حيث عانت انجلترا من دمار ثقيل الوطأة . وأنه لفترة من الوقت بدت انجلترا كما لو كان الدانمرك على وشك أن يهزموا وسيكس نفسها . ومع ذلك ، وفى فترة المحنة اعتلى عرش وسيكس قائد ربما كان أعظم ملوك انجلترا شهرة ، انه الفريد الكبير ( ٨٧١ - ٨٩٩ م ) . إذ أنه وضع كل امكاناته لحماية مملكته من الفايكنج ، حيث خاض معركة شرسة ضدهم . بل أنه لجأ الى استمالة بعضهم بتقديم الأموال . وفى شتاء سنة ٨٧٨ م ، هاجم الدانمرك بغتة ، وأجبروا الفريد على اللجوء الى جزيرة أثيلنى Athelney الصغيرة ومعه عدد قليل من رفاقه فى مستنقع بعيد . وكانت جزيرة أثيلنى واديا لأعمال الحديد بالنسبة لانجلترا . وفى الربيع التالى سنة ٨٧٨ م

حشد الفريد قواته وهاجم جيشا دانمركيا هجوما ساحقا فى موقعة أدنجتون . وحول هذا النصر الحاسم مجرى الحرب ، لأن القائد الدانمركى وافق على اعتناق المسيحية . وأن ينسحب من وسيكس ، وأن يقبل عقد معاهدة سلام « دائم » ، ولم تتعرض وسيكس أبدا لعدوان خطير مرة ثانية . بيد أن الدانمرك الآخرين رفضوا الالتزام بمعاهدة السلام ، لذلك فتح الفريد فى آخر حملاته العسكرية مدينة كينت Kent ومعظم ميركيا Mercia واستولى على لندن - التى كانت أعظم مدن انجلترا فى ذلك الحين . وفى سنة ٨٨٠ م منحت معاهدة سلام جديدة وسيكس معظم جنوب وجنوب غرب انجلترا وظل الجزء الشمالى الشرقى من انجلترا - Danelaw معاديا ، بيد أن كل الأراضى فى انجلترا الغير خاضعة للدانمرك كانت موحدة تحت قيادة الملك الفريد .

وعلى شاكلة كل القادة الناجحين فى عصره ، كان الفريد محاربا مقتدرا الى حد كبير ، والواقع أنه كان يفوقهم جميعا . وكان الفريد منظما . لديه القدرة على الابداع بشكل مثير للاعجاب ، إذ نظم التجنيد العسكرى . وأنشأ أسطولا بحريا انجليزيا بعد أن رأى بوضوح أنه لا أمل أمام أوروبا المسيحية فى طرد الفايكنج بدون تحديهم فى البحار . وملا بلاده بالقللاع التى استخدمت كمعاقل دفاعية وملاجئ آمنة يستخدمها المزارعون فى وقت الحرب . وكلما تم تحرير الأراضى التى كانت تحت قرصنة الدانمرك ، والذى حدث شيئا فشيئا ، أقام الفريد حصونا جديدة لتأمين الحدود التى تم استعادتها مؤخرا . وقام الفريد بتنقية وإعادة صياغة قوانين شعبه ، وعمل على تنفيذ القوانين بكل حزم ، ومارس السلطة بشكل لم يسبق لأى ملك انجلو - سكسونى ، أن سلكه .

ولم يكن هذا الملك الشهير رجل دولة ومحاربا عظيما فحسب ، وإنما كان أيضا عالما ونصيرا للمعرفة . على أن بيئته الفكرية لم تكن تقل نبوغا عن بيئة شارلمان . فأيام بيده Bede ، وبونيفيس Boniface والكوين Alcuin كانت ضمن تاريخ الماضى البعيد . وعلى عهد الفريد ، كانت اللغة اللاتينية - مفتاح الثقافة المسيحية - غير معروفة تقريبا فى انجلترا ، ومن ويلز Wales ، ومن القارة الأوربية - وطلب منهم العمل بنشاط على تعليم اللغة اللاتينية وترجمة التراث الكلاسيكى الى اللغة

الانجلو - سكسونية • وشارك الفريد نفسه فى أعمال الترجمة ، مثل كتاب  
سلوى الفلسفة Consolation of Philosophy مؤلفه بوثيوس  
Boethius ، ورعاية الكاهن لأبناء أبرشيته Postoral Care  
مؤلفه البابا جريجورى والتاريخ الكنسى مؤلفه بيده ، كلها ترجمهما  
الفريد الى اللغة القومية • وفى ترجمته لمؤلف بوثيوس ، أضاف الفريد تعليقا  
من عنده ، « وفى تلك الأيام لم يكن يعرف المرء شيئا عن سفن للحرب  
مسلحة » • وفى تصديره لكتاب رعاية الكاهن لأبناء أبرشيته أشار الى تلك  
الأيام بالحنين ، « قبل أن يتم نهب كل شيء واحراق كل شيء » ، عندما كانت  
كنائس انجلترا زاخرة بالكنوز والكتب ، • وكانت نهضة الفريد الفكرية  
أكثر من نهضة شارلمان ، وكانت عملية- انقاذ أكثر منها من كونها انطلاقة  
ابداعية • كما كان الفريد متواضعا ، ورقيقا عندما وصف نفسه كالفرد  
الذى يتجول عبر غابة يجمع الأخشاب التى يستطيع غيره استعمالها للبناء •

واستمرت حركة الفرد الاستردادية على يد خلفائه المقتدرين فى النصف  
الأول من القرن العاشر • وفى منتصف القرن العاشر كانت كل انجلترا فى  
أيديهم ، وصار ملوك وسيكس هم ملوك انجلترا • وظلت أعداد هائلة من  
المستوطنين الدانمرك مقيمة فى شمال وشرق انجلترا - واستغرقت عملية  
اندماج العادات الدانمركية والانجليزية أجيالا كثيرة - بيد أن الرد الحاسم  
للملوك وسيكس ضد التهديد الدانمركى بلور وحدة العالم - الأنجلو -  
سكسونى ، وتمخضت الام الغزوات عن ميلاد الحكومة الملكية الانجليزية

### تجدد الهجوم الدانمركى :

تمتعت انجلترا بالسلام النسبى ، والرخاء الاقتصادى فيما بين سنة  
٩٥٥ م الى سنة ٩٨٠ م وذلك بعد مرور جيل على غزو الجز الشمالى الشرقى  
من انجلترا على يد الدانمرك Danelaw • ان قامت الأساطيل الانجليزية  
الصغيرة بحماية الشواطىء ، وبدأت القلاع القديمة فى التطور الى مراكز  
تجارية ، وانكب رجال الكنيسة ، الذين وهبوا أنفسهم لله ، على أداء مهمة  
الاصلاح الديرى • غير أن السكان الدانمركيين فى شمال وشرق انجلترا  
ظلوا تابعين للحكومة الملكية الانجليزية الجديدة جزئيا • وباعتلاء الملك الطفل  
الغير مقتدر اثيلبريد غير المستعد Ethelbred Unready ( ٩٧٨ -  
١٠١٦ م ) للعرش ، بدأت الغزوات الدانمركية من جديد •



وتطورت الغزوات الجديدة الى حملة فتح تحت قيادة الحكومة الملكية الدانمركية . واتصف الدفاع الانجليزى بعدم المقدرة ، والخيانة ، والذعر المصحوب بالهرب الجماعى . وفى سنة ٩٩١ م بدأ اثيلريد دفع اناوة الى الدانمرك ، والتي عرفت فيما بعد باسم ضريبة التاج الدانمركى Danegeld . وفى السنوات التالية تطورت ضريبة التاج الدانمركى الى ضريبة أرض ، كانت مفيدة للحكومة الملكية الانجليزية الى حد كبير . بيد أنه بمرور الوقت أصبحت رمزا للذل الشديدي . وفى سنة ١٠١٦ م هرب اثيلريد من البلاد كلية ، وفى السنة التالية أصبح الملك كانوت Canute ملك الدانمرك ملكا على انجلترا ( ١٠١٧ - ١٠٣٥ م ) .

وذكرت أوصاف كانوت على أنه كان قزما ، وعبقريا بشكل واقعى جدا . وهزم النرويج كما هزم انجلترا ، وضم هذين البلدين الى مملكة الدانمرك . وبذلك صار سيدا على امبراطورية متغايرة الخواص ، وكبيرة ، وتتمركز فى بحر الشمال . ولم يكن كانوت متعطشا للدماء ، اذ كان نتاجا للقوى المتحضرة الجديدة ذات الأثر الفعال فى اسكنديناو Scandinavia . فى القرن الحادى عشر ، وأصدر مجموعة قانونية ، وطبق تعاليم المسيحية ، وأطاع القوانين . ونظرا لتخصيصه معظم وقته لانجلترا ، فانه القى بنفسه ، كملك انجليزى بين أحضان تراث وسيكس Wessex القديم . واحترم وأيد الأعراف القديمة للبلاد ، وأعقد العطاء على الأديرة بسخاء . وبالرغم من خلفيته الدانمركية ، فانه كان أفضل بكثير من العاهل الانجليزى اثيلبريد Ethelbred ، وكان عهده استمرارا للماضى ، الى حد كبير ، اذ أضاف رونقا وبهاء للتاج الذى كان قد زيفته أسرة الفريد . وازدهر الدين ، وازدهرت الثقافة كما كان الحال من قبل : « وغنى الرهبان الى ايلى » . وبرز عندما مر عليهم الملك كانوت .

على أن امبراطورية كانوت الانجليزية النرويجية الدانمركية الضخمة تفككت بشكل مأساوى منه ، ولم يقدر لها البقاء بعد موته سنة ١٠٣٥ م . وعندما مات آخر أبنائه سنة ١٠٤٢ م ، انتقلت المملكة الى ادوارد المعترف Edward the Confessor سلميا ، أحد أفراد أسرة وسيكس القديمة الذى تربى فى المنفى فى نورماندى Normandy .

وكان ادوارد المعترف قائدا عاجزا ، ورجل ادارة عاليا ، بيد أنه

كان رجلا تقيا بكل صدق . ونجح فى كسب محبة شعبه على الرغم من عدم  
مقدرته السياسية . ونتج عن تمسكه الدينى بعفة النفس قيام منازعات على  
الخلافة عند موته ١٠٦٦ م . ومهد السبيل للفتح النورماندى . وعندما غزا  
وليم الفاتح William the Conqueror «دوق نورماندى» انجلترا  
وقاز بتاجها سنة ١٠٦٦ م ، فانه ورث مملكة مزدهرة لها تراث قانونى  
وسياسى منظم وقوى - مملكة ظلت مقسمة بسبب الاختلاف فى العادات ،  
بيد أنها تدين الاحترام العميق للسلطة الحاكمة . وعلى الرغم من أن  
اثيلبريد الغير مستعد كان على العرش فان أسرة وسيكس أدت دورها على  
مايرام . اذ قام خلفاؤه بتشبيد بناء فسيح وقوى بالأخشاب التى كان قد  
جمعها الفريد .

#### ردود فعل الغزوات - النظام الاقطاعى الفرنسى :

كانت الغزوات على انجلترا دافعا على الاتجاه صوب توحيد التاج  
الملكى . وأما فى فرنسا ، فان الغزوات شجعت على تفتيت السلطة السياسية  
الى وحدات محلية صغيرة . ويمكن تفسير هذا التناقض الظاهرى الى حقيقة  
أن فرنسا ، على عكس انجلترا ، كانت كبيرة جدا الى الحد الذى يصعب  
على الفايكنج اخضاعها . وبالرغم من استقرار الكثيرين من الفايكنج فى  
نورماندى ، فان تهديد الاسكندنافيين الرئيسى لفرنسا جاء على شكل حملات  
للسلب والنهب أكثر منها كجيوش فاتحة . وكانت المسافات شاسعة جدا ،  
والمجتمعات بدائية جدا ، ومن العسير السيطرة على قوات حراسة الحدود  
الوطنية بالقدر الذى يسمح للملك أن يتولى قيادة الدفاع عن مملكته .  
وآلت المسئولية العسكرية الى السادة الاقطاعيين المحليين الذى انعقد عليهم  
الأمّل فى حماية المناطق الزراعية من هجمات الفايكنج الخاطفة والمرعبة ،  
وأصبح الكارولنجيون الفرنسيون ضعافا بشكل متزايد الى أن انتقل التاج  
فى نهاية الأمر سنة ٩٨٧ م الى أسرة جديدة - أسرة كابيه Capetians .  
وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قدمت أسرة كابيه بعضا من أشهر  
ملوك فرنسا بيد أنه حتى ذلك الحين كانت الأسرة الجديدة من الضعف مثل  
الأسرة القديمة . فبعد سنة ٩٨٧ م ، كما كان الحال قبلها فاق النبلاء  
الملوك . وبرغم كل ذلك ، يستطيع المرء القول أن الملكية الفرنسية ظلت باقية  
فى تلك السنين الكثيرة .

وشهد عصر الفايكنج ميلاد الاقطاع فى فرنسا . وبمعنى صحيح كان الاقطاع نتاجا لرد فعل فرنسا تجاه الغزوات ، ومع ذلك ، كان هناك احساس آخر بأن فرنسا قد اتجهت منذ أمد بعيد تجاه النظام الاقطاعى . ان جذور الاقطاع امتدت على نحو عميق ، اذ أن أحد هذه الجذور كان الالتزام الشهير بالاخلاص والولاء والخدمة العسكرية التى كان يقدمها المحارب للسيد الاقطاعى - وهو الذى ميز العلاقة بين السيد الاقطاعى الذى يقطع لقاء تعهد المقطع بتقديم المساعدة العسكرية اليه منذ أواخر عهد الميروفنجيين ، وأوائل عهد الكارولنجهين ، وفى أوائل عهد الكوميتساتوس Comitatus الخاصة بالبرابرة الجرمان . وهناك أصل آخر للاقطاع وهو مفهوم ظهر فى أواخر الامبراطورية الرومانية المتأخرة والعصور الوسطى الباكرة وهو الخاص بحياسة الأرض مقابل تأدية الخدمات للشخص الذى منح الأرض . وعرفت الأرض الزراعية التى حصل عليها المستأجر لقاء تقديم خدمات باسم « الأرض المقطعة » benefice .

وخطا شارل المطرقة Charles Martel خطوة هامة نحو الاقطاع ، وذلك بربطه بين أنظمة الأرض المقطعة ، وحالة المقطع ، ووضعه ، والخدمات المفروضة عليه . وقام بعمليات مصادرة لممتلكات الكنيسة بشكل ثقيل الوطأة ، ومنح تلك الأراضى الزراعية التابعة للكنيسة لأفصاله العسكريين . وهناك أسباب عديدة لهذه الخطوة . اذ كانت السيولة النقدية غير متوفرة على امتداد العصور الوسطى الباكرة ، وكان من المستحيل تقريبا بالنسبة لحاكم ان يقدم الأجور الى جنوده . وفى غالب الأحوال كان السيد الاقطاعى الفرنجى يطعم ويأوى أتباعه فى داخل منزله . والواقع أن ، ( الفارس المقيم فى بيت السيد الاقطاعى » استمر طوال العصر الاقطاعى ، بيد أن هؤلاء المحاربين الأفضال ، أظهروا رغبة متزايدة وملحة بشكل دائم للحصول على الأرض ، نتيجة لتزايد أهميتهم العسكرية ، ولذلك منحهم سنساعاتهم الاقطاعيون الأراضى الزراعية - اقطاعات - مقابل ولائهم وخدماتهم .

وارتبط هذا الاتجاه بالثورة العميقة فى فن تنظيم القوى الحربية وتحريكها للقتال الفرنجى ، الذى حدث حوالى سنة ٧٣٠ م . فقبل هذا التاريخ كان الفرنجة جند مشاة فى أغلب الأحوال . ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصبح استخدام الفرسان مهما أكثر ، اذ على مدى قرن ونصف أصبح استخدام الفرسان مهما بكل ما فى الكلمة من معنى . وكان المحارب الفرنجى

الذى لا ينازعه أحد فى ذلك الحين ، هو الفارس الذى يمتلئ صهوة جواده ، ومدرع بالدرع ، والذى كان أكثر فعالية عن جندى المشاة بكثير ، وإن كان أكثر نفقات فيما يتعلق بالتكاليف والانتفاق عليه . إذ كان الفارس يحتاج الى فارس مدرب تدريباً حسناً ، ودرع ثقيل ، وأسلحة ، وعدد من الرجال الذين يسهرون على خدمته ، ويستغرق تدريبه عدة سنوات . ولهذا السبب كان اتجاه السيد الاقطاعى الى منح أفضاله الفرسان اراضى زراعية مقابل خدماتهم بشكل مستمر . وبالطبع لم يكن الفارس يعمل فى حقوله ، وعلى الأصح كان يديرها ، ويحصل على ايراد الاقطاع ، الذى كان فى أغلب الأحوال عينا لا نقداً ومن المزارعين .

وكان المقطع الحربى الكارولنجى من الناحية التقليدية فارساً . ولما كان فى الحرب الفروسية له الهيمنة فى الحرب ، لذلك انتشرت عادة المقطعية *vassalage* انتشاراً واسعاً . وفى عصر شارلمان تعهد أقطاب الفرنجة الكبار بالولاء لامبراطورهم ، وبذلك اعترفوا بأنهم أتباعه وأنه سيدهم الاقطاعى . وزيادة على ذلك ، فإن هؤلاء الأتباع الملكيين ، كان لهم أتباع يدينون بالولاء لسادتهم الاقطاعيين المباشرين أكثر من ولائهم للامبراطور . ووافق شارلمان نفسه على هذه الحال ، وشجع حرية مملكته فى أن تكون جماعة من الأتباع المقطعيين التابعين للسادرة الاقطاعيين الكبار . وفى زمن الصرب قام أتباع الأتباع أو الأتباع الأدنى *Sub vassals* بالانضمام الى فرق سادتهم الاقطاعيين العسكرية التى بالجيش الملكى . وكانت الاتجاهات التى لا تدين بالولاء بالكامل للسلطة العليا واضحة فى ذلك النظام . مع ذلك كان هدف شارلمان وجود قوات للخدمة مترابطة . ونظراً لعدم وجود الموارد المالية الكافية للانفاق على جيش محترف يدين بالولاء له ، فإنه كان مضطراً الى الاعتماد على هذا النظام الهرمى من السلطة والولاء الذى كان يعوزه الاستقرار .

ونتيجة لغياب شخصية شارلمان القوية ، وتحت ضغط الغزوات بدأ التسلسل الهرمى الواهن يتفتت الى عناصره الأساسية . واتجه موظفوا الأقاليم القمادى الذين عملوا فى عهد شارلمان ، وحكام الدوقيات والنبلاء ، والحكام العسكريون لمناطق الحدود يساندتهم أتباعهم المقطعيين ، الى اغتصاب الحقوق الملكية ، والدخل الحكومى من ضرائب الى ماشابه ذلك ، وأقاموا العدل ، وجمعوا الضرائب دون الأخذ بعين الاعتبار للارادة الملكية .

وبمرور الوقت بنوا القلاع وتحملوا كل المسئولية من أجل الدفاع عن مناطقهم .  
وبقى هؤلاء الأقطاب الاقطاعيون أتباعا لملك فرنسا من الناحية الاسمية فقط ،  
بيد أنهم تحولوا بسرعة الى درجة من القوة الهائلة التى لا يمكن للتاج من  
اجبارهم على الطاعة ، كونوا لهم أتباعا أدنى ، أو أتباعا لأتباع الأتباع .  
وربما تدرجت العلاقة بين السيد الاقطاعى وتابعه المقطع الى حوالى عشر  
أو عشرين مستوى ، وذلك إبان أوج قوة عصر الاقطاع . ومن النادر وجود  
تابع اقطاعى لم يكن سيدا اقطاعيا للبعض الذين ظلوا أتباعا أقل فى المستوى  
الاقطاعى .

ووصفت النتائج النهائية لتلك التطورات « بالفوضى الاقطاعية » . والى  
حد ما كان اختيار هذا التعبير صادقا الا أنه لا يصح أن يحملنا على الاعتقاد  
أن الاقطاع ليس سوى « شيئا سيئا » . والواقع أن وجود حسالة عدم  
الاستقرار فى عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وكذلك الحالة ألباعثة على  
اليأس فى فرنسا فى عصر الفايكنج ، كل ذلك كان دافعا لظهور الاقطاع  
كاجراء واقعى للتوفيق والعلاج لحقائق العصر التى لا سبيل الى انكارها .  
ويجب ألا ننسى أنه فى الوقت الذى استسلمت فيه أوروبا الرومانية للغزاة  
البرابرة فانها ظلت باقية برغم زوال الغزاة الذين استوعبتهم فى النهاية .

ووصل الاقطاع الفرنسى ذروته فى القرنين العاشر والحادى عشر .  
وكان الاقطاع الحربى هو نمط الاقطاع الفرنسى ، فالسيد الاقطاعى كان يمنح  
تابعه المقطع الأراضى الزراعية فى مقابل الولاء والخدمة . وكانت خدمة  
عسكرية فروسية فى المقام الأول . وعرف هذا الاقطاع العسكرى باسم اقطاعه  
fief . وكان هذا النظام الاقطاعى استجابة منطقية لمتطلبات الدفاع  
المحلى ، واستمرار قدر ما من سلطته السياسية على الأقل ، ونُدرة الأموال  
التي حتمت منح الأرض مقابل الخدمة بدلا من دفع الأجور المالية . لذلك  
كان السيد الاقطاعى الكبير يمنح الأراضى الزراعية - الاقطاعية - الى  
تابعة المقطع . ويقوم التابع المقطع بدوره بمنح قطعة أرض زراعية من  
الأرض التى حصل عليها من السيد الاقطاعى الكبير - اقطاعة أخرى الى  
تابعه المقطع . وهكذا استمرت عملية منح الاقطاعات باستمرار الى الأدنى  
فالأدنى منه . ونتيجة ذلك وجود أرسقراطية قائمة على الفروسية ، وصارت  
الأرض موزعة على شكل مسلسل هرمى ، حيث التزم كل فارس بالولاء  
والخلاص للأمير الاقطاعى - ونعنى بذلك ، يأخذ على نفسه عهدا بالولاء

الشخصى لسيده الاقطاعى المباشر ، الذى يعيش على نتاج الأعمال التى يؤديها الفلاحون التابعون ، الذين يفلحون الحقول فى اقطاعه . وقام كل تابع مقطع بإدارة محكمة وإقامة العدالة بين هؤلاء الخاضعين له .

تلك كانت المقومات الأساسية للاقطاع . وهو التعبير الذى أسىء استعماله وفهمه . والواقع أنه من الصعب جدا تعريف الاقطاع ، وإذا ما رغبتنا فى تلخيص موضوع منح الاقطاعات بشكل كامل ، فالتنا لن نجد أفضل من أن نكرر تعريف المؤرخ الفرنسى مارك بلوش Marc Bloch أعظم العلماء الجديين دراسة للاقطاع فى العصور الوسطى :

« الفلاحون أتباع فى النظام الاقطاعى ، وتقديم الخدمات مقابل الحصول على قطعة أرض زراعية ( ونعنى بها الاقطاعية fief ) بدلا من منح راتب ، الذى كان غير وارد . وفيه سيادة لطبقة من المحاربين المتخصصين ، والتزامات للطاعة والحماية . وفى نطاق الطبقة المحاربة ، اتخذ النمط المميز الذى أطلق عليه جماعة المقطعين ، والسلطة فى النظام الاقطاعى متفتتة - ومؤدية حتما الى الفوضى ، وفى غمرة هذا كله ، فإن الأنماط الأخرى من الارتباطات ، والأسرة والدولة قدر لها البقاء ٠٠٠ - تلك كانت على ما يبدو المقومات الأساسية للاقطاع الأوروبى » .

وبوجود هذا التعريف فى الحسابان ، فربما يكون من المفيد التأكيد على بعض الأحوال التى ليست من الاقطاع فى شيء . إذ أن الاقطاع لم يكن نظاما متماثلا بشكل عام وشامل . ونظرا لمظهر الاقطاع فى فرنسا فى عصر الفايكنج ، فإنه اتخذ أشكالا مختلفة وكثيرة عندما انتشر فى أنحاء أوروبا . وفى شمال فرنسا نفسها فإنه تنوع من إقليم الى آخر الى حد بعيد . كما أن الاقطاع لم يشمل كل الأراضي الزراعية على الإطلاق لأنه حتى فى أوج الاقطاع ، لم يكن كثير من ملاك الأراضي مدينين بالالتزامات الاقطاعية ومن تكن تربطهم أية روابط اقطاعية . إذ كان النظام الاقطاعى التسلسل أو الاقطاع الهرمى « يكتنفه الغموض : حيث كان فى أماكن التابع الاقطاعى الواحد الحصول على العديد من الاقطاعات من عدة سادة اقطاعيين ، كما كان فى

---

\* Bloch ; Feudal Society, p. 446.

امكان السيد الاقطاعى الحصول على اقطاع من تابعه الاقطاعى ، وبذلك الوسيلة واضعا نفسه فى مركز اجتماعى شاذ لكونه تابعا اقطاعيا لتابعه الاقطاعى . وأما عن مدى الغموض الممكن حدوثه فى النظام الاقطاعى ، فان ذلك يتضح عند دراسة وثيقة نمطية لذلك العصر :

« أقر أنا حنا من تول John of Toul ، اثنى تابع مقطع للسيدة : بيستريك Lady Beatrice ، صاحبة الاقطاع ، كونتس تروى Countess Of troyes ، وتابع لابنها ثيوبولد Theobald كونت شامبين Champagne ، ضد كل شخص حيا كان أم ميتا ماعدا ولاتى واخلاصى لسيدى انجوراند من كوسى Lord Enjurand of Coucy صاحب الاقطاع ، وحنا من أركيز Lord John of Arcis وكونت جراندبر (Count of grandpre) ، وإذا ماحدث أن كونت جراندبر كان فى حالة حرب ضد الكونتيس وكونت شامبين ، فانى سأقوم بمساعدة كونت جراندبر بشخصى ، وسأساعد كونت وكونتيس شامبيين وذلك بارسال الفرسان اليهم الذين أنفق عليهم فى الاقطاعية Fief التى حصلت عليها منهما » .

وهناك الكثير جدا عن النظام الاقطاعى !

ولم يكن الاقطاع ، فى ذروته ، مرتبطا بمهمة الفارس ذات الطابع البطولى ، أو القلعة المتعددة الأبراج أو المرأة المستقيمة التى يدين لها الفارس بالولاء The Lady fair . إذ لم يكن الفارس فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر محاربا على مستوى عال من الكفاية والمقدرة ، فكان درعه عاديا ، ولم يكن جواده مدريا تدريبيا كافيا ، وقلعته ليست سوى برج خشبى غير قوى ، مقامة فى أعلى ربوة ترابية ، وأما عن المرأة التى يدين لها بالولاء فلم تكن الا ساقطة فى متناول اليد ، وتطور نظام الفروسية بعد فترة من الوقت . وبلاشك ليس قبل اضمحلال أسس النظام الاقطاعى القديم عند ظهور النهضة التجارية والنظام المالى وظهور حكومات ملكية قوية . وحينئذ فقط تم تطويع الاقطاع ليصبح فروسيا . وحينئذ فقط سعى الفارس الى اخفاء فائدته الاجتماعية المتدهورة بالاتجاه الى استعمال أوربا فى العصور الوسطى .

الدرع المصقول والأربطة والذى المزركش ، والعبارات المهذبة ، والقلاع  
المجهزة بكل الوسائل المريحة .

ولم يكن الاقطاع حربيا كلية . اذ لم يكن التابع المقطع ملزما بتقديم  
الخدمات الحربية فحسب ، وانما كان عليه أن يقوم بتأدية مجموعة متنوعة  
من الالتزامات الاضافية أيضا . ومن بين تلك الالتزامات واجبه فى الانضمام  
الى حاشية سيده الاقطاعى فى جولاته بالريف ، وعليه أن يقدم الخدمة فى  
ساحة القضاء الخاصة بسيده الاقطاعى اذا ماطلب منه ، وأن يقدم الطعام  
والماوى والاستضافة الى سيده الاقطاعى وحاشيته ابان زيارتهم المتكررة  
الحدوث فى فترات قصيرة ، وبشكل أكثر مما ينبغى تماما ، وأن يقدم  
الأموال الى سيده الاقطاعى فى مناسبات معينة ومتنوعة ، وأن يساهم فى دفع  
قضية سيده الاقطاعى اذا ماقدر له الوقوع أسيرا فى معركة . وصارت  
الاقطاعة وراثية فى تاريخها الباكر ، بيد أن السيد الاقطاعى احتفظ بحق  
مصادرة الاقطاعة اذا ما مات تابعه المقطع دون ورثة . واحتفظ بحسب  
الاشراف واستثمار الاقطاعة فى حالة وجود قاصر ، وأن يمارس سلطة حق  
السرفض Veto اذا مارغبت أرملة حائز الاقطاعة الزواج . وفى مقابل  
تلك الحقوق ، كان السيد الاقطاعى مجبرا على حماية وتأييد مصالح أتباعه  
المقطعين . ان جوهر الاقطاع هو مفهوم الحقوق والواجبات المتبادلة ،  
ونتيجة لذلك لعبت وجهة النظر الاقطاعية دورا أساسيا فى توجيه أوربا  
العصور الوسطى بعيدا عن الأوتوقراطية والاستبدادية .

وإذا ماحاولنا وصف الاقطاع بدقة ، يمكن القول أنه لم يكن نظاما  
يشمل كل المجتمع من القن الى الملك . وبالرغم من أن الاقطاع مرتكز على  
عمل المزارعين ، فان اطواره العام شمل طبقة المحاربين من السادة  
الاقطاعيين والإتباع المقطعين فحسب . وباختصار ، فهناك بون شاسع بين  
التابع المقطع والقن . واستمر حوالى ثمانين أو تسعين فى المائة من السكان  
يفلخون الأرض تحت مرتبة طبقة المحارب الاقطاعى . وفى كتاب عن هذا  
النوع لنا أن نناقش أسلوب حياة المزارع بتفصيل تام عن « المزرعة التقليدية  
فى العصور الوسطى » بيد أن النظام الزراعى كان من الناحية الواقعية  
مختلفا اختلافا بينا ، وإذا ماناقشنا المزرعة التقليدية فى العصور الوسطى،  
فان ذلك سيكون عديم الجدوى ، كما لو كنا نناقش عملا تجاريا أو صناعيا



امريكيًا تقليديًا • إذ تكشف الزراعة في العصور الوسطى عن اختلافات لا حصر لها • إذ تراوحت بين مزارع صغيرة إلى عزب كبيرة موزعة بين حقول المزارعين ومجموعات الحقول التي يمتلكها السيد الإقطاعي • وتفاوت المزارعون أنفسهم ما بين عبيد وأحرار ، بالرغم من أن الغالبية العظمى منهم فيما بين القرنين التاسع والعاشر شغلوا حالة متوسطة بالنسبة لهذا التفاوت ، وعرفوا باسم الأحرار أو الأقنان ، الذين كانوا مرتبطين بالأرض على مثال الأقنان الرومانيين Roman Coloni ، وعليهم سداد التزامات متعددة ، كانت في الغالب عينية وليست نقدية ، إلى سيدهم الإقطاعي صاحب المزرعة ، الذي كان تابعًا إقطاعيًا من فئة الفرسان • وكان طبعًا أن يقوموا بالفلاحة عنده أيام محددة كل أسبوع في حقول السيد الإقطاعي • بيد أنهم لم يكونوا عبيدًا مملوكين • فمن الناحية القانونية لم يمكن بيعهم أو انتزاع حقولهم التي ورثوها • فبعد دفعهم الالتزامات للسيد الإقطاعي يصبح ماتبقى مما أبتجوه ملكًا خاصًا لهم ، على أنهم كانوا في وضع لا يحسدون عليه •

وان حالة الفوضى العامة الإقطاعية في القرنين التاسع والعاشر ، تفتيتها الشديد لسلطة السيادة وبحروبها الخاصة المستمرة ، أفسحت المجال رويدا رويدا لطريقة للحكم والادارة خاضعة للنظام إلى حد ما ، وذلك عندما قامت شخصيات كبرى من أصحاب الأقاليم من أمثال كونت أنجو Count of Anjou أو دوق نورماندى duke of Normandy ، يتوسّع حدودهم على حساب الجيران الأضعف ، وشددوا من قبضتهم على أتباعهم الإقطاعيين وأتباع أتباعهم • غير أنه لم يبدأ ظهور الملوك الفرنسيين فوق مستوى أقطاب الإقطاع الكبار قبل القرن الثاني عشر حيث استطاعوا فرض سلطتهم الحقيقية على المملكة • فقد كان عصر الإقطاع فترة خسوف حقيقي للتاج الفرنسي •

### ردود فعل الغزوات - ألمانيا :

كان رد فعل غزو إنجلترا هو اتحاد المملكة ، أما رد الفعل في فرنسا كان ظهور الإقليمية الإقطاعية • غير أن رد الفعل في ألمانيا اختلف عما حدث في إنجلترا وفرنسا ، نتيجة للسمة الخاصة للغزوات التي واجهتها ألمانيا من ناحية ، وللأحوال الفريدة التي سادت ألمانيا نفسها من ناحية ثانية • فالمملكة

الفرنجية الشرقية - التي تطورت مباشرة الى الدولة الألمانية فى العصور الوسطى - كانت معرضة لغزوات الفايكنج ، بيد أن التهديد الحقيقى أتى من الفرسان الهنغاريين بالشرق ، واثبت الملوك الكارولنجيون المتأخرون - خلفاء لويس الألمانى ، أنهم غير جديرين بالتصدى لغارات الهنغاريين ، فكما حدث فى فرنسا ، انحدرت السلطة الحقيقية الى أيدي كبار الشخصيات فى الدولة . غير أن تلك الشخصيات الكبيرة لم تكن من طبقة الموظفين الكارولنجيين الذين يحملون لقب دوق أو كونت . فمعظم ألمانيا ظلت خارج السيطرة الفرنجية حتى الفتوحات الكارولنجية فى القرن الثامن ، ونتيجة لذلك قام النظام الفرنجى فى الادارة المحلية على أسس غير سليمة . اذ ظل الشعور القبلى القديم عند السكسون Saxons ، والبافاريين Bavarians ، والسوابيين Swabians ، قويا . وفى العقود الحرجة فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر استغل الاستقراطيون الطموحون هذه الثغرة القبلية ، وفرضوا سيطرتهم على المناطق القبلية القديمة . واستعمل هؤلاء الانتهازيون لقب دوق ، وصارت الأقاليم التى تحت حكمهم تعرف باسم الدوقيات القبلية Tribal Duchies . وحاول هؤلاء الأدواق « القبليين » السيطرة على الهيئات الكنسية المحلية ، والاستيلاء على الملكيات الزراعية الكارولنجية فى وقياتهم ، ثم اغتصاب السبلطة الملكية . كما أنهم تحملوا مسئولية التصدى للتهديد الهنغارى .

وفى أوائل القرن العاشر كان هناك خمس دوقيات قبلية مهمة سكسونى Saxony ، بافاريا Bavaria ، سوابيا Swabia ، فرانكونيا Franconia ، ولورين Lorraine . واندمجت كل من سكسونى ، وسوابيا ، وبافاريا فى الدولة الكارولنجية من الناحية الظاهرية فحسب فى حين أن فرانكونيا ولورين كانتا فرنجيتين بقوة أكثر من وجهة النظر والتنظيم .

والواقع أن الأدواق القبليين الخمسة كان من الممكن أن يصبحوا سادة ألمانيا ، غير أن طموحاتهم لم تحقق نتيجة لعاملين مرتبطين ارتباطا وثيقا ، ( ١ ) قسطنطى فى كبح جماح الهنغاريين ، ( ٢ ) وظهور قوة الحكومة الملكية الألمانية فى عهد أسرة جديدة مقتدرة . وكانت الأسرة الكارولنجية قد انتهت فى ألمانيا سنة ٩١١ م بموت الملك لويس الطفل . وخلفه أولا دوق فرانكونيا

ثم دوق سكسونى سنة ٩١٩ م - أو سلسلة من الملوك المشهورين واللامعين الذين بنوا سلطتهم الملكية عند هيمنتهم على دوقية سكسونى القوية .

وناضل الملوك السكسون بكل قوة من أجل فرض نفوذهم على الدوقيات القبلية . وكانت دوقية سكسونى فى ذلك الحين تحت سلطة الحكومة الملكية ، كما امتدت سيطرة الملوك السكسون على فرانكونيا بسرعة أيضا . غير أن دوقيتى سوابيا وبافاريا الجنوبيتين والشبه مستقلتين ظلتا تمثلان مشكلة - كما أن النصر الحقيقى لحكومة السكسون الملكية تحقق فى عهد أوتو الأول Otto I ( ٩٣٦ - ٩٧٣ م ) ، ثانى وأعظم ملوك السكسون .

وكرس أوتو الأول أو أوتو الكبير ، كما كان يطلق عليه هذا اللقب فى غالب الأحوال ، قدراته المتعددة لتحقيق أهداف ثلاثة بصفة دائمة : ( ١ ) الدفاع عن ألمانيا ضد الغزوات الهنغارية ( ٢ ) إقادة سلطة ملكية على الدوقيات القبلية الباقية ( ٣ ) امتداد السيطرة الملكية الجرمانية لقشمل المملكة الوسطى الغير مستقرة والمنهارة التى كانت معاهدة فيردون Treaty of Verdun ، قد جعلتها من نصيب الامبراطور لـوثر Lothar سنة ٨٤٣ م . ولقد شاهدنا من قبل كيف بدأت المملكة الوسطى المتغايرة الخواص فى الانقسام اربا اربا بعد موت لوثر . وبحلول منتصف القرن العاشر كانت هذه المملكة الوسطى قد أصبحت مناطق سياسية متقطعة الأوصال ومضطربة . فاستولت ألمانيا على أجزاء منها ، واستولت فرنسا على أجزاء أخرى ، بيد أن المناطق الجنوبية - بورجوندى Burgundy وإيطاليا احتفظت باستقلال غير واضح المعالم . ولما كانت كل من دوقيتى سوابيا وبافاريا لديهما أفكار بشأن السيطرة على تلك الأقاليم ، لذلك سارع أوتو الكبير ، وكان له السبق على القوى المنافسة له ، وقاد جيوشه صوب إيطاليا سنة ٩٥١ م ، واتخذ لقب « ملك إيطاليا » .

ومنذ سنة ٩٥١ فصاعدا ، توالى الأحداث سريعا . إذ كان أوتو الكبير مضطرا الى مغادرة إيطاليا على عجل لقمع ثورة خطيرة فى ألمانيا . ومكنه نجاحه على الثوار من توطيد سلطته على ألمانيا بشكل أقوى من ذى قبل ، وفى سنة ٩٥٥ كسب أوتو الكبير معركة العصر الحاسمة ، عندما قضى على الجيش الهنغارى قضاء مبرما - عند ليشفيلد Lechfeld .

حيث أنهى نهائيا ، وعلى نحو حاسم تهديد الهنغار على جناح السرعة .  
وخدمت موقعة ليشفيلد كدليل قوى للسلطة الملكية - وإثبات لادعاء الملك ،  
أنه هو المدافع الحقيقى عن ألمانيا وليست الدوقيات القبلية . إذ تم دحر  
الهنغاريين ، وظلت ألمانيا الشرقية مفتوحة أمام التغلغل الشرقى التدريجى  
للثقافة المسيحية . وانتهى عهد الدوقيات القبلية وسادت الحكومة الملكية .  
وفاق أوتو الكبير معاصريه كأقوى ملك للمغرب والأقوى منذ عهد شارلمان .  
وانتهت الغزوات على ألمانيا ، والتي بدأت بنهوض الدوقيات القبلية بالمساهمة  
فى احياء السلطة الملكية .

### الامبراطورية الألمانية :

بعد موقعة ليشفيلد ظل أمام أوتو الأول عمل « مهم فى حاجة الى  
الانجاز » فمنذ رحيل أوتو الأول عن إيطاليا استولى على عرش إيطاليا أحد  
الثوار الذى استمر فى مضايقة البابا . وردا على استغاثة بابوية - والتي  
توافقت كثيرا مع السعى وراء تحقيق مصالحه الشخصية - عاد أوتو الى  
إيطاليا بالقوة ، وهزم المغتصب ، واسترد التاج الايطالى . وفى سنة ٩٦٢ م  
نادى البابا بأوتو الأول كامبراطور رومانى ووضع التاج الامبراطورى على  
رأسه . وأن هذا الحدث التاريخى المهم ، وليس تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ م ،  
يشكل البداية الحقيقية للنظام المعروف فى العصور الوسطى باسم  
الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وإذا كانت أحداث سنة ٩٦٢ م حافلة  
بذكرىات سنة ٨٠٠ م ، الا ان امبراطورية أوتو الأول اختلفت عن امبراطورية  
شارلمان اختلافا كبيرا . وقبل كل شيء لم يقم أوتو الأول وخلفاؤه على العرش  
الامبراطورى بأى ادعاءات عالمية بشأن امتداد نطاق سلطتهم على فرنسا  
أو باقى العالم المسيحى الغربى . والواقع أن الامبراطورية الرومانية المقدسة  
فى العصور الوسطى لها جذورها فى أعماق الأراضى الألمانية ، وأخضع  
معظم الأباطرة المصالح الامبراطورية وفقا لمصالح الحكومة الملكية  
الجرمانية . فمنذ ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ٩٦٢ م وحتى  
زوالها الذى تأخر طويلا حتى أوائل التاسع عشر ظلت ظاهرة المانية  
بصفة أساسية .

ان الكتيّف الجرمانى لامبراطورية أوتو الأول وفقا للظروف وضح من  
الناحية السلوكية بناء على حقيقة أنه وكذلك غالبيّة خلفائه على مر القرنين

التاليين لم يبذلوا جهدا حقيقيا من أجل إقامة سيطرة محكمة على إيطاليا .  
فعندما زحفوا صوب جنوب الألب لم ينجحوا سوى بالاعتماد على أذهان  
الإيطاليين » ، وعندما عادوا إلى ألمانيا لم يتركوا خلفهم نظاما إداريا حقيقيا ،  
وإنما اعتمدوا كلية تقريبا على التحالف المتقلب مع بعض الأقطاب الإيطاليين .  
والحقيقة أن الأباطرة الجرمان في العصور الوسطى لم يتمكنوا من الاستقرار  
عبر جبال الألب على الإطلاق .

وكانت الأحوال مختلفة تماما في ألمانيا . فهناك تأخر ظهور الاقطاع  
لأكثر من قرن بعد تنويع أوتو . وصار كبار الأقطاب أتباعا إقطاعيين للملك .  
بيد أنه لم يكن لهم اتباع إقطاعيين تابعين لهم كما جرت العادة . وكانت  
الكنيسة هي الإدارة الرئيسية التي استغلها أوتو الأول وخلفاؤه في إدارة  
شئون الدولة . وفي فترة وجود بابوية ضعيفة سيطر الملوك الجرمان على  
الكنيسة داخل حدود مملكتهم . وشددوا قبضتهم على تنظيم التعيينات  
الكنسية المهمة .

وانتزع أوتو الأول سلطة تنظيم الكنيسة بنجاح في الدوقيات المختلفة  
من الأدواق الذين لم تعد لهم سلطة ، وبمعنى أدق كان الأساقفة الكبار  
ورؤساء الأديرة رجالا تابعين للملك . وجعل هؤلاء الرجال الكنسيون من  
أنفسهم نوابا لمالكين مثاليين . ولم يكن في مقدورهم جعل أراضيهم الزراعية  
وراثية ، فعند موت أسقف أو رئيس دير اعتاد الملك اختيار خليفة له ومن ثم  
ضمن أوتو الولاء والمقدرة السياسية للمديرين المالكين الكنسيين . وبعد  
سنة ٩٦٢ م نجح الملك الألماني في تعيين البابوات إلى حد ما . وكان لابد  
وأن يأتي وقت يثور فيه رجال الكنيسة على معاملة اليد العليا تلك ، غير  
أنه في عهد أوتو كان الوقت مازال بعيدا .

وان مركز أوتو السامي كمالك لكنيسة الامبراطورية كان يحى بالتأييد  
العرفي والنظري . إذ كان أوتو يعتبر أكثر من مجرد ملك علماني . كما كان  
ملكا وقسا *Rex et Sacredos* معترفا به دينيا بعد أن تم مسحه  
بزيوت البركة المقدس في الحفل الذي لازم تنويجه . وكان نائباً لله  
*Vicar of God* والرمز للمسيح الملك *Christ the king* —  
« القائد الطبيعي » للكنيسة في امبراطوريته . وفي السنوات الأخيرة من

عهده بدأت سلطته السياسية على الكنيسة والدولة تتوافق مع طموحاته العظيمة .

ووفر عهد أوتو الرائع الدافع للنهضة الفكرية الفعالة التي وصلت الى أوجها في عهد خليفته أوتو الثاني ( ٩٧٣ - ٩٨٣ م ) . وأوتو الثالث ( ٩٨٣ - ١٠٠٢ م ) . وقدمت « النهضة الأوتوية » سلسلة من العلماء ، رجال الادارة المقتدرين ، ومن أعظمهم جيربيرت من أوريلاك gerbert of Aurillac ، رجل الكنيسة الشهير - وهو البابا سيلفستر الثاني Sylvester II فيما بعد ( ت ١٠٠٣ ) . وزار جيربيرت أسبانيا وعان بمعلومات شاملة عن العلوم الاسلامية . وكان التراث الفكرى الاسلامى قد بدأ فى الانتقال الى العالم المسيحى الغربى أخيرا . وتمتع جيربيرت بذاكرة موسوعية ولو أنها لم تكن مبدعة . فكأستاذ للأدب الكلاسيكى ، وعلم المنطق ، والرياضيات ، والعلوم ، أدهش معاصريه بتدريسه الاعتقاد اليونانى - العربى أن الأرض كروية . وانتشرت شائعات أنه أحد السحرة ، وأنه على علاقة بابليس وأن كانت هذه الاشاعات تضاعلت عند اعتلائه كرسى البابوية . والواقع أن جيربيرت لم يكن ساحرا ، وإنما كان رمزا باكرا للنهضة الفكرية المهمة التى كانت أوربا على وشك الخضوع لها - انه كان بشيرا للعصور الوسطى العالية .

ولم يعد خلفاء أوتو الكبير فى حالة من القلق من جراء الدوقيات القبلية أو الهنغاريين ، غير أنهم كانوا مجبرين ، ككل الرعية على التغلب على المشكلات الجديدة ، وأن يدبروا الحلول الجديدة . وفى سنة ١٠٢٤ م انقرضت سلالة السكسون الحاكمة وحلت محلها أسرة فرانكونية Franconian Family عرفت باسم سلالة ساليان الحاكمة Salian dynasty ( ١٠٢٤ - ١١٢٥ م ) . وأفسح الدوقات القبليون المجال الى طبقة أرسقراطية اقليمية الراغبة فى الاستقلال والتى كلفت الأباطرة الكثير . ومع ذلك ظلت سلالة ساليان قادرة على المحافظة على قوتها .

أوربا قبيل العصور الوسطى العالية :

ويحلول سنة ١٠٥٠ م كانت كل من انجلترا وألمانيا مستقرة نسبيا

ومنظمة تنظيميا حسنا . أما الحكومة الملكية الفرنسية فكانت ضعيفة ولم تتمكن من الاتجاه صوب السيطرة على فرنسا الا فى مدى قرن آخر . هذا فى الوقت الذى تمكنت فيه الامارات الاقطاعية مثل نورماندى Normandy ، وفلاندر Flanders ، وأنجو Anjou من التقدم بخطوات حميدة تجاه التماسك السياسى . واذا كانت الحروب ظلت قائمة ، الا أنها بدأت تقل نتيجة لتحرك أوروبا تجاه الاستقرار . وقبل كل شئ انتهت الغزوات - وانتهى الحصار . فالعالم المسيحى الغربى استوعب العالمين الهنغارى والاسكندينافى ، وأما الاسلام فكان فى موقف دفاع فى ذلك الحين . كما أن عودة الرخاء الاقتصادى ، والزيادة فى انتاج الطعام ، وازدياد تعداد السكان ، ونشاط التجارة ، وزيادة فعالية النشاط الفكرى كل ذلك جميعا يشر بمجىء عصر جديد . وكانت الحضارة الغربية فى مستهل تقدم سريع مبدع ، وممتاز وهو الذى قدر لها أن تحول العالم بشكل جوهري .

#### الجدول الكرونولوجى لعصر الحصار وأثاره

##### انجلترا :

|        |      |  |
|--------|------|--|
| حوالى  | ٧٨٧  | الغارة الدانمركية الاولى .                           |
| ٨٧١ -  | ٨٩٩  | عهد الفريد   |
| ٨٧٨    |      | موقعة ادينجتون .                                     |
| حوالى  | ٩٥٤  | استرداد اراضى الجزء الشمالى الشرقى من انجلترا كلية . |
| ٩٧٨ -  | ١٠١٦ | عهد اثيلريد .  |
| ١٠١٧ - | ١٠٣٥ | عهد كانوت .  |
| ١٠٤٢ - | ١٠٦٦ | عهد ادوارد المعترف .                                 |
| ١٠٦٦   |      | غزو النورمان لانجلترا .                              |

##### فرنسا :

|       |     |               |
|-------|-----|---------------|
| ٨١٤ - | ٨٤٠ | لويس الثقى .  |
| ٨٤٠ - | ٨٧٧ | شارل الأصغر . |

|   |     |
|---|-----|
| معاهدة فيردون *                         | ٨٤٣ |
| الاعتراف بنورماندى *                    | ٩١١ |
| أسرة كابيه تحل محل الأسرة الكارولنجية * | ٩٨٧ |

المساقبة :

|                                  |             |
|----------------------------------|-------------|
| لويس التقي *                     | ٨٤٠ - ٨١٤   |
| لويس الجرمانى *                  | ٨٧٦ - ٨٤٠   |
| معاهدة فيردون *                  | ٨٤٣         |
| أرنولف يهزم الفاينج *            | ٨٩١         |
| عهد أوتو الكبير *                | ٩٧٣ - ٩٣٦   |
| أوتو يهزم الهنغارين فى ليشفيلد * | ٩٥٥         |
| تتويج أوتو امبراطورا *           | ٩٦٢         |
| عهد أوتو الثانى *                | ٩٨٣ - ٩٧٣   |
| عهد أوتو الثالث *                | ٩٨٣ - ١٠٠٢  |
| صوت جيرميرت من أودريلاك *        | ١٠٠٣        |
| عهد هنرى الثالث *                | ١٠٣٩ - ١٠٥٦ |



**Suggested Readings :**

The asterisk indicates a Paperback edition.

**General Histories of the Early Middle Ages.**

Margaret Deanesly, *A History of Early Medieval Europe, 476-911.* (2nd. ed., Methuen) An excellent, Accurate and highly detailed text. H. St. L.B. Moss *the Birth of the Middle Ages* (\* Oxford) A brief, thoughtful survey running from the Principate through Charlemagne.

J.M. Wallace — *Hadrill, the Barbarian West* (\* Horper) Still more condensed; the discussion of the Carolingian — Renaissance is especially illuminating.

William C. Bark, *Origins of the medieval World* (\* Anchor) Apovoctwe interpretive study.

Robert Lautoche, *The Birth of Western Economy* (A splendid up To-date account of early medieval economic trends).

M. L.W. Laister, *Thought and Letters in Western Europe, A.D. 500 to 900* (rec. ed., Methuen).

The best intellectual history of the period.

Christopher Dawson, *The Making of Europ* (\*Meridian) A brilliant analysis of early medieval Culture by A distinguished Catholic scholar.

**Byzantium :**

N.H. Baynes and H. ST. L.B. Moss (Eds.), *Byzantium, An Interoduction to East Roman Civilization* (\*Oxford). An anthology of essays by Scholarly specialists, Organized Topically. Two short General accounts of Byzantime history and Civilization, available in paperback are highly recommended :

T.M. Hessey, *The Byzantime World* (Haper).

Steven Runciman, *Byzantime Civilization* (\* Meridian).

G. Osterogorsky, History of the Byzantine State (Blanchwill).

Longer and More detailer than the above Works, this is the best single volume history of Byzantium.

**The West Before The Carolingians :**

T.M. Wallace — Hadrill, The long — Haired Kings (Barnes and Nable) A collection of illuminating essays on the Merovian Period.

A.F. Havinghurst (Ed.) The Pirenne. Thesis analysis, Criticism and Revision, and (\* Heath). An excellent approach to one of the central problems in early medieval history through experts from the writing of contending historians for a fuller account of Pirenne's thesis see :

Henri Pierenne, Mohammed and Charlemagne (\* Meridian).

**Islam :**

G.E. von Grunebaum, Medieval Islam (2nd., university of Chicago Press). A learned and original Work, the best on the subject.

P.K. Hitti, History of the Arabs (St. Martin's Press). Broad yet full; a monumental work, or a good interduction to Hitti's work, see :

P.K. Hitti, The Arabs; A short History (\* gateway) Two other Two useful surveys in paperback are :

H.A.R. gibb, Mohhamedanism : An historical Survey (\* Mentor).

Bernard Lewis The Arabs in History (\* Arrow Books).

**Carolingian and post — Carolingian Europe :**

H. Fichtenau, The Carolingian Empire (\* Harper) The best English Language Work on the subject.

P.H. Sawyer, *The Age of the Vikings* (St. Martin's Press).  
A rather technical, highly significant reappraisal of the Viking age.

Marc Blanch, *Feudal Society* (M. of Chicago Press). A masterly Work, Challengingly written and boldly original in its conclusions.

Lynn White, Jr., *Medieval Technology and social Change* (\* Oxford). An important and provocative pioneering work which defies categorization. Beautifully written and opulently annotated.

Geoffrey Barraclough, *The origin of Modern Germany* (\* Capricorn). Incorporates recent scholarship in medieval German constitutional history.

Sidney, Pointer, *French Chivalry* (\* Cornell). Short; Witty and Perspective.

F.M. Stenton, *Anglo-Saxon England* (2nd ed., Oxford). A massive Masterpiece.

H.R. Loyn, *Anglo Saxon England and The Norman Conquest* (St. Martin's Press). An authoritative recent Work Emphasizing economic and social history. Carl Stephenson, *Medieval Feudalism* (\* Cornell). A brief, Lucid, Well- Organized account.

#### Sources :

Norman F. Cantor (Ed.), *The Medieval World* (\* Macmillan).  
A good recent Collection of medieval sources. . .

Einhard, *Life of Charlemagne*, tr. S.E. Turner (\* Ann Arbor Paperbacks) A short, resonably trust-worthy biography by Charlemagne's secretary.

Bede, *A History of the English Church and People*, Tr. Leo Sherley — Price (\* Penguin).

القسم الثالث : العصور الوسطى العالية

الازدهار الأول للثقافة الأوروبية

١١ — الثورة الاقتصادية والحدود الجديدة \*

- العصور الوسطى العالية ١٠٥٠ - ١٣٠٠ م \*
- المدن والتجارة \*
- تدهور الاقطاع \*
- تطور الحياة الزراعية \*
- الحدود الجديدة \*
- أسبانيا \*
- صقلية وجنوب ايطاليا \*
- الحروب الصليبية ( الحروب الدينية المسيحية التي باركتها الكنيسة ) \*
- التوسع الألماني تجاه الشرق \*

١٢ — الامبراطورية والبابوية :

- الخلفية التاريخية للصراع \*
- حركة الاصلاح \*
- الخلاف على تقليد المنصب الديني \*
- عصر فردريك بابا روما ( ١١٥٢ - ١١٩٠ م ) \*
- علو نجم البابوية في العصور الوسطى \*
- فريدريك الثاني ( ١٢١١ - ١٢٥٠ م ) \*
- فشل الامبراطورية في العصور الوسطى \*
- البابوية بعد انوسنت الثالث \*

١٣ — انجلترا وفرنسا :

- الحكومة الملكية الأنجلو - نورمانية \*
- هنري الثاني ١١٥٤ - ١١٨٩ م \*
- ريتشارد وحننا \*

- هنرى الثالث وادوارد الأول \*
- أسرة كاييه الباكرة \*
- لويس السادس والسابع \*
- فيليب أوغسطس ( ١١٨٠ - ١٢٢٣ م ) \*
- لويس الثامن ( ١٢٢٣ - ١٢٢٦ م ) \*
- القديس لويس ( ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م ) \*
- فيليب الثالث ( ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م ) \*
- فيليب الوسيم ( ١٢٨٥ - ١٣١٤ م ) \*
- ١٤ — الأبعاد الجديدة للمسيحية فى العصور الوسطى :
- الكنيسة فى العصور الوسطى العالية \*
- الأزمة البندكتية \*
- الحياة الرهبانية الجديدة \*
- الطوائف التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي ومحكمة التفتيش \*
- الرهبنة التى تعيش على الصدقات \*
- ١٥ — الفكر والآداب والفنون :
- القوى المحركة لثقافة العصور الوسطى العالية \*
- الانتاج الأدبى \*
- فن العمارة : من أوائل القرون الوسطى الى فن العمارة القوطى \*
- ظهور الجامعات \*
- الطب والقانون \*
- الفلسفة والمعلوم \*

## ١١ - الثورة الاقتصادية والحدود الجديدة :

العصور الوسطى العالية : ١٠٥٠ - ١٣٠٠ :

كثيرا ما يقال أن التاريخ نسيج متصل • بيد أن الفكر البشرى فى قدرته أن يكون على مستوى الواقع التاريخى بتقسيمه الى وحدات كرونولوجية تحكيمية - بتقسيمه الى أجزاء من صنع المؤرخ نفسه • وبهذا المفهوم فإن كل « فترة » تاريخية هى نوع من الزيف - وتحدد لاستمرارية التطور البشرى • ومع ذلك اذا لم نعد الأدواز التاريخية ، واذا لم نستعمل لفظ العصور ، واذا لم نخضع الماضى الى نوع من الاطار الكرونولوجى ، المنهجى ، فأننا لن نستطيع أن نجعل التاريخ مفهوما للفكر البشرى • ومن ثم يتحدث المؤرخ عن « العصور القديمة الكلاسيكية » ، وعن « العصور الوسطى الباكرة » ، وعن « العصور الوسطى العالية » وعن « عصر النهضة الأوروبية » • الخ • ولاريب أن تلك التقسيمات جميعها هى أكاذيب تاريخية ، غير أنها أكاذيب ضرورية - أكاذيب بيضاء • إذ بدونها يصبح التاريخ ذا مغزى غير كامل • اننا لن نستطيع أن نتقدم فى دراستنا بدون « الفترات التاريخية » ، بيد أنه لا يصح أن ننسى أبدا أن هذه الفترات التاريخية هى من صنعنا • ويجب ألا يغيب عن نظرنا أبدا تصور هذه التقسيمات •

وينطبق تعبير العصور الوسطى العالية على الزياية الثقافية الكبيرة فى أواخر القرن الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر • ومع ذلك لم يحدث حدث مثير تنبأ ١٠٥٠ م يشير الى حلول فترة تاريخية جديدة ، ولم يحدث تغير عنيف سنة ١٣٠٠ م يحدد نهسايتها • إذ أن التحول من العصور الوسطى الباكرة الى العصور الوسطى العالية كان تدريجيا وغير منتظم • بل أن هناك جداول حول ظهور العصور الوسطى العالية فى المانيا منذ القرن العاشر فى عهد أسرة أوتو ، وأنها تأخرت فى فرنسا حتى القرن الثانى عشر عندما استيقظت حكومة كابيه الملكية من سباتها • ومنذ غزوات الفيكنج ، والهنغاريين والعرب الآخذة فى الضعف - وذلك قبل سنة ١٠٥٠ م بعقود كبيرة - كانت أوروبا تنبض بنشاط قوى خلاق • ومع ذلك فعندما نتحدث بوضوح ، يمكن القول أن مجال وقوى النهضة لم تكونا واضحتين حتى نهاية القرن الحادى عشر • وبنهاية القرن الثانى عشر كانت تجارة أوروبا النشطة ومدنها تموج بالحركة ، والقوة الفكرية ، والقدرة على الابداع السياسى ،

والتوسع العسكرى ، والحماس الدينى المتزايد ، كل ذلك لم يدع مجالا للشك أن قوى جديدة هائلة كانت ذات أثر فعال • الأمر الذى يمكن المؤرخ من القول أن عصرا جديدا قد ظهر فجره •

على أن أسباب اليقظة الثقافية الهائلة التى حدثت فى العصور الوسطى العالية مركبة الى الحد الذى يصعب فيه تحديدها بدقة أو وضعها فى قائمة يحسب الأهمية • فنهاية الغزوات وزيادة الاستقرار السياسى من العناصر الأساسية • وعرفنا أن سكان أوروبا بدأوا فى الازدياد بشكل مثير للانتباه ، وأن إنتاجها الزراعى كان فى ارتفاع مستمر • ويصعب القول أن زيادة الإنتاج الزراعى أدى الى زيادة عدد السكان أو العكس بالعكس • بيد أن الإنتاج ماكان له أن يزداد كما حدث بدون التطورات الثورية فى العلوم التطبيقية ؛ فنظام الحقول الثلاثة ، الذى انتشر فى معظم أنحاء أوروبا الشمالية ، الطاحونة الهوائية ، والطاحونة المائية ( بحلول سنة ١٠٨٦ م كان هناك أكثر من خمسة آلاف طاحونة مائية فى إنجلترا وحدها ) ، والمحراث الثقيل ذو العجلات ، وحدوة الحصان وطوق عنقه ، تلك الأشياء التى حولت الخيل من حيوان فعال لجر الأثقال ، وأطقم الخيل التى تجر عربة واحدة ، جعلت من الممكن استخدام الخيل والثيران فى مجموعات كبيرة لجر المحارث والانطلاق سريعا بالعربات الثقيلة • تلك الأشياء والعديد من الاختراعات المتصلة بها وفدت الى الغرب رويدا رويدا عبر القرون ، بيد أنه كان لها تأثير مؤكد وقوى على الازدهار الاقتصادى الكبير فى العصور الوسطى العالية •

### المدن والتجارة :

صاحب ازدياد الانتاج وعدد السكان نهضة تجارية كبيرة وتجديد النشاط العام فى الحياة بالمدن • وتبعاً لذلك أصبحت المدن الجديدة مراكز لثقافة موجهة بقوة مثيرة للاعجاب • كما كانت الاتصالات الانسانية الحسية الناشئة عن الحياة بالمدينة حافزا للفكر والفن • فالكاثدرائية والجامعة والكتان كانتا أعظم المعالم التذكارية للعصور الوسطى العالية هما ظاهرتان تنسبان الى المدينة • كما أن النظام الديرى الفرنسيسكانى ربما كان أعظم المؤسسات الدينية وأكثرها فعالية كان نتاجا للعصر الجديد ، وتلك المؤسسة التى نشرت نفسها للعمل التبشيرى بين السكان الجدد للمدن أوروبا فى العصور الوسطى

قبل كل شيء • وعلاوة على ذلك كانت المدن أيضا مراكز للعمـل  
التجارى والصناعى فى المقام الأول • وظل الاقتصاد الأوروبى فى العصور  
الوسطى العالية زراعيا بشكل أساسى ، بيد أن المدن كانت عوالم دفع للعصر  
ثقافيا واقتصاديا • وفى تلك المدن وقفت كل من عبادة الله وعبادة المال وجهه  
لوجه ، وفى أحوال كثيرة عملتا متعاونتين •

كانت هناك مدن فى أوروبا منذ العصور القديمة • غير أن المدينة ذات  
الطابع العسكرى من الناحية الادارية فى عهد الامبراطورية الرومانية أفسحت  
المجال بمرور الوقت للمدينة الكاتدرائية التى كانت أكثر تخلفا فى العصور  
الوسطى الباكرة • وكلتيهما اشتركتا فى شيء خطير : كلتيهما كانتا  
اقتصادية وطفيلية تعيش على دماء وجهد وضرائب الأقاليم الزيفية ،  
وكلتيهما كانتا تستهلك أكثر مما تنتج • ومن ناحية أخرى عبرت المدن فى  
العصور الوسطى العالية عن شيء جديد بصفة أساسية • ومع وجود قليل من  
الاستثناءات كانت المدن مراكز تجارية حقيقية ، حققت مكاسبها بأساليبها  
الخاصة ، وعاشت على نتاج أنشطتها التجارية والصناعية • وإذا كانت  
تلك المدن صغيرة ، وموحلة ، وتسودها الأمراض ، وغالبا مامزقتها  
للصراعات الداخلية ، إلا أنها كانت أولى مدن غرب أوروبا بالمعنى الحديث  
 للكلمة •

وظهرت تلك المدن بشكل متواتر مع الزيادة السريعة للتجارة • وفى  
غالب الأحوال بدأت تلك المدن كضواحي للمدن الكاتدرائية الأقدم أو للقري  
المترابضة المقامة خارج أسوار بعض القلاع العديدة التى أقيمت فى قوربة  
خلال القرنين التاسع والعاشر • وأطلق على تلك القلاع بصفة عامة الكلمة  
الألمانية بورج Burgh ، وبمرور الوقت صارت هذه الكلمة تطلق على  
المدينة نفسها أكثر من القلعة التى كانت سببا فى وجودها • وبحلول القرن  
الثانى عشر صارت كل بورج burgh or borough مركزا تجاريا  
مدنيا يسكنه سكان البورج burghers or burgesses ، وهم الذين  
شكلوا طبقة جديدة فيما بعد عرفت باسم الطبقة البورجوازية bourgeoisie  
 وفى نهاية القرن الحادى عشر كانت المدن تتطور بسرعة فى كل أنحاء  
أوروبا • وكانت تلك المدن أكثر كثافة فى فلاندر Flanders ، وشمال



إيطاليا ، حيث الفرص الهائلة للتجارة الدولية • وكانت مدينة البندقية Venice أعظم مدن إيطاليا والتي كانت مستعمرة بيزنطية لفترة طويلة • بيد أنها كانت فى ذلك الحين جمهورية مستقلة ، استطاع تجارها تحقيق أرباح طائلة نتيجة للتجارة مع القسطنطينية والشرق • وهناك مدن إيطالية ساحلية أخرى تبعت البندقية فى إيجاد أسواق مريحة من شرق البحر المتوسط فى الحال مثل جنوة genoa ، وبيزا pesa وأسالفى Amalfi ، كما أن نتائج تلك التجارة الواسعة المدى جلبت حياة جديدة نشطة لمدن الأجزاء الداخلية فى إيطاليا مثلا ميلان Milan ، وفلورنسا Florance • وخلال العصور الوسطى العالية تم طرد المسلمين من البحار ، وسيطر التجار الإيطاليون على البحر المتوسط •

وفى الوقت نفسه ازدادت مدن الفلاندر ثراء من تجارة الشمال - من التجارة مع شمال فرنسا والجزر البريطانية ، وأراضى الراين ، وشواطئ بحر البلطيق • وكانت أراضى الفلاندر نفسها اقليما عظيما لتربية الماشية ، وصارت مدنه مراكز لانتاج صناعات الأقمشة الصوفية • وبمرور الوقت أنتجت المدن الصناعات الصوفية أكثر مما تستطيع أن تقدمه الأغنام الفلمنكية ، وذلك لأنه منذ القرن الثانى فصاعدا بدأ التجار فى استيراد الصوف من إنجلترا بكميات ضخمة • وفى ذلك الحين كانت أراضى الفلاندر، أعظم مركز للصناعات فى أوروبا إذ كانت صناعة النسيج أعظم مشروعات العصر الصناعية •

وأضاف نمو المدن والتجارة للمجتمع طبقة سكانية بالمدن الجديدة ، والتي كانت من قبل طبقة زراعية تقريبا على وجه الحصر ، وتجمعت طبقة التجار هذه من المنشردين ، والأقنان الهاريين ، وصغار النبلاء الراغبين فى اكتساب المال واختزانه وبصفة عامة من فائض ازدياد السكان المفاجيء • وفى تاريخ باكر بدأ هؤلاء التجار الطموحون فى الانضواء تحت راية النقابات لكى يحموا أنفسهم من الضرائب التى قد تصل الى حد المصادرة ، ومن عمليات الابتزاز التى مارسها الأرستقراطيون ملاك الأراضى ، والذين أضرموا العداء لهؤلاء التجار • وكانت المدينة فى معظم الأحوال تقريبا تقع داخل أراضى سيد اقطاعى - أحيانا دوقا وربما ملكا - ووجد التجار أنه بالعمل الجماعى فقط يستطيعون الحصول على الامتيازات الضرورية

للعمل التجارى : مثل عدم وضعهم فى حالة مشابهة لحالة الاقنات ، وخزيرة التنقل ، والاعفاء من رسوم عبور الجسور المبالغ فيها ، أو عبور النخسود الاقطاعية ، والحق فى امتلاك العقارات فى المدينة ، والمثل أمام محكمة المدينة ، وحق اتمام العقود التجارية وحرية البيع والشراء .

ويحلول القرن الثانى عشر ، أصدر عدد من السادة الاقطاعيين ، الذين اعترفوا بالمزايا الاقتصادية لوجود مراكز تجارية مزدهرة فى اراضيهم ، موافيق المدن التى تضمن الكثير من حقوقهم . بل ان البعض السادة الاقطاعيين المتميزين ببعد النظر ، قاموا بتشبيد المدن ، واصدار موافيقها بناء على مبادراتهم الشخصية .

وفى بداية الأمر كانت موافيق المدن تختلف عن بعضها البعض الى حد كبير ، بيد أنه بمرور الوقت أصبح من المعتاد تشابهها مع بعضها البعض ، بعد وجود نماذج مشهورة . فالميثاق الذى أصدره ملك إنجلترا الى نيوكاسيل فى تاين (New Castle) on Tyne ، وكذلك الميثاق الذى أصدره ملك فرنسا الى مدينة لورى (Lorris) ، تم النقل عنهما مرارا وتكرارا فى كل أنحاء إنجلترا وفرنسا . والواقع أن تلك الموافيق حولت الجماعات التجارية الى وحدات لها وجود شبه متمتع بالحكم الذاتى من التساحية السياسية والقانونية . ونفقت تلك الطوائف التى تعيش بالمدن مبالغ طائلة بغية الحصول على موافيقها ، وواصلت دفع الضرائب المنتظمة الى سيدها الاقطاعى . ولكنهم - وهذا مهم بكل مافى الكلمة من معنى - فعلوا ذلك كوحدات سياسية . ولم يكن التجار عرضة لمضايقات وكلاء ساداتهم الاقطاعيين . وطبق سكان المدن قانونهم فى محاكمهم ، وجمعوا ضرائبهم ، ودفعوا رسومهم الى سيدهم الاقطاعى دفعة واحدة . وباختصار ، هانهم حققوا امتيازاً لا يقدر بثمن فيما يتعلق بمعالجة شئونهم الخاصة .

ومع ذلك لا يصح أن يستنتج المرء أن المدن فى العصور الوسطى كانت ديموقراطية ، ولو على قدر ضئيل . ان الذين استفادوا من موافيق المدن هم التجار الأثرياء والصناع المهرة المؤهلين لتدريب الصبيان المهنيين ، وأتتهم هم الذين بدأوا عادة فى السيطرة على حكومات المدن كاتلية ضئيلة مهمتها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية . Narrow oligarchies على السكان الأقل قوة وثروة . وشهدت بعض المدن بدايات لانقسام مثير للانتباه بين

المنتجين على نطاق واسع ، وبين العمال لقاء أجر ، على النمط الرأسمالية الحديثة .

وفي الواقع يمكن القول أن مدينة العصور الوسطى كانت مسقط رأس الرأسمالية الأوروبية . لأنه بمرور الوقت اتجهت المدن إلى أن تصبح مراكز للصناعات والتجارة أيضا . إذ تبع التصنيع خطوات التجارة . وبالرغم من أن معظم الانتاج الصناعي حدث في المحلات الصغيرة ليس في المصانع الكبرى ، فإن بعض رجال الأعمال المغامرين استخدموا أعدادا هائلة من العمال لانتاج السلع - في العادة كانت صناعات النسيج - على نطاق واسع . ومن الطبيعي ألا يعمل هؤلاء العمال في مصنع وانما في مصلاتهم التي يمتلكونها أو في منازلهم . ونظرا لأن الملتزم الصناعي كان يرسل مواده الخام إلى عماله بدلا من احضار العمال إلى المكان الذي به المواد الخام ، لذلك أطلق على هذا الأسلوب في الانتاج « نظام الانتاج المنتشر » Putting System — out — وكمرحلة سابقة على نظام المصنع مباشرة ، فانها كانت مرحلة حاسمة في تاريخ الرأسمالية المبكرة .

على أن الصانع التقليدي في العصور الوسطى كان يعمل لحسابه الخاص في محله الذي يملكه ويصنع فيه سلعته ، ويبيعها مباشرة للجمهور . ومنذ أوائل القرن الحادي عشر انتظم هؤلاء الصناع المهرة في نقابات حرفية - وهي تختلف عن نقابات التجار في محاولة للحد من المنافسة ولحماية سوقهم ، ووضعت النقابات الحرفية شروطا أساسية كاملة ، وقواعد صارمة خاصة بالأسعار والأجور ، ومستويات الجودة ، واجراءات التشغيل . إذ كان على الشاب الحرفي أن يتعلم حرفته كصبي يتلقى التدريب الحرفي في محل صانع ماهر مؤهل لتدريب الصبيان المهنيين . وبعد فترة معينة ، أحيانا امتدت إلى سبع سنوات ، ينتهي بعدها الصبي من قضاء مدة التدريب المهني . وربما يصبح صانعا ماهرا مؤهلا لتدريب الصبيان ، إذا ما واثاه الحظ وساعدته أسرته الميسورة الحال . ومع ذلك ، ففي العادة كان عليه أن يعمل لعدة سنوات كعامل يوصى - عامل فني يتقاضي الأجر وفقا لعمله اليومي ، ينتقل من مكان إلى آخر - بهدف تحسين مهارته وتوفير المال ، إلى أن يكون قادرا على استيعاب قدر كاف من التأهيل الحرفي يسمح له بعضوية النقابة وجمع المال لفتح محل خاص به . وقرب نهاية العصور

الوسطى العالية، بدأ الرخاء الاقتصادى يتضامن ، وبدأ مجتمع المدينة يصبح أكثر تبلورا ، لذلك أصبح قضاء عمال التراحيل الفنيين أعمارهم دون أن تتاح لهم على الإطلاق فرصة تحولهم الى معلمين مهرة لهم محلاتهم الخاصة بهم أمرا شائعا . وبناء على ذلك صارت المدن مساح للمشاعر الطبقيّة المريبة التي تفجرت من حين الى آخر فى شكل صراعات عنيفة وعلنية .

على أن هناك الكثيرون الذين جمعوا ثرواتهم من التجارة والصناعة - وكانت أوروبا تعيش فى هرج ومرج من جراء الحياة الجديدة ، وبالنسبة للرجل المغامر الذكى كانت الامكانيات متاحة بشكل ضخم . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر انتقل التجار بشكل مستمر عبر طرق وأنهار أوروبا . اند عبر الايطاليون جبال الألب جالين التوابل و سلع الرفاهية من الشرق الأوسط ، والبلاد الشرقية الى الطبقة الأرستقراطية فى فرنسا وألمانيا وحمل التجار الفرنسيون والألمان والفلمنكيون Flemish البضائع فى أنحاء القارة الأوروبية ، « يشترون بسعر بخس ويبيعون بأسعار عالية » وأمدت سلسلة الأسواق السنوية المقامة على امتداد طرق التجارة البرية التجار الذين قدموا من مناطق نائية ، بفرص ممتازة لبيع بضائعهم . ولكلما زُدد نطاق التجارة ، كلما زادت الديون والأعمال المصرفية تبعها . لذلك ، وبحلول القرن الثالث عشر عملت أسر عديدة بالأعمال المصرفية ، وجمعت ثروات ضخمة . ويبدو أمرا متناقضا من الناحية الظاهرية أن الفترة التي غالبا ما نظر اليها على أنها تمثل قصة عصر الايمان شهدت ازدياد التجارة على أوسع نطاق وشهدت جمع الأموال . ومع ذلك فإن الأموال بنت الكاتدرائية القوطية ودعمت الحملات الصليبية وهي التي مولت المنشآت الدينية التي أقامها القديس لويس St. Louis وفجرت الحيوية فى الثقافة الدينية الرفيعة المستوى فى القرن الثالث - انه المال الذى جعل الايمان محاطا بالحماس والغيرة بلا أدنى ريب . ويمرور الوقت قدر للايمان المسيحى أن يكون ضحية لروح الحرص الشديد على المال الذى تفجر فى المدن ، بيد أنه خلال العصور الوسطى العالية أظهر سكان المدن بصفة عامة درجة من التقوى كانت أكثر حيوية ونشاطا وانفعالا بكثير عما كان عند الفلاحين والطبقة الارستقراطية . والواقع أن الانطلاقة القوية للتقوى العلمانية بين سكان المدن الأوربية صارت العامل الحاسم فى ارتقاء المسيحية فى العصور الوسطى .

## تدهور الاقطاع :

ان الاقطاع ، المبني على وضع اليد على الأراضي المملوكة للسييد الاقطاعي عن طريق الوراثة مقابل الخدمة العسكرية كان نتاجا مميزا لمجتمع يعاني من نقص العملة التي ليس من المستطاع دفعها كأجور الى المحاربين ، وبظهور النظام الاقتصادي النقدي في أوروبا بدأت العلاقات الاقطاعية الأساسية في التفكك . وظهر الأثر العميق للعرف الاقطاعي على الفكر الأوربي بوضوح بأساليب مبدعة متنوعة حيث حاولت الطبقة الارستقراطية الأخذ بالنظام الاقطاعي حتى قيام النظم الاقتصادية الجديدة . وانتشر النظام الاقطاعي من فرنسا الى إنجلترا وألمانيا ، وإلى الامارات الصليبية في الأرض المقدسة وبلاد الشام خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر . ومع ذلك ففي الوقت نفسه بدأ الملوك والأدواق في اللجوء الى استئجار الجنود المرتزقة في الأغراض الحربية ، واستخدام القضاة المحترفين والموظفين المدنيين لإدارة ممتلكاتهم بشكل متزايد . وأما في خلال القرن الثاني عشر ، طالب السادة الاقطاعيون أتباعهم الاقطاعيين بدفع ضريبة بدلا من تأدية الخدمة العسكرية في الجيش الاقطاعي وذلك على عكس ماكان سائدا . ومن الدخل الذي كانت ترد هذه الضريبة - والتي أطلق عليها أحيانا البدلية Scutage - استطاع السيد الاقطاعي استئجار المحاربين المحترفين الذين كانوا أكثر تدريبا ، ونظاما ، وطاعة عن الفرسان الذين تحت أيديهم أراضى زراعية . وظلت الطبقة الارستقراطية محتفظة بأراضيها وبكثير من سلطتها لعدة قرون تالية ، بل وقادرة على الحصول على المحاربين . على أن فرسان العصر الجديد توقعوا أن تدفع لهم الأجور ، ان لم يعد يقدمون الخدمة العسكرية على نقاتهم الخاصة مقابل الأراضي المقطعة اليهم Fiefs . لذلك ما أن حل دفع الضرائب محل الخدمة العسكرية الشخصية التي كانت واجبا أساسيا بالنسبة للتابع الاقطاعي - وانتشرت هذه الحالة في كل مكان تقريبا بحلول القرن الثاني عشر - حتى فقد الاقطاع جوهره وروحه .

## تطور الحياة الزراعية :

أحدثت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الجديدة في العصور الوسطى العالية تحولا عميقا في سكان الريف . ولاريب أن أهم هذه التغيرات شدا للانتباه هو التوسع الهائل في مساحات الأراضي الزراعية الصالحة

للزراعة • وذلك بعد تحول الغاية البدائية الكبيرة فى الإنتاج الزراعى الى مساحات صغيرة من الاراضى المنعزلة ، وتجفيف المستنقعات والاراضى السبخة ، واعدادها كمناطق جديدة للزراعة • وساعد على انجاز هذه العملية الضخمة تطلع السكان الى حياة أفضل من ناحية ، وتزايد نمو النظام الاقتصادى النقدى من ناحية ثانية • وأمكن ، فى ذلك الحين ، بيع فائض الانتاج الزراعى الى سكان المدن ، وبذلك تحول هذا الفائض الزراعى الى عملة نقدية • وبناء على ذلك كان هناك دافع قوى لدى الزارع على الانتاج أكثر بكثير من مستوى الاستهلاك بأقصى ما يستطيع • وهكذا أصبح كل حقل جديد صالحا للزراعة وقادرا على تحقيق الربح •

وهناك تغير ثان لا يقل أهمية عن الأول ألا وهو ارتفاع شأن الفلاح • فامتلاك الرقيق الذى كان نادرا فى العصر الكارولنجى ، اختفى من الناحية الواقعية من أوروبا بحلول القرن الحادى عشر • إذ أن الذين فلقوا الأرض كانوا من الأحرار والأقنان فى أغلب الأحوال • وفى الغالب امتلك الرجل الحر حقله الصغير ، بيد أن القن كان موجودا فى المزارع الكبرى بصفة عامة • وفى العادة اشتملت المزرعة الكبرى على حقول الفلاحين وحقول السيد الاقطاعى - أراضيه والمبانى المقامة عليها His demesne - على أن يذهب كل انتاج هذه المزرعة مباشرة الى السيد الاقطاعى • ومن بين الالتزامات التى يتعين على القن الوفاء بها هو أن يعمل عدة أيام محددة فى أراضى السيد الاقطاعى • وفى العصر الكارولنجى كان السادة الاقطاعيون الذين يمتلكون مزارع كبرى يقومون باستغلال العبيد ، زيادة على الأقنان فى حقولهم الاقطاعية • على أن السادة الاقطاعيين واجهوا عجزا شديدا فى اليد العاملة بأراضيهم نظرا لأن الرق بدأ يختفى رويدا رويدا •

ونتيجة لهذه المشكلة ، ومن أجل مسايرة الاتجاه نحو تحويل التزامات الخدمة الحربية الى التزامات مالية ، اتجه السادة الاقطاعيون الى التخلص عن أراضيهم الزراعية كلية • وقاموا بتأجير الحقول بمزارعهم الكبيرة الى الفلاحين ، كما أعفوا أقنانهم من الالتزام التقليدى الخاص بالعمل بعض الوقت فى مزارعهم الكبرى ، مقابل دفع الأقنان مبلغا محدودا من المال • وفى الوقت نفسه ترجموا الإيجار العينى الذى كان يدفعه القن الى إيجار نقدى - وبتحرير القن من الالتزام بالعمل ، فانهم حولوه فى الواقع الى فلاح

مستأجر • وبتلك الوسيلة تحسنت أحواله الى حد كبير • وهكذا فإن التزامات القن حلت محلها الأسس المالية ، كما حدث تماما للالتزامات التابع الاقطاعي •

ان التخلي عن الأراضي الزراعية التابعة للسيد الاقطاعي كان اتجاها بطيئا وغير منتظم ، وان كان أسرع في بعض المناطق عن المناطق الأخرى • ففي إنجلترا ، في القرن الثالث عشر ، نما اتجاه مضاد حيث استصلح كثير من السادة الاقطاعيين أراضي زراعية • وعملوا على زيادة مساحات أراضيهم الاقطاعية بنجاح • بيد أنه في القارة الأوروبية ، اختفى نظام الأراضي التي يقطعها السيد الاقطاعي رويدا رويدا ، ومن الناحية الواقعية ، ورث الفلاح الأرض •

وعندما حول السادة الاقطاعيون الواجبات والخدمات المطلوبة من أبقنائهم الى ايجارات مالية محددة ، فانهم فشلوا في تقدير التضخم المالي • اذ ان الازدهار الاقتصادي للعصور الوسطى العالية صاحبه ارتفاع حلزوني للأسعار وتدهور في القوة الشرائية للمال • ومن ثم انخفضت القيمة الحقيقية للأجور التي كان يدفعها الفلاحون للسادة الاقطاعيين • وأبدى كثير من السادة الاقطاعيين في العصور الوسطى المتأخرة أسفهم على الاتفاقات التي عقدها أسلافهم • اذ أصاب الإفلاس الناتج عن التضخم المالي أكثر من سيد اقطاعي • بيد أن هذا التضخم المالي كان نعمة من الله بالنسبة للفلاحين في العصور الوسطى • ولم يستطع السادة الاقطاعيون سوى القيام بالقليل لتفويض خسائرهم ، اذ كانوا ملزمين في غالب الأحوال بتحسين احوال الفلاحين التابعين لهم أكثر فأكثر لمنعهم من النزوح للمدن ، أو الى الأراضي المستصلحة حديثا • وأصبح الطلب شديدا على الفلاح ، كما أن الذين قاموا باستصلاح الأراضي للزراعة من المغامرين الذين حولوا الغابات والمستنقعات الى حقول ، تنافسوا في الحصول على خدمات الفلاح • ونتيجة لذلك شهدت العصور الوسطى العالية ارتفاع أعداد لا تحصى لها من الفلاحين من حالة العبودية الى الحرية • وظهرت الوحدات الادارية الريفية الصغيرة Rural

Communes - وهي قرى الفلاحين الذين منحهم السادة الاقطاعيون موثائق متماثلة تماما مع موثائق سكان المدن • وعلى المرء أن يكون حريصا حتى لا ينظر نظرة مثالية الى فلاح القرن الثالث عشر بكل - اذ انه ظل في حالة من الفقر والانسام بالوحشية والهمجية بالنسبة للمستويات الحالية -

وبمع ذلك كان الفلاح فى حالة تفوق بوضوح حالته فى عهد الامبراطورية الرومانية أو العصور الوسطى الباكورة . كما أن ثورات الفلاحين التى اثارها العرب فى أوربا فى العصور الحديثة الباكورة كانت نتاجا لفترة تاريخية سابقة ومختلفة عندما توقف التوسع والازدهار الاقتصادى فى العصور الوسطى العالية ليفسح المجال لعصر الركود الاقتصادى وانغلاق الحدود .

#### الحدود الجديدة :

ان الحدود الممتدة والمفتوحة هى احدى الملامح المميزة للعصور الوسطى العالية . ان استصلاح الغابات وتجفيف المستنقعات يمثل فتحا مهما للحدود الداخلية . وكان هذا التوسع موازيا للتوسع الخارجى على امتداد محيط العالم المسيحي الغربى الذى ضم أرض شاسعة من العالم الغربى ، والبيزنطى ، والسلافي فى اطار الزيادة السريعة لحدود الحضارة الأوربية وإضافة الثروة الى الاقتصاد المزدهر .

تزايدت مساحة أوربا الحديثة منذ أن تدى شارل المطرقة Charles Martel للحرب سنة ٧٢٣ م . وأدخل شارلمان نظم الحكم الفرنجى ، والتعاليم المسيحية فى كثير من أجزاء ألمانيا ، وشيد تحصينات أسبانية حول برشلونة Barcelona . وعمل استقرار الهنغاريين Hungary والاسكندنافيين . واعتناقهم التعاليم المسيحية ، قرب انتهاء القرن العاشر ، على توسيع حدود الحضارة الغربية بعيدا عن المركز الأصلى الكارولنجى تجاه الشمال والشرق . وإبان القرنين الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، تمخضت الزيادة فى السكان عن وجود شباب من الطبقة الاستقرائية الذين لا يمتلكون أراضى زراعية ، والذين بحثوا عن أراضى ومسجد عسكري على حدود العالم المسيحي . وقدم الفلاحون الأوربيون - الذين تزايدت أعدادهم نتيجة للتكاثر - طاقات فعالة وقادرة على العمل فى الأرض التى فتحت مؤخرا . وفى الوقت الذى حصل فيه المحارب المسيحي بالحدود على أراضى زراعية جديدة لنفسه ، فانه كان أيضا يدير كنوزا فى ألفردوس ، وذلك نتيجة لجهود ، النضالية من أجل العالم المسيحي الذى اتسع على حساب السلاف الوثنيين فى شرق أوربا والمسلمين بأسيانيا ، وفى صقلية ، وسوريا . ان الأرض ، والذهب ، والخلاص الأبدى - كانت كلها مجتمعة المكافآت المغرية على الحدود فى العصور الوسطى .



## أسبانيا :

ولهذا تدفق المغامرون من الفرسان • من كل أنحاء العالم المسيحي  
- وبخاصة من فرنسا الاقطاعية - أفواجا الى أسبانيا خلال القرن الحادي  
عشر للعمل على استرداد شبه جزيرة ايبيريا من المسلمين ، وبعد سنة ١٠٠٢م  
انفتحت خلافة قرطبة الاسلامية القوية الى مجموعة متباينة الاختلاف من  
الامارات الصغيرة المتناحرة ، وبذلك قدمت للمسيحيين فرصة رائعة •  
ومما يؤسف له ان المسيحيين أنفسهم انقسموا الى ممالك عديدة مما جعلهم  
يستنفدون جهدا أكثر في محاربة بعضهم البعض أكثر من الجهود التي  
يذلونها ضد البربر • فأخذت مملكة قشتالة Castile المسيحية زمام  
المبادرة ، واستولت على مدينة طليطلة Toledo ، مدينة المسلمين الكبرى  
سنة ١٠٨٥ م • وفي سنوات تالية أصبحت طليطلة مركزا مهما للاتصال بين  
الثقافتين الاسلامية والمسيحية • وفي تلك المدينة تم ترجمة أعمال العرب  
العلمية والفلسفية الى اللغة اللاتينية ثم انتشرت تلك الترجمات ، في كل  
أنحاء أوروبا ، وهي تتحدى الفكر الغربي وتشحذه •

وفي أوائل القرن الثاني عشر ، نازعت مملكة أراجون Aragon  
مملكة قشتالة على السيادة ، وأخذت على عاتقها مهمة الهجوم بنفسها  
على السبربر Moors . • وفي سنة ١١٤٠ م صارت أراجون قوية جدا  
نتيجة لاتحادها مع كاتالونيا Catalonia الدولة الغنية التي كان مركزها  
برشلونة - وهي منطقة الحدود الأسبانية على عهد شارلمان • وخلال الجزء  
الأكبر من القرن الثاني عشر استغرقت أراجون وقشتالة والممالك المسيحية  
الأصغر أقوامهم جميعا في محاربة بعضهم البعض ، ومن ثم توقفت حركة  
الاسترداد من حين لآخر • بيد أنه عام ١٢١٢ م نادى البابا القوي انوسينت  
الثالث Innocent III بشن حرب دينية A Crusade ضد المسلمين  
بأسبانيا ، وتقدم ملك قشتالة من مدينة طليطلة -  
جمعه من أنحاء شبه جزيرة ايبيريا ، وأحرز نصرا حاسما على البربر في  
موقعة لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa

ومنذ ذلك الحين فصاعدا ظلت قوة البربر في طريقها الى الوهن بشكل  
مستمر • وسقطت قرطبة Cardova في أيدي مملكة قشتالة سنة ١٢٣٦ م ،

وفى أواخر القرن الثالث عشر انضم البربر الى مملكة غرناطة Granada الجنوبية الصغيرة . حيث ظلوا بها حتى سنة ١٤٩٢ م . وفى ذلك الحين سيطرت مملكة قشتالة على وسط اسبانيا ، وسارت عملية اعادة التنصير بسرعة فى الوقت الذى تم فيه انتقال واستيطان الفلاحين المسيحيين بأعداد هائلة بالأرض التى أعيد فتحها . وفى الوقت نفسه استردت مملكة أراجون جزر غرب البحر المتوسط من المسلمين ، وأقامت امبراطورية بحرية قوية .

وهكذا شهدت العصور الوسطى العالية تنصير كل شبه جزيرة ايبيريا تقريبا ، وتنظيمها فى مملكتين مسيحييتين قويتين ، والعديد من الممالك الأقل قوة ، ان الحرب الدينية المسيحية Crusade الطويلة ضد المسلمين كانت العامل الرئيسى فى اعادة صياغة الحياة الاسبانية فى العصور الوسطى . وتمثلت نتيجتها القصوى فى ايجاد مزيج قوى من التقوى والوطنية . والهب . هذا المزيج حماس القديسين والجنود ، والفاتحين الاسبان الذين فتحو . المكسيك فى العصر الذهبى لاسبانيا فى القرن السادس عشر الميلادى .

#### جنوب ايطاليا وصقلية :

من المحتمل أن المحارب الأرستقراطى من نورماندى كان أعظم القوى الحربية نشاطا ، فيما يتعلق بنهضة أوربا فى القرن الحادى عشر - وهم من سلالة الفايكنج الى حد كبير ، بيد أنهم تكيفوا فى ذلك الحين مع الثقافة الفرنسية . وهؤلاء الفرسان النورمان ، الذين تحدثوا الفرنسية ، واعتنقوا المسيحية وانخرطوا فى النظام الاجتماعى الاقطاعى ، هم الذين جاهدوا بسلاحهم غير طول وعرض أوربا : فى استرداد اسبانيا ، وفى الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة Crusades بالأراضى المقدسة ، وفى ساحات القتال فى انجلترا وفرنسا ، وفى جنوب ايطاليا وصقلية . وكانت نورماندى نفسها فى حالة من النمو الاقتصادى والاستقرار السياسى ، غير أن ضغوط زليدة السكان دفعت المحاربين النورمان التواقين لجمع المغان والمحبين للمغامرة الى كل مكان فى عمليات حربية بعيدة .

وفى أوائل القرن الحادى عشر بدأ النورمان يجوبون حظهم فى الفوضى السياسية الشاملة فى جنوب ايطاليا ، ان ظلت المدن الساحلية - التى كانت من بقايا فتوحات جوستينيان - تقاوم امارات اللامباردين القديمة ،

وجمهوريات الموانئ النامية مثل نابلى وأمالفى Amalfi . أما جزيرة صقلية الكبيرة التى تبعد عن الشاطئ تحت سيطرة المسلمين ، وبالأحرى ، كانت مقسمة بين العديد من الأمراء المسلمين الذين بادل بعضهم البعض العداء . وباختصار كانت المنطقة بوتقة ضخمة للفوضى السياسية الإسلامية والبيزنطية والتى كانت ثقافتها مسيحية غربية . ولم يكن هناك استقرار سياسى . وأما وجهة نظر النورمان فكان كل ذلك بشيرا بالخير لهم الى أبعد حد .

وفى بداية الأمر عمل النورمان لحساب الأخرى كجند مرتزقة ، بيد أنهم سرعان ما قاموا بإقامة الإمارات لحسابهم الخاص . وفى أواخر القرن الحادى عشر سقط كل جنوب إيطاليا تحت سيطرة دوق ماهر ومتحجر القلب يدعى روبرت جوسكارد Robert guiscard ( ت ١٠٨٥ م ) ، الذى نظم المنطقة فى دولة إقطاعية على شكل التسلسل الهرمى وفقاً للنمط النورمانى . وفتح صقلية شقيق روبرت الأصغر بعد حملة طويلة ( ١٠٦٠ - ١٠٩١ م ) ، ونصب نفسه حاكماً لها . وفى ذلك الحين كانت كل منطقة صقلية وجنوب إيطاليا فى أيدي النورمان ، وفى سنة ١١٢٠ م دمج أحد أقارب روبرت جوسكارد ، وهو روجر الكبير Roger the great ( ت ١١٥٤ م ) تلك المنطقة فى مملكة واحدة ، وأصبح أول ملك لها .

وبالرغم من أن مملكة روجر الكبير الجديد ضمت كلا من صقلية وجنوب إيطاليا فقد أطلق عليها ببساطة مملكة صقلية ، وإن كانت قد أطلق عليها فيما بعد مملكة الصقليتين Two Sicilies . وحكم روجر وخلفاؤه كل من الشعوب المتعددة بعقابيتها المختلفة ، وعاداتها ولغاتها بقوة وتسامح وامتزج التراث الثقافى البيزنطى ، والإسلامى واللومباردى والخاص بشمال فرنسا وتمخض عن بناء ادارى فعال الى أقصى حد . وعرفت مدينة باليرمو Palermo عاصمة صقلية ، بمدينة اللغات الثلاث ، وهى التى كانت ميناء كبيراً ولها قصورا رائعة ، ومباني مثيرة للاعجاب ، ومنازل تعبر عن حياة الرفاهية . وفى تلك العاصفة عمل العلماء من المسلمين والبيزنطيين ، ومن الغرب تحت رعاية الأسرة المالكة ، وقدموا ترجمات لا حصر لها من النصوص العربية واليونانية الى اللغة اللاتينية ، وقدموا مؤلفات أصلية بجهدهم الخاص . والتقى الشرق بالغرب فى مملكة روجر الكبير المتألقة

بأشعة الشمس ، وعمل كل من الشرق والغرب معا بشكل خلاق حتى جعلوا  
مملكة صقلية أعلى دولة فى مستواها الرفيع فى عصرها .

### الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة :

كانت الحروب الدينية التى باركتها الكنيسة أكبر فصول السياسة  
التوسعية المسيحية الغربية اثاره وادركا لذاتيتها فى العصور الوسطى  
العالية ، على الرغم من أنها كانت أكثر أنواع الحروب دواما . وقامت هذه  
الحروب بالأراضى المقدسة استجابة لوجود أزمة سياسية خطيرة فى الشرق  
الأوسط ، فقبل قيام تلك الحروب بقليل اكتسحت قبيلة جديدة من أواسط  
آسيا ؛ وهى قبيلة السلاجقة الأتراك ، بلاد الفرس ، واعتنقت الاسلام ،  
وجعلت الخلافة العباسية فى بغداد تحت رحمتها . وفى سنة ١٠٧١ م شهد  
السلاجقة الأتراك ضربة مميتة تقريبا للإمبراطورية البيزنطية ، بمهاجمتهم  
جيشا بيزنطيا هجوما ساحقا فى موقعة منكرت Manzikert . واستولوا  
على آسيا الصغرى المستودع الأساسى للطاقة البشرية البيزنطية . وبدأت  
تتسرب الى الغرب روايات عن الوقائع المتصلة باعتداءات الأتراك السلاجقة  
الوحشية على حجاج بيت المقدس . وإذا كان الامبراطور البيزنطى اليانيس  
قد بلغ كبرياءه ، وناشد الغرب المساعدة ، الا أن أوروبا ، التى كانت تحت  
توجيه البابوية كانت راضية عن الحالة التى وصل اليها الامبراطور البيزنطى  
الى حد أنها رفضت الاستجابة .

وتعتبر هذه الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة عن اندماج  
ثلاثة دوافع مميزة وفقا لمقتضى الحال عن الانسان فى العصور الوسطى  
- هى الاحساس بالورع ، وحب القتال ، والرغبة الشديدة فى جمع المال .  
وتشكل كل من الدوافع الثلاثة عنصرا أساسيا . وبدون المثالية المسيحية  
قلا يمكن على الاطلاق تصور هذه الحروب ، ويضاف الى ذلك أن عامل  
الاغراء فى امتلاك أراضى جديدة ، وثروة لا حصر لها عززت العمل على  
تحقيق الحلم الدينى الخاص بتحرير بيت المقدس والأراضى المقدسة من أيدي  
المسلمين . وقدمت تلك الحروب فرصة رائعة للمقاتل المسيحى من طبقة  
النبلأ أن تظهر قدراته الفروسية فى خدمة المسيح أو السرب Lord  
- وأن يجمع الثروات لنفسه بالاضافة الى ذلك .

• ووفقا لذلك فعندما دعا البابا أوربان الثانى Urban II النبلاء فى القارة الأوروبية الى الاجتماع به سنة ١٠٩٥ م للاشتراك فى حملة صليبية ، واسترداد الأراضى المقدسة ، كانت الاستجابة اجماعية بكل مافى الكلمة من معنى . وفى سنة ١٠٩٦ م كانت الحملة الصليبية الأولى جاهزة . وانطلق الى سوريا وفلسطين جيش دولى عزمهم - ولهذا الجيش قلب ضخم يتكون من الفرسان الاقطاعيين من فرنسا ، ونورماندى ، والنورمان بصقلية . وفى سنة ١٠٩٩ م سقطت بيت المقدس نفسها فى أيدي الصليبيين . ولقد تم انجاز هذه المهمة الضخمة بعد ثلاث سنوات فقط من ادارة الحملات والاشتراك فيها . وتم انتزاع مساحة طويلة من الأراضى على امتداد الشاطئ الشرقى للبحر المتوسط من المسلمين وتوزيعها فى ذلك الحين وفقا للقواعد الاقطاعية ، بين الفرسان المسيحيين . ودعم الصليبيون فتوحاتهم باقامة قلاع منيعة مازالت آثارها تثير اعجاب الرحالة .

وتم تنظيم الأراضى المفتوحة الى أربع امارات صليبية ، كانت مملكة بيت المقدس أكثرها أهمية . وكان ملك بيت المقدس سيدا على الامارات الأربع من الناحية النظرية ، بيد أنه وجد صعوبة فى فرض سلطته خارج مملكته . والواقع أن الفرسان الاقطاعيين الذين استقروا فى الأراضى المقدسة كانوا فى غاية الغرور والولع بالحرب كل لصالحه الشخصى ، ولذلك تميزت الامارات الصليبية منذ البداية بوجود المناقسات والمنازعات الخطيرة .

على أن المسلمين بدأوا يستردون أراضيههم على مر السنين رويدا رويدا . فسقطت بيت المقدس فى أيديهم سنة ١١٨٧ م ، وذلك بعد أقل من مئتين سنة على استيلاء المسيحيين عليها . وأرسلت أوروبا جيوشا صليبية جديدة الى الشرق . بيد أن ذلك كان على غير طائل . وفى سنوات تالية اشترك بعض ملوك أوروبا المشهورين فى حملة صليبية - ريتشارد قلب الأسد Richard the Ioin Hearted ملك انجلترا ، وفردريك باربا روسا

Frederick Barbarossa ملك ألمانيا ، والقديس لويس St. Louis ملك فرنسا - بيد أن ذلك كله كان دون جدوى على الدوام . وفى سنة ١٢٩١ م سقط المعقل الأخير للصليبيين على الشاطئ السورى فى أيدي المسلمين ، وبذلك انتهت الامارات الصليبية الى غير رجعة .

ومع ذلك كانت الحروب الصليبية أكثر من مجرد فشل ذريع ، فطوال الجزء الأكبر من العصور الوسطى العالمية سيطر الصليبيون المسيحيون على أجزاء من الأراضي المقدسة . وشجنت أنشطتهم القدرة المبدعة في أوربا وشغلتها لمدة قرنين . وإبان عصر الحروب الصليبية أقام التجار الأوروبيون قواعد دائمة في سوريا ووسعوا دورهم في التجارة الدولية الى حد كبير . وكان لانتقال جزء كبير من أراضي الامبراطورية البيزنطية الى أيدي المسيحيين الغربيين أثرا جانبيا مدهشا . وحدث هذا كنتيجة للحملة الصليبية الرابعة ( ١٢٠١ - ١٢٠٤ م ) التي حولت طريقها الى القسطنطينية بدلا من الأراضي المقدسة نتيجة لسلسلة غربية من المالبسات . واستولى الصليبيون على القسطنطينية بعد حصارها سنة ١٢٠٤ م ، ونجحوا في تحقيق ما فشل في تحقيقه العديون من قبلهم . وأقاموا حكما لأباطرة غربيين في المدينة لمدة نصف قرن الى أن حل محلهم حكما يونانيا . وفي الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية كما حدث في الأراضي المقدسة وسع الفرسان المسيحيون آفاقهم بإقامة علاقات مع الحضارات الأخرى . على أن أكثر تلك الصلات الحضارية في القضاء على روح التعصب الاقليمي عند النبلاء في غرب أوربا فاق الخصر .

وأخيرا . كانت الحروب الصليبية باعثا على وجود الأنظمة الشبه رهبانية للمحاربين المسيحيين - على سبيل المثال ، الفرسان الداوية . The Knights Templars والاسبيتارية The Knights Hospitallers والفرسان التيتونية The Teutonic - الذين قدموا امتزاجا للحياة الحربية والمسيحية بشكل لا نظير له . وفي القرن الثالث عشر نقل الفرسان التيتون أنشطتهم من الأراضي المقدسة الى شمال ألمانيا ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الحركة الحضارية المسيحية - الألمانية شرقا في مواجهة السلاف الوثنيين .

#### القرن الثاني تجاه الشرق :

كان شرق ألمانيا لايزال الأمر الثاني لأوربا بخصوص امتداد الحدود شرقا . ولم يكن التوسع الألماني تجاه الشرق نتاجا لنشاط سياسة ملكية ، وإنما حركة قادتها الارستقراطية المحلية المغامرة - ان نجدوا على امتداد

فترة طويلة تبدأ حوالى سنة ١١٢٥ م حتى حوالى سنة ١٣٥٠ م فى تحريك الحدود الشرقية لألمانيا من نهر الب Elbe الى ماوراء نهر الأودير oder حتى نهر الفيسستولا Vistola على حساب السلاف . ودعموا مكاسبهم ببناء عدد لا حصر له من القرى الزراعية وشجعوا هجرات ضخمة تجاه الشرق من الفلاحين الألمان . ونتيجة لذلك فان المناطق الجديدة لم يتم فتحها فحسب . وانما تنصرت وصارت ألمانية الى حد كبير . ونتيجة لهذه الحركة اعتنقت مملكة السلاف البولندية المسيحية الكاثوليكية ، واندمجت فى بنية العالم المسيحى الغربى .

واتخذت المراحل الأخيرة للجهود الألمانية التوسعية شكل رأس الحربة على يد الفرسان التيتون الذين توغلوا الى حين بعيدا تجاه الشمال الى داخل ليثونيا Lithuania ، ولاتفيا Latvia ، واستونيا Estonia ، بل وقاموا بمحاولة ناجحة لهزيمة روسيا البيزنطية . وإبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر أجبر الفرسان التيتون على التخلي عن كثير من فتوحاتهم ، بيد أن الكثير من أعمال ألمانيا التوسعية قدر لها البقاء . وشهدت الفترة ما بين ١١٢٥ م و ١٣٥٠ م غزو خمس ألمانيا الحديثة(\*) وصيغ تلك المنطقة بالصيغة الألمانية .

وفى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر توقفت حركة التوسع الأوربية الكبيرة بشكل واضح . وتم فى ذلك الحين الاستفادة من الأراضى الداخلية من غابات ومستنقعات . وبدأت الحدود الخارجية تتمدد فى كل مكان ، وتقلصت كما حدث فى الأراضى المقدسة . على أن الانغلاق فى الحدود واكبه انكماش فى الرخاء الاقتصادى ونضوب فى ثقافة العصور الوسطى العالية . لأن الانجازات الثقافية الرائعة للعصور الوسطى العالية كانت نتاجا لمجتمع الحدود ، الذى يشعر بالتفاؤل ، والبهجة ، وتثير مشاعره عقيدة قوية ، وتدفعه طموحات هائلة ، ويخدعه عالم بدا فيه أن أى شئ من الجائز حدوثه .

---

(\*) قبل الحرب العالمية الثانية .

الجدول الكرونولوجي لتغير الحدود الأوربية

أسيانيا :

|  |      |
|--|------|
| انهيار الخلافة فى قرطبة •                        | ١٠٠٢ |
| الاستيلاء على طليطلة •                           | ١٠٨٥ |
| أراجون تتحد مع كاتالونيا •                       | ١١٤٠ |
| الانتصار المسيحى الكبير فى لاس نافاس دى تولوزا • | ١٢١٢ |
| استيلاء قشتالة على قرطبة •                       | ١٢٣٦ |

صقلية :

|                       |             |
|-----------------------|-------------|
| بداية تغفل النورمان • | ١٠١٦        |
| غزو صقلية •           | ١٠٦٠ - ١٠٩١ |
| موت روبرت جوسكارد •   | ١٠٨٥        |
| موت روجر الكبير •     | ١١٥٤        |

الأراضى المقدسة :

|                                     |      |
|-------------------------------------|------|
| الدعوة للحملة الصليبية الأولى •     | ١٠٩٥ |
| استيلاء الصليبيين على بيت المقدس •  | ١٠٩٩ |
| الصليبيون يفقدون بيت المقدس •       | ١١٨٧ |
| استيلاء الصليبيين على القسطنطينية • | ١٢٠٤ |
| طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة •  | ١٢٩١ |



## ١٢ - الامبراطورية والبابوية :

### الخلفية التاريخية للصراع :

شهدت العصور الوسطى العالية صراعا ملحما بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة - وهو خلاف مأسوى سيطر على التاريخ السياسى الأوربى لمدة قرنين . وكانت البابوية تحت قبضة الملك الألمانى أو الامبراطورية الرومانية المقدسة . وبحلول سنة ١٣٠٠ م تحولت الامبراطورية الرومانية المقدسة الى شبح بالنسبة الى عظمتها الأولى كما سيطر الوهن ، على البابوية ، بعد مرور مائتى وخمسين عاما ، وانتابها حالة من الفزع وصارت على شفى حالة من التدهور الذى استمر لفترة طويلة .

وقبل بداية مرحلة اصلاح البابوية فى منتصف القرن الحادى عشر ، نشأت فجوة بين نظرية البابوية عن المجتمع المسيحى ، وواقع الكنيسة المعاصرة ، فنظرية البابوية وفقا لتقليد ميكل يعود الى ليو الكبير بابا القرن الخامس ، تصورت مجتمعا مسيحيا مقدسا قبل فيه السادة الاقطاعيون والملوك التوجيهات الروحية للمساوسة والأساقفة ، والذى خضع فيه المساوسة والأساقفة الى قيادة البابوية . وادعى البابوات أنهم خلفاء - نواب - للقديس بطرس . وكما كان القديس بطرس رئيسا لمرسل المسيح فقد حاول البابوات أن يبرهنوا على أن البابا ملك للكنيسة الرسولية . وأنه كما أن الخلاص الأبدى أهم بكثير من الجسد لذلك فإن السلطة الكهنوتية أعظم بكثير من السلطة العلمانية للسادة الاقطاعيين ، والملوك وللأباطرة . وأن المجتمع المنظم على مايرام - أى المجتمع المسيحى الحق - هو المجتمع الذى تسيطر عليه الكنيسة ، وهو الذى يسيطر عليه البابا بدوره . وعلى المنساح الفكرى للعصور الوسطى العالية كان لهذه الفكرة أهمية كبرى . وشغلت تفكير العديد من رجال الفكر . كما أنها أمدت البابوية بمكانة فكرية فعالة ، ومقنعة لا يمكن مقاومتها تقريبا .

ان حقيقة مجتمع منتصف القرن الحادى عشر كانت مختلفة الى حد بعيد . فكانت الكنيسة تحت سيطرة الملوك الأرستقراطيين العلمانيين فى كل مكان تقريبا . فعلى نطاق ضيق عين السادة الاقطاعيون مساوستهم ، واختار الأدواق والملوك أساقفتهم ورؤساء أديرتهم . وكما علمنا استخدم أباطرة

الامبراطورية المقدسة رجال الكنيسة فى ادارة المانيا على نطاق واسع . وفى فرنسا ، قدمت الكنيسة المحاربين من ممتلكاتها الزراعية للجيش الاقطاعى ، والكنيسة بالمكاتب القضائية ، والمستشارين السياسيين المحنكين للأمرء الاقطاعيين . ولعبت الكنيسة دورا حيويا فى العملية الاجتماعية للقرنين العاشر والحادى عشر ، غير أنها كانت دائما تابعة لطبقة الحكام العلمانيين . كما أن دورها الروحى والمقدس تعرض للخطر نتيجة لمسئولياتها الادارية المدنية . وتحت تلك الظروف كان من المتوقع أن تتجه الكنيسة الى اهمال رسالتها الدينية . ومن وجهة النظر الروحية فإنها كانت لا تؤدى واجبها بالقدر الوافى ، وأنها غالبا ماسادها الانحراف . وكثيرا ماتجاهلت كل الأديرة النظام الديرى البندكتى الصارم . وكان لبعض القساوسة خيالات ، والغالبية العظمى منهم كان لهم زوجات ، برغم الشروط القانونية الخاصة بالببتل الكهنوتى . وكثيرا ما باع السادة الاقطاعيون الوظائف الكنيسية المهمة الى من عرض ثمنها أكثر . وفى العادة قام الأسقف الجديد باسترداد ثمن شراء منصبه باستغلال المستأجرين لأراضى الكنيسة ، وكذلك من هم تحت رياسته بكل قسوة . وعرفت هذه التجارة الرابحة الخاصة بالتعينات الكنيسية بالسيمونية *Simoney* . واعتبر بعض المصلحين المعاصرين أن السيمونية هى الخطيئة الخبيثة للعصر .

ولم يكن الفساد الكنى أكثر وضوحا فى أى مكان عما كان موجودا فى روما ذاتها . اذ سقطت البابوية فى أوائل القرن الحادى عشر بين الأيدي الملوثة لطبقة النبلاء ، وأصبحت غنيمة تتنازعها الأسر الأرستقراطية القيادية العديدة . وفى سنة ١٠٣٢ م الت الغنيمة الى شاب فاسق وقليل الخبرة . وهو البابا بندكت التاسع *Benedict IX* ، الذى كانت مدة بابويته شائنة ومخزية وفقا للمعايير الرومانية المعاصرة . اذ باع هذا البابا منصب البابوية ، ثم غير رأيه وطالب باسترداده . وبحلول سنة ١٠٤٦ م نافسه شخصان فى الحصول على العرش البابوى . وبذلك ظهر شقاق ثلاثى بالبابوية .

#### حركة الاصلاح :

تلك كانت أحوال الكنيسة الأوربية عند اقتراب منتصف القرن الحادى عشر . والواقع أن وجود كنيسة تحت سيطرة أصحاب الأملاك العلمانيين

لفترة طويلة صار امرا فى حكم المقبول . الا انه عند بداية العصور الوسطى العالمية ، خضع العالم المسيحى لتغير متزايد ومهم جدا فى تقوى وورع العلمانيين ، والذي أشار الى ذروة الصراع البطولى والطويل ابان العصور الوسطى الباكرة عند تنصير أوروبا . وفى عصر نهضة روحية واسعة الانتشار عميقة بدت علاقة الكنيسة بالدولة القائمة على التعايش فى الفترة الزمنية السابقة وقد جانبها الصواب الى حد بعيد من وجهة نظر الشخصيات التى تتكتم بالفهم العلمى السليم . فالبعض ألزم نفسه بحياة الناسك القائمة على الطهارة والورع ، ونضم البعض الآخر الى التنظيمات الديرية المتقشفة اقواجا . ومارس الآخرون المهمة الشاقة الخاصة باصلاح الكنيسة والعالم . وبدأت حركة اصلاح قوية تفرض نفسها على امتداد طول وعرض العالم المسيحى .

وبصفة عامة انقسم المصلحون الى مجموعتين : ( ١ ) المجموعة المحافظة التى سعت الى التخلص من السيمونية ، والتأكيد على ضرورة امتناع رجال الدين عن الزواج ، والرقى بالمنزلة الأدبية لرجال الدين ، دون تحد لتبعية الكنيسة التقليدية للطبقة الأرستقراطية العلمانية - وهى التبعية التى كانت مقبولة بفضل المنح السخية من الأراضى الزراعية والسلطات للأساقفة الخاضعين للطبقة الأرستقراطية العلمانية . ( ٢ ) المجموعة المتطرفة التى حاولت إعادة بناء المجتمع على نمط نظرية الحكومة البابوية . وكان المصلحون المتطرفون يحلمون بمجتمع مسيحى مترابط ومثالى لا يقوم العلمانيون بتعيين رجال الكنيسة - مجتمع يحترم فيه الملوك ارادة الأساقفة . وبه بابوية صالحة لتدير شئون الكنيسة . واذا كان المصلحون المحافظون استهدفوا اصلاح لمجتمع ، الا أن المصلحين المتطرفين كانت لديهم الرغبة فى تغييره .

وكان دير مدينة كلونى البرجندى من أعظم مراكز الاصلاح القائم على المحافظة على التقويم ، وهو دير بندقى كبير ، ويمثابة جزيرة من الاستقامة منذ انشائه سنة ٩١٠ م . وصارت مدينة كلونى مركزا لمجموعة كبيرة من الأديرة التابعة لها والمنتشرة فى كل أنحاء العالم المسيحى - وهو دير كبير تتبعه مئات من الأديرة الصغيرة وكلها جميعا تدين بالولاء لرئيس دير كلونى . واتسمت الحياة الروحية الكلونية بالعفة دون تزمت . وبدون اللجوء

الى الاجراءات المتطرفة فى التقشف وضعت اديرة كلونى مستوا عاليا  
للاخلاقيات المسيحية . فى عهدنا ، وحثت الاديرة الأخرى على الانضمام الى  
مجموعتها الديرية ، وعملت على اجتذاب وصايا الارث القيمة من الطبقة  
الأرستقراطية العلمانية . وفى منتصف القرن الحادى عشر كانت مجموعة  
أديرة كلونى قوية وثرية . وازدادت مثلها العليا قوة نتيجة للاحساس بعلو  
المذلة - وربما أيضا نتيجة للاحساس بالارتياح للنجاح الروحى والقبول  
الاجتماعى . وعمل النظام الديرى الكلونى على زيادة نشاط الشركة الأوربية  
تجاه الاصلاح بيد أن هذا النظام الديرى قبل الهيمنة العلمانية على النظام  
الاجتماعى .

وأيد حركة الاصلاح المحافظ على القديم العديد من الحكام الأكثر  
استنارة ثقافية وروحية أيضا ، ومن بينهم الامبراطور هنرى الثالث  
Henry III ملك ألمانيا الذى انتمى الى قبيلة الصاليين Sali  
الفرنجية التى سكنت مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال . وتدخل  
هنرى فى إيطاليا سنة ١٠٤٦ م ، بعد أن وقع فى نفسه الشعور بالاشمزاز  
نتيجة للصراع العنيف الثلاثى ، الذى قام بين البابا بندكت التاسع صاحب  
السلوك المخزى وبين منافسيه ، ولذلك قام بعزل البابا بندكت ومنافسيه ،  
وعمل على رفع مستوى القيادة البابوية بتعيينه سلسلة من البابوات الذين  
كان لديهم القدرة على الاصلاح . هؤلاء البابوات الذين تم تعيينهم بقرار  
امبراطورى ، وبرهنوا على نشاطهم الفعال ، قاموا بحملة قوية ضد  
السيمونية ، وزواج رجال الدين ، وسافروا الى كل مكان فى أوربا ، وعقدوا  
المجالس الدينية المحلية Synods ، وعزلوا رجال الكنيسة ، الذين ارتكبوا  
الأثام . وعملت الامبراطورية فى تعاون مع البابوية من أجل رفع المستوى  
الأدبى للكنيسة الأوربية .

ومع ذلك ، فبرغم نجاح هذه الحركة الاصلاحية ، فقد كان هناك الذين  
شعروا بأنها غير كافية . إذ اعتقدوا أن الشر الحقيقى يكمن فى السياسة  
العلمانية على الكنيسة ، وأن هيمنة هنرى الثالث على البابوية ، برغم  
نواياها الحسنة ، كانت المثل الواضح لكارثة اجتماعية شديدة . ووات  
المصلحون المتطرفون فرصتهم ، عند موت هنرى الثالث فجأة سنة ١٠٥٦ م ،  
تاركا خلفه ابنا قاصرا وملكة وصية ضعيفة ، وفى ذلك الحين أصبح

كثير من الكردالة - الرؤساء الكهنة المكلفون بإدارة شئون الكنيسة - مفتونين بمفاهيم الإصلاح المتطرف وقبل كل شيء بالنظرية القائلة بتحرر البابوية من سيطرة كل من السلطة الامبراطورية والسلطة الارستقراطية . وعند موت هنرى الثالث كان آخر البابوات المعيّنين قد تم سنة ١٠٥٧ م ، حيث بدأ الكردالة فى انتخاب البابوات المصلحين بمعرفتهم . وفى سنة ١٠٥٩ م أصدروا وثيقة مهمة وجريئة ، عن الاستقلال وهى المعروفة بقرار الانتخاب البابوى *Papal Electin Decree* ، الذى قرر أنه منذ ذلك الحين فصاعدا سيكون موافقة الأباطرة والعلمانيين الرومان على المرشح الذى ينتخبه الكردالة مجرد موافقة شكلية . وفى السنة التالية عارضت كل من الامبراطورية والارستقراطية الرومانية هذا الاعلان الثورى ، بيد أن الكردالة انتصروا فى النهاية . وانتزعت البابوية حريتها من السلطة العلمانية . وخطت الحكومة الملكية البابوية خطوتها الأولى .

#### الخلاف على تقليد المنصب الدينى :

كانت الخطوة التالية أكثر صعوبة . إذ لم ينتج عنها الا الغاء السيطرة العلمانية على الكنيسة . وذلك فى وقت كانت فيه الكنيسة تمتلك ثروة طائلة ، ربما كانت تشغل ثلث الأراضى الزراعية فى أوربا ، وأن تحقيق ذلك الهدف بالكامل لابد أنه أصاب السلطة العلمانية بالشلل وأحدث تغييرا كاملا فى المجتمع الأوروبى . ومع ذلك اعتقد المصلحون المتطرفون أنه بتحقيق ذلك الهدف فحسب . ففى الامكان الوصول الى مجتمع مسيحى مترابط بكل حق وصدق .

وتفجر الخلاف العنيف على التعيينات العلمانية بشكل جدى سنة ١٠٧٥ م ، عندما أصدر جريجورى السابع *Gregory VII* (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) ، أعظم بابوات الإصلاح ، قرار الجرمان واللجنة ضد قيام العلمانيين بتعيين رجال الكنيسة . وجرت التقاليد على أن الأسقف أو رئيس الدير الذى تم اختياره لأول مرة على يد السيد الاقطاعى العلمانى أن يتقلد منصبه بمنحه خاتما وعصا الرعاوية ، رمزا لزوجاه بالكنيسة وواجبه الرعاوى تجاه رعيته المسيحية . وهاجم البابا جريجورى السابع هذه العادة الخاصة بقيام العلمانيين بتقليد رجال الكنيسة لمناصبهم على أنها تمثل رمزا خطيرا للسلطة العلمانية على رجال الكنيسة . على أن تحريم

وحظر هذه العادة كان تهديدا خطيرا لكل حاكم فى العالم المسيحى وبصفة خاصة بالنسبة للامبراطور الرومانى المقدس ، الذى اعتمد نظامه الادارى على سيطرته على الكنيسة الالمانية . وفى عهد البابا جريجورى السابع نما الصبى القاصر ابن هنرى الثالث الى مرحلة الرجولة الكاملة وأبدى مايدل على كونه قويا على مثال والده . فأعلن رفضه للقرار الصادر ضد تعيين العلمانيين رجال الدين ، بارساله خطابا شديد اللهجة والتحدى الى البابا جريجورى السابع ورد عليه البابا برسالة مروعة وبشكل لم يسبق له مثيل بالنسبة لسلطته الروحية ، اذ أعلن حرمانه كنسيا وعزله عن منصبه وباتخاذ هذا الموقف ، تنكر البابا جريجورى السابع للمفهوم المقدس التقليدى عن الحكومة الملكية المفوضة دينيا . ومن وجهة نظر جريجورى السابع ، فالملك ليس نائبا عن الله فى الأرض وفقا للفهم العملى السليم ، وأنه مجرد شخصية علمانية مكلفة بحفظ النظام فى المجتمع المسيحى . وأنه من حق البابا ، الملك الروحى الأعلى للعالم المسيحى أن يقرر اذا ماكان الحاكم صالحا للحكم من عدمه . ولم تكن تصرفات جريجورى الا تصرفات ثورية ، لأنه باصداره قرار الحرمان ضد تقليد رجال الدين مناصبهم على يد العلمانيين وعزله ملك ألمانيا ، فإنه وضع النظرية البابوية موضع التنفيذ فى صيغتها المتطرفة Radical Form . وهن أعماق النظام القائم بعنف .

وهن قرار عزل هنرى الرابع الذى أصدره البابا جريجورى المانيا من الأعماق وأطلق العنان لرد فعل أرسنقراطى قوى كان قد استقحل منذ زمن بعيد ضد سياسات المركزية التىمارستها السلالة الصالية الحاكمة Salian dynasty ( نسبة الى الصاليين Sali ) وهم قبيلة من الفرنجة سكنت فى مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال ) . ورفض كثير من الألمان ، ورجال الكنيسة والعلمانيون على حد سواء خدمة ملك محروم كنسيا . واتخذ الأرسنقراطيون الكبار الخطوة الثورية الخاصة بتحديد انتخاب ملك آخر بدلا من هنرى ، متحدين التقليد العلمانى المتأصل فى النفوس والخاص بالملكية الوراثية بناء على المبدأ المتعارف والمصيرى الخاص باتباع نظام الملكية بالانتخاب .

ولما كان هنرى شديد الحاجة الى الاحتفاظ بعرشه ، لذلك ذهب الى ايطاليا يلتمس عفو البابا . وفى يناير ١٠٧٧ م ، وفى قلعة كانوسا

Canossa بمدينة توسكانى Tuscany ، تقابل الرجلان ، فيما ربما كان ، أكبر لقاء مسرحى وغير متوقع فى التاريخ الوسيط . اذ كان هنرى الرابع عارى القدمين ، وذليلا ، ومرتديا ، ثياب التوبة الرثة ، فى الوقت الذى أعلن فيه جريجورى السابع ضمن قرار الادانة أن تغير قلب هنرى انما كان أمرا يدل على النفاق والانتهازية ، وأن من واجبه الكهنوتى أن يعلن الصفح عن آثم نادم . وأخيرا ألغى البابا جريجورى قرار حرمان هنرى ، وعاد الملك الى ألمانيا بعد أن وعد باصلاح أحواله ، واجراء تغييرات واسعة لسلطته .

وعلى مر القرون صارت كانوسا رمزا لانحدار مكانة الملك الى أبعد حد أمام سلطة الكنيسة . وربما كان ذلك صحيحا . غير أنه بالنسبة الى الظروف السياسية الفورية كان ذلك نصرا - وأمرا لا يبدل له - بالنسبة لهنرى الرابع . وإن كان ذلك لم يمنع مجموعة من النبلاء الألمان من انتخاب ملك منافس ، كما أن ذلك لم يعمل على إعادة الحكومة الملكية المركزية القوية التى كانت فى عهد هنرى الثالث ، غير أنه أنقذ عرش هنرى الرابع . وبعد أن استرد هنرى الرابع الحل بتناول القربان ، صار قادرا على استخدام كل طاقات الدعم المركزة ، وكبح جماح القوى التى لها نزعة اقليمية تحت سلطة الأمراء ، لفترة من الوقت . ومع ذلك ، ما أن ازدادت قوته حتى تجاهل وعوده فى كانوسا ، واستمر فى تأييد تعيين رجال الدين على يد العلمانيين . وفى سنة ١٠٨٠ م أصدر البابا جريجورى السابع قرار حرمان ضد هذا الملك الذى استخف بالأمور للمرة الثانية ، غير أن هذا السلاح الروحى الفعال فقد قوته بسبب كثرة استعماله . وفى أوائل سنة ١٠٨٠ م عاد هنرى الرابع الى إيطاليا ، وفى هذه المرة كان معه جيشه من خلفه . وابلان حالة الفوضى التى حدثت بعد ذلك اضطر جريجورى السابع الى الفرار من روما واللجوء الى النورمان فى جنوب إيطاليا . وفى سنة ١٠٨٥ م مات جريجورى ، وهو مغمم بالشعور بالمرارة والإيمان الراسخ بالفشل ، وكانت آخر كلماته : « انى قد أحببت العدالة وكرهت الظلم ، ولذلك فانى أموت فى المنفى » .

وبرغم فشل جريجورى السابع فى تحويل أوروبا الى ماكان يعتقد أنه مجتمع مسيحي حقيقى ، فإن نظريته عن الحكومة البابوية احتفظت بقوتها . وفى الحال انتقلت البابوية التى صلحت أحوالها على يدى البابا المقتدر

أوربان الثانى Urban III ( ١٠٨٨ - ١٠٩٩ م ) ، والذي كان رئيسا سابقا لأدير كلونى Cluny ، والذي تولى القيادة المعنوية لأوربا بدعونه للحملة الدينية ( الصليبية ) الأولى التى باركتها الكنيسة . وجعل أوربان الثانى وخلفاؤه حياة هنرى الرابع السيئ الحظ جحيما لا يطاق بعد أن حرضوا على قيام حركات التمرد ضده فى ألمانيا ، والعمل على الاقلال من سلطة الحكومة الامبراطورية . وفى سنة ١١٠٦ م ، مات هنرى الرابع معانیا من الام بنقش القدر الذى كان يعانى به البابا جريجورى السابع . إذ قام فى النهاية ابن هنرى الرابع ووريثه ، بقيادة جيش من الارستقراطيين الأعداء ضد والده . وعند موت هنرى الرابع بدت الامبراطورية الجرمانية على أنها قد أصيبت بالانهيار الشديد من حوله . . .

وتمتع هنرى الخامس ( ١١٠٦ - ١١٢٥ م ) بعهد أكثر سعادة من والده ، وذلك لأنه تخلص من صراع والده من أجل استعادة السلطة الامبراطورية الكاملة كما كانت موجودة فى منتصف القرن الحادى عشر ، وعملت الطبقة الارستقراطية النازعة الى الاستقلال على تدعيم مكاسبها التى حققتها إبان فترة الفوضى العامة السابقة ، ولم يستطع هنرى الخامس أن يفعل شيئا فى هذا الصدد .

وقرب نهاية عهد هنرى الخامس ، توصل الى تسوية لحل المنازعات مع الكنيسة حيث تم وضع حد للخلاف على تقليد المنصب الدينى . وكان قد تم تسوية هذا الخلاف فى كل من إنجلترا وفرنسا من قبل ، حيث كان الصراع بين الكنيسة والدولة أقل عنفا بكثير عما كان موجودا فى ألمانيا . ويمرور الوقت مالت البابوية والامبراطورية الى التحرك بعض الشيء عن موقفها المتبادعين اللذين تمسكا بها إبان مدة وجود جريجورى السابع على العرش البابوى . وأخيرا تم تسوية الخلافات بين البابوية وهنرى الخامس لتنظيم شئون الكنيسة فى اتفاقية ورمز Concordat of Worms سنة ١١٢٢ م . ووافق هنرى الخامس على أن طقوس تقليد المنصب الدينى لن تتم على يد العلمانيين ، غير أن البابا حول للامبراطور الامتياز المهم الخاص بوضع الرمز الخاصة بالأسقف الجديد والمتعلقة بنطاق سلطته الاقليمية والادارية . ومنذ ذلك الحين فصاعدا صان انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة يتم وفقا لبادئ القانون الكنسى ، بواسطة رهبان الدير أو قوائم الكاتدرائية ، بيد



أنه للإمبراطور الحق فى حضور تلك الانتخابات ، وأن يصدر القرار الأخير فى حالة حدوث خلاف . ومكنت تلك الاحتياطات الإمبراطور من أن يحتفظ بقدر كبير من السيطرة الواقعية عند تعيين رجال الكنيسة الألمانية . والواقع أن التوفيق بين السلطة الملكية والانتخاب وفقا للقانون الكنسى ظهر بوضوح فى الميثاق السعيد الصادر فى القرن الثانى عشر فى عهد هنرى الثانى ملك إنجلترا عندما قال لرهبان ونشستر Winchester ، « انى أطلب منكم أن تجروا انتخابات ، ومع ذلك فانى أمتنعكم من انتخاب أى شخص آخر غير ريتشبارد Richard ، رجل الدين التابع لى : ورئيس شمامسة بوايه Poitiers » .

ولم يكن هناك منتصر حقيقى فى مسألة الخلاف على تقليد المنصب الدينى - فالكنيسة حققت غرضها - وتم تعيين رجال الدين على يد العلمانيين - بيد أن الملوك ظلوا يمارسون سيطرة حقيقية على كنائسهم . كما أن نظرية الحكومة البابوية المألقة لمجتمع مسيحي ظلت دون تحقيق .

ومع ذلك ، فان ميزان القوى البابوى - الإمبراطورى تغير بشكل أساسى منذ منتصف القرن الحادى عشر . إذ كانت البابوية فى ذلك الحين قوة عظمى ، فى الوقت الذى تدهورت فيه سلطة الإمبراطورية تدهورا شديدا . وإبان نصف قرن من الفوضى السياسية بين بداية الخلاف على تعيين رجال الدين فى سنة ١٠٧٥ م ، وموت هنرى الخامس فى سنة ١١٢٥ م ، وصل الاقطاع الى ألمانيا . وفى تلك العقود الخاصة بالنزاع المدنى ظهرت طبقة أرستقراطية جديدة وقوية . وأصبح كبار ملاك الأراضى الطموحين سلطة كبيرة ، وبنوا القلاع وانتشرت أراضيهم الزراعية ، واغتصبوا الحقوق الملكية . وأجبروا الفلاحين الأحرار على أن يصيروا أبقانا لهم . وكانت الحكومة الملكية عاجزة عن وضع حد لهذه العملية المندرة بتفتت الدولة .

وفى شمال إيطاليا مارس الأباطرة سلطتهم التقليدية على يد الأساقفة اللومبارديين - المواليين للإمبراطورية ، والذين كان لهم حقوق قانونية كبيرة على مدنها وعلى الأقاليم الزراعية المحيطة . وإبان الفوضى الناجمة عن الصراع البابوى الإمبراطورى تبنى سكان المدن التجارية الأخذ فى النمو - والذين كانوا أتقياء ، ولديهم ميل شديد للاستقلال فى السهل اللومباردى وقضية الإصلاح البابوى ، وثأروا ضد السيطرة البابوية والأسقفية ، وأقاموا

وحدات ادارية صغيرة شبه مستقلة أو نظام المدينة - الدولة • وبحلول سنة ١١٢٥ م كانوا قد قضوا على سلطة الأساقفة اللومبارديين قضاء كاملا، وأضعفوا السيطرة الامبراطورية الى الحد الذى كانت فيه أقل بكثير من الناحية الشكلية • لقد أصبح الاقليم النورماندى أقساما ادارية صغيرة على نسق الادارات المدنية •

وفى ألمانيا وإيطاليا على حد سواء ، كانت السلطة الامبراطورية تتراجع أمام زوبعة النزعة الاقليمية المحلية ، والتي غزت حالة الورع الشعبى الذى بلغ مداه فى ذلك العصر • وهكذا فقبل عقد اتفاقية ورمز بكثير كان قد بدأ سقوط امبراطورية العصور الوسطى •

#### عصر فردريك بربروسا ( ١١٥٢ - ١١٩٠ م ) :

انقرضت السلالة الحاكمة السالوية برحيل هنرى الخامس سنة ١١٢٥ م • وخلال الربع التالى للقرن جنت ألمانيا الحصاد المرير للنزعة الاقليمية للأمراء • وتجاهل النبلاء الكبار مبدأ تولى عرش الملك بالوراثة ، وعادوا الى المبدأ الانتخابى الذى كانوا قد التزموا به فى عهد كانوسا Canossa • وكان اختيارهم يقع على رجل من دم ملكى على الدوام ، غير أنه لم يكن الوريث المباشر على الاطلاق • وفى عقود الاضطرابات الواقعة بين ١١٢٥ م و ١١٥٢ م قامت منافسة كبيرة بين أسرتين قويتين وصلتا الى السلطة أبان فترة الفوضى الناجمة عن الخلافات الخاصة بتعيين رجال الدين : أسرة ويلف من ساكسونى Welf of Saxony وأسرة الهونشتوفين من سوابيا Hohenstaufens of Swabia وفى سنة ١١٥٢ م انتخب الأمراء ملكا قويا هونشتوفيا موهوبا ، وهو فردريك باباروسا ( صاحب اللحية الحمراء ) ، دوق سوابيا ، الذى أخذ على عاتقه إعادة احياء ، وبناء الحكومة الملكية الألمانية •

أدرك فردريك باربا روسا جيدا أنه من المستحيل إعادة بناء الامبراطورى القوى الذى كان على عهد هنرى الثالث • لذا كان هدفه تسخير القوى الاقطاعية الجديدة فى عصره لصالح الملكية • ومن الناحية الواقعية ، عمن على أن يمد الأمراء الكبار بالملكة نفوذهم وامتيازاتهم على حساب السادة

الاقطاعيين الأصغر ، بيد أنه فى الوقت نفسه أجبرهم على الاعتراف بسيادته  
الاقطاعية فى كل أنحاء المملكة • بمعنى آخر ، فقد نجح فى جعل أقطاب  
الاقطاع الذين تولوا القيادة أتباعا اقطاعيين له - مستأجرين بشكل رئيسى  
وبذلك كان السيد الاقطاعى الأعلى على قمة النظام الهوسى الاقطاعى •

غير أنه يتضح جيدا من الحالة التى يرثى لها للملكية الفرنسية الباكرة،  
كانت السيادة العليا الاقطاعية أمرا سريع الزوال اذا ماكان السيد الاقطاعى  
الأعلى يفتقر الى السلطة والموارد المالية ليدعم مركزه • ولذلك شرع فرديريك  
باربا روسا فى زيادة الدخل الحكومى وزيادة مساحة الأرضى تحت سلطته  
المباشرة •

ويحتاج الملك الاقطاعى الى جزء مركزى ملكا خاصا له • وتحت  
السيطرة الملكية تماما وهى أراضى واسعة تابعة للقصر الملكى مباشرة تقوم  
بعمل توازن مع الاقطاعات الكبيرة التى يمتلكها أكبر أتباعه الاقطاعيين فى  
مملكته • وعمل فرديريك على زيادة مساحات الأراضى الزراعية التابعة  
للقصر ، وتركز معظمها فى سوابيا ، وذلك بوضعه الكثير من الأديرة الجديدة  
والمدن الآخذة فى النمو تحت نطاق سلطته الامبراطورية • على أن النقطة  
الأساسية فى سياسته البسارعة هى اقامته سلطة امبراطورية على مدن  
لومباردى الغنية ، وبوضع لومباردى تحت سيطرته ، بدخلها الوفير الذى  
غذى خزانة الامبراطورية • فلم يستطع أحد من السادة الاقطاعيين الألمان  
أن يتصداه •

على أن سياسة بارباروسا تجاه اللومبارد جلبت عليه عدااء البابوية  
التي كانت تخشى على الدوام من تدعيم السلطة الامبراطورية فى ايطاليا •  
والمواقع أن البابوية استرجعت ذكريات البابا جريجورى السابع باعلانها  
حرمان وعزل الامبراطور • واختصت البابوية لنفسها بطفاء فى المدن  
اللومباردية المستقلة استقلالا قويا ، والتي عقدت العزم على تقديم جزء من  
ثروتها والتنازل عن شيء من تمتعها بالحكم الذاتى قدر استطاعتها • وكانت  
نتيجة ضغوط بارباروسا المثيرة للغضب الشديد ، وتشجيع البابوية أن قامت  
تلك المدن بتكوين اتحاد عرف باسم الحلف اللومباردى Lombard League  
وانشأوا جيشا قويا ربط بين المدن لمقاومة الامبراطورية الرومانية المقدسة •  
وانتهى النضال المرير الذى طال أمده وتورط فيه كل من بارباروسا والبابوية

واللومبارد ، بنصر شامل للجيش اللومباردى فى معركة لينجانو Lengano سنة ١١٧٦ م . واستسلم باباروسا بأقصى درجات الكياسة التى قدر عليها ، مانحا استقلالاً فعلياً للمدن اللومباردية فى مقابل اعترافهم بالسيادة الاقطاعية العليا للامبراطورية التى شابها شئ من الغموض وتعانق البايالامبراطور والدموع فى عينيها ، ووعد باباروسا أن يكون ابنا مطيعا للكرسى البابوى الرومانى من ذلك الحين فصاعداً .

خسر باباروسا معركة غير أنه لم يخسر الحرب على الإطلاق وترك لومباردى بمفردها على نحو خطير ، ونقل عملياته العسكرية جنوباً الى اقليم توسكانى ، واقام سلطة ادارية على هذا الاقليم الغنى الواقع شمال الولايات البابوية مباشرة . وفى الوقت نفسه رتب زواجا مصيريا بين ابنه ووريثة المستقبل لملكة النورمان فى جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية - وهو الزواج الذى وضع تلك المملكة الغنية فى حظيرة الامبراطورية فى النهاية . وكانت البابوية ضحية لتفوقه عليها فى حيله التى اتسمت بالدهاء الشديد . كما كانت البابوية فى خطر شديد من جراء محاصرته لها وامساكه بتلابيبها . وفى سنة ١١٨٠ م عمل باباروسا على تدعيم سلطته فى ألمانيا بالقضاء التام على أكبر والد أعدائه من بين أتباعه الاقطاعيين وهو ويلف دوق ساكسونى Welf duke of Saxony وكان هذا الامبراطور البعيد النظر فى أوج قوته سنة ١١٩٠ م عندما مات ابان قيادته لجيشه تجاه الأرض المقدسة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة .

وبذل باباروسا جهداً مضنياً حتى لا يتعرض للخضوع لطريقة انتخاب الملك المتبعة وذلك باجباره الأمراء قبل موته على اختيار ابنه هنرى السادس ، وفى سنة ١١٩٠ م اعتلى هنرى السادس عرش الألمان دون صعوبة ، وفى سنة ١١٩٤ م طالب بحقه فى مملكة صقلية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وفى ذلك الحين كانت الولايات البابوية جزيرة محاطة تماماً بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولا حول ولا قوة للبابوية فى تغيير الموقف . وبفضل فى الموارد المالية الضخمة من جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية كانت الخزائن الامبراطورية عامرة بالأموال . كما أن الأراضى التابعة للدولة فى هذا العهد الامبراطورى لم يسبق لها الاتساع على ذلك النحو .

ولولا أنه كان على الامبراطور أن يظل يقظا على الدوام أمام القوى الطارئة ذات النزعة الاقليمية ، وقبل كل شيء أمام الطموحات التي لا حد لها لاتباعه الاقطاعيين الكبار الالمانيين ، كان من الممكن أن تمتد حدود الدولة إلى حد كبير جدا . وظل الأمر مثيرا للتشاؤم المشكوك فيه إذا ماكان الانسان بمفرده لديه المقدرة على حكم ايطاليا و ألمانيا في وقت واحد . ولن يكون في مقدرتنا معرفة إذا ماكان هنري السادس قادرا على انجاز هذه المهمة ، لأنه مات قبل الأوان سنة ١١٩٧ م ، تاركا العرش لوريثه الطفل فريديك الثاني . وان المشاكل التي واجهتها الامبراطورية سنة ١١٩٧ م كان من الممكن أن ترهق أقدر القادة ، حتى أن القيادة الامبراطورية فشلت في هذه الفترة العصيبة . وأخيرا جاءت فرصة البابوية .

علو نجم البابوية في العصور الوسطى :

فقدت البابوية من روح 'لاصلاح المتحمس السابق ، وذلك ايان القرن الثاني عشر عندما تطورت إلى مؤسسة ادارية معقدة وضخمة ، وتدفقت الموارد المالية على خزائن البابوية من كل ولايات العالم المسيحي الغربي ، حيث قطع الأساقفة مسافات شاسعة في الذهاب إلى الحبر الروماني لتقديم الطاعة الروحية . وكانت سلطة البابوية على الكنيسة قد تزايدت إلى أبعد حد منذ منتصف القرن الحادي عشر . وذلك عندما اقترب حلم الحكومة البابوية من أن يتحقق ، وتم تفسير النظرية التقليدية الخاصة بسيادة بابوية على المجتمع المسيحي وزادت تعظيما على يد فئة جديدة من الدارسين للقانون الكنسي ، كنتيجة للزيادة الكبيرة في الثقافة والمذهب العقلي . وانكب هؤلاء العلماء الكنسيون على دراسة القوانين الكنسية القديمة وكل ما هو متعارف عليه في الكنيسة للكشف عن أدلة جديدة لصالح القضية البابوية . وإذا كان كثير من البابوات المصلحين في القرن الحادي عشر من الرهبان ، فإن الغالبية العظمى من بابوات أواخر القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر كانوا ممن درسوا القانون الكنسي .

وكان انوسنت الثالث Innocent III ( ١١٩٨ - ١٢١٦ م )

اعظم هؤلاء البابوات الدارسين للقانون الكنسي ، الذي اعتلى العرش البابوي في العالم التالي لموت هنري السادس . انه هو الذي اغتتم فرصة اعتقال طفل عرش امبراطورية متزاعمة الأطراف . كان انوسنت الثالث يمثل تاريخ

أعظم البابوات قوة - إذ أنه كان أرسقراطيا واثقا من نفسه ، ومهييلا ،  
ودبلوماسيا مأكرا ، ومعتد الذكاء ، وتقيا دون تكلف ، ومع ذلك بعيدا عن  
الاسترسال مع العاطفة الدينية الجياشة التي سادت القوم في عصره .  
ولما كان البابا أنوسنت الثالث متأثرا للغاية بنظرية الحكومة البابوية في  
أشد صورها المتشددة ، لذلك فانه فرض إرادته على ملوك العالم المسيحي ،  
ونجح في تاليب كل ملك على الآخر تحقيقا لمصلحته الشخصية ببراعة  
شديدة . وانتهى الصراع الطويل مع حنا John ملك إنجلترا بشأن تعيين  
رئيس أساقفة مدينة كانتربري Canterbury بالخضوع الكامل للسيادة  
البابوية والاعتراف بسلطانها على إنجلترا . وفي فرنسا عطل أنوسنت الثالث  
إقامة الطقوس الكنسية مؤقتا ، وأصدر قرار الحرم الكنسي ضد ملك فرنسا  
لإجباره على طلاق زوجته الثانية . ودعا إلى حملة صليبية جديدة إلى  
الأراضي المقدسة ، ودعا أيضا إلى حملات صليبية ضد المسلمين المغاربة  
Moors بإسبانيا ، وكذلك ضد مجموعة قوية من الطوائف المسيحية التي  
لا تدين بذهب الكنيسة عرفت باسم الالبجنسيين Albigensians  
وباختصار ، فانه مارس سيطرة معنوية على العالم المسيحي لا يضاهيه  
فيها أي بابا من قبل أو من بعد .

وكانت ألمانيا إبان فترة توليه البابا أنوسنت الثالث ممزقة نتيجة  
للصراع المرير على العرش بين أسرتي ويلف Welf والهومنشـتوفـن  
Hohenstaufen . وفي بداية الأمر ساند أنوسنت أحد المتنافسين ضد  
الآخر . وأخيرا اختار فردريك الثاني الطفل الوريث لأسرة هومنشـتوفـن .  
وأنقزع أنوسنت وعودا كثيرة من فردريك الثاني ، وجعله يقسم على أن يفصل  
مملكة صقلية عن الإمبراطورية ، وأن يذهب على رأس حملة صليبية ، وأن  
يسير وفقا للتعليم الروحي للبابوية . إلا أنه ما أن مات أنوسنت حتى أعلن  
فردريك صراحة ، أنه سيطرح جانبا نصيحة البابا . وسيقتصر كما يحلو  
له . وهكذا وقع أنوسنت في سوء تقدير شديد الخطورة عند اختياره  
فردريك الثاني .

فردريك الثاني ( ١٢١١ - ١٢٥٠ م ) :

تعرض فردريك الثاني ، الذي تربى في صقلية للولاء المتعدد . وشب

متقد الذكاء ، غير متدين ونزاعا للشك ، واهتم بحريمه ، واقتنائه الحيوانات المفترسة المجلوبة من عدة أماكن . فافتتحت اهتماماته بخلاص روحه . وأصاب معاصريه بالانبهار واستحق اسم « أعجوبة العالم » Stupor Mundi  
اذ أن حلمه بتوحيد كل إيطاليا وجعلها مركزا للامبراطورية جلب عليه عدااء البابوية الأبدى . والواقع أن بعض رجال الكنيسة 'عتبروا فردريك عدوا للمسيح شكلا وموضوعا .

كان فردريك الثانى رجلا موهوبا ، ومتعدد الاهتمامات - ربما كان أعظم نتاج متوهج لعصر اتسم بالابداع بدرجة شديدة . وكان كاتبا له مقدرة فائقة ، عالما هاويا ، وشديد الشغف بالعالم المحيط به ، بيد أنه فى بعض الأمور كان مؤمنا بالخزعبلات بدرجة شديدة . وبعد فوات كثير من الوقت نفذ وعده فى قيادة حملة صليبية ( سنة ١٢٢٨ م ) ، غير أنه بدلا من محاربة المسلمين فاته فائزهم ، وحالفه كثير من التوفيق فى تلك الخطوة حتى أن الطابع السلمى لحملة فردريك الصليبية أصاب الكثير من رجال الكنيسة باعتباره عملا غير مقدس تجاه الكفرة infidel ( يقصد المؤلف المسلمين !!! ) ، وأن نجاح هذا الطابع السلمى عمل على زيادة شعورهم بالغيب . كما أن فوز هذا المتشكك فى الدين ، والذي لا يتسم بالوقار ، بتاج بيت المقدس كان أمرا ليس فى مقدرتهم تحمله تقريبا .

حكم فردريك الثانى مملكته فى صقلية حكما مطلقا الا أنه كان على نمط الحاكم المطلق المستنير فى عصر النهضة الأوربية ، وأصدر مجموعة قانونية ، وتمسك بالتنظيم المركزى لأسلافه النورمان الذين عاشوا فى صقلية ، وعمل على التوسع فى ذلك المجال ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وألغى الرسوم الجمركية الداخلية والمكوس ، وأقام جامعة كبرى فى مدينة نابلى . وكان قد وعد البابا انوسنت الثالث بأنه سوف يفصل صقلية عن الامبراطورية ، بيد أنه لم يبذل أى جهد للوفاء بوعده . وبالرغم من أنه حاول أن يسير على نهج سياسة فردريك بارياروسا فى تقوية الاراضى الزراعية التابعة للتاج ، وفرض الالتزامات الاقطاعية على كبار أتباعه الاقطاعيين الجرمان ، فإنه قام بذلك بحماس أقل وبالنسبة اليه ، كانت ألمانيا مهمة فى المقام الأول كمصدر للمال والقوة الحربية حيث تمكن من تنفيذ سياسته القائمة على وضع كل إيطاليا تحت سيطرته .

أوروبا فى العصور الوسطى

وكما حدث أثبتت هذه السياسة فشلها الذريع . إذ أن أعمال فريديريك العدوانية فى إيطاليا أثارت معارضة الحلف اللومباردى Lombard League الذى عاد اليه النشاط من جديد ، وكذلك عداء البابوية ، الذى لم يكن هناك سبيل الى تغييره . وتخلّى عن الأراضى والحقوق الملكية فى ألمانيا بطريقة تكان تكون تخليات دون مبالاة تقريبا لكى يظل على سلام مع الأمراء الألمان ويحظى بتأييدهم لحملاته الإيطالية المتواصلة والتي لم تكن حاسمة . وفى النهاية ، كان فريديريك الثانى مضطرا الى فرض الضرائب على جزيرة صقلية الى حد أن أوصلها الى حافة الفقر . كل ذلك لمواصلة حروبه التى لا نهاية لها . وفى سنة ١٢٤٥ م ترأس البابا مجمعا عالميا للكنيسة فى لايون Lyons حيث تمت ادانة فريديريك الثانى وحرمانه كنسيا . وتم عزل الامبراطور وانتخاب منافس له بديلا منه ، وتمت الدعوة الى حملة صليبية ليخلص الامبراطورية من طاغيته الخارج على التعاليم الدينية . وفى ذلك الحين تفجرت الثورات فى كل أنحاء الامبراطورية وانفلتت الأراضى والأطيان الملكية فى ألمانيا من قبضته شيئا فشيئا ، واجتاحت حركات التمرد ممتلكاته الإيطالية . وفى مواجهة هذه الخلفية التاريخية الكئيبة مات فريديريك الثانى سنة ١٢٥٠ م .

#### فشل الامبراطورية فى العصور الوسطى :

والحقيقة أن آمال الامبراطورية فى العصور الوسطى ماتت مع فريديريك الثانى . وخلفه ابنه فى ألمانيا بيد أنه مات بعد فترة قصيرة وغير موفقة . ولدة التسعة عشرة سنة التالية ، ظلت ألمانيا تعاني من فترة خلو العرش وأصابتها بالشلل التام ( ١٢٥٤ - ١٢٧٣ م ) ، حتى أنه لم يعقل العرش فى تلك الفترة امبراطور معترف به . وفى سنة ١٢٧٣ م ظهرت امبراطورية رومانية مقدسة باركتها الكنيسة ، وكانت ضعيفة الى حد كبير تحت رئاسة رودلف هابسبورج Rudolph of Hapsburg ، وهو أول امبراطور لأسرة قدر لها أن تلعب دورا خطيرا فى تاريخ أوروبا الحديث . وحاول رودلف أن يعيد بناء الممتلكات ، والأراضى الزراعية الملكية المبعثرة ، وأن يرسى دعائم أسس الحكم الامبراطورى ، بيد أن ذلك جاء بعد قوات 'الأوان' . وكان هدف الحكومة الملكية الوحيد العمل على تقوية وزيادة رقعة أراضى التاج ، وتحوليلها تدريجيا الى قلب دولة حديثة . تلك كانت السياسة التى مكنت الحكومة الملكية فى العصور الوسطى من مركز الهيمنة فى فرنسا .



وأنها كانت نفس سياسة فريديك بارباروسا التى اتبعها بنجاح فى ألمانيا .  
غير أنها كانت سياسة أثارت المعارضة المتواصلة لكبر الاقطاعيين ، الذين لم  
يكونوا راضين فى أن يروا حقوقهم - وأراضيهم التابعة لهم تتناقص على  
حساب التوسع الملكى . بل على العكس من ذلك ، فإنهم كانوا تواقين الى  
زيادة رقعة الأراضى التابعة لهم على حساب أراضى التاج .

وان الحرب الأهلية ابان فترة بابوية انوسنت الثالث ، وتورط فريديك  
الثانى فى إيطاليا ، وفترة خلو العرش ( ١٢٥٤ - ١٢٧٣ م ) ، أعطت الأمراء  
الاقطاعيين فرصتهم ، ولذلك ففى سنة ١٢٧٣ م ، كانت أراضى التاج قد  
تناقصت واعتراها الفساد على نحو يبعث على اليأس . وكانت ألمانيا فى  
ذلك الحين تندفع بشكل لا رجعة فيه نحو قيام اتحاد كونفدرالى غير مراقب  
بين الامارات مع وجود الحكومة الانتخابية الضعيفة التى ميزت نظامها  
الدستورى منذ القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر . كما أن  
ال فشل الذريع لامبراطور العصور الوسطى ظل مخيما على ألمانيا لمدة ستمائة  
عام من التفكك المرير - وهو ميراث شديد المرارة على النفس الذى ربما قد  
ساهم فى حدوث كارثتها فى القرن العشرين .

وكذلك إيطاليا خرجت من صراعات العصور الوسطى مقسمة تماما .  
فابان فترة خلو العرش من وجود ملك Interregnum ، نجحت البابوية  
فى فصل مملكة صقلية عن الامبراطورية بشكل دائم . وفى السنوات التالية  
صارت صقلية أرضا للصراع بين دعاوى الأسرتين الحاكمتين فى كل من  
إسبانيا وفرنسا . وفى الوقت الذى كان فيه الاقليم الايطالى فى حالة ازدهار  
وتنور كانت صقلية متخلفة ، وتعانى من الفقر المدقع والتفكك . وفى ذلك  
الحين كان شمال إيطاليا فى حالة من الفوضى السياسية ، من جراء وجود  
نظام المدينة الدولة المستقلة استقلالاً كاملاً ، والتى حاربت بعضها البعض -  
فلورنس Florence سايانا Siena والبندقية  
Venice ، وميلان Milan ، ومدن كثيرة أخرى - ومن  
منافساتهم تكونت الستارة الخلفية لسرح النهضة الإيطالية .

### البابوية بعد انوسنت الثالث :

إذا ما أراد المرء أن يكون رآيا عن انحلال الامبراطورية الرومانية

المقدسة فى القرن الثالث عشر فسوف يستنتج أن البابوية قد أحرزت نصرا ساحقا . بيد أنه كان نصرا أجوفا لأن قوة البابوية بصفة أساسية فى العصور الوسطى اعتمدت على مكانتها كقوة روحية . وعندما تورط بابوات مثل أنوسنت الثالث على نحو متزايد فى سياسة القوة صار دورها الروحى غير واضح بشكل مطرد . وفى القرن الثالث عشر خضعت رسالة البابوية الدينية العالية الى مصالحتها السياسية المحلية باستمرار . وكانت البابوية تكسب معاركها ولكن رويدا رويدا ، وتقريبا على نحو ضئيل الى حد بعيد ، فى الوقت الذى كانت تفقد فيه سيطرتها على قلب أوروبا . فقرارات الحرمان الصادرة عن البابوية - والتى غالبا ماكانت لأسباب سياسية - لم تعد سلاحا مرهبا كما كان من قبل . فالدعوة الى حرب صليبية ضد فريديريك الثانى كانت لاشك وسيلة فعالة لمضايقة ذلك الامبراطور المثير للمتعاب ، بيد أن المثل الأعلى لحملة صليبية انحط قدره . اذ أتى الوقت الذى دعا فيه البابا الى حرب صليبية دون استجابة .

وعندما أصبحت البابوية قوة سياسية كبرى ، ومؤسسة ضخمة وجدت نفسها فى حاجة متزايدة لمصادر الدخل . وبحلول نهاية القرن الثالث عشر اكتسبت سمعة بغیضة بسبب جشعها الذى لا حد له . وتذمر أحد المعلقين المعاصرين بالشكوى ، معلنا أن الراعى الأعلى للعالم المسيحى الذى من المفروض عليه هداية رعية المسيح ، قام بجز صوفها . ومن سخريه القدر أن النتائج المالى والسياسى للبابوية فى العصور الوسطى المتأخرة ظهر كنتيجة مباشرة لحلمها القديم الخاص بأن تكون المحرك الروحى لعالم مسيحى قد جرى اصلاح أحواله . وفى القرن الحادى عشر بلغت البابوية أعلى مراتب الشهرة بين فيض غامر من حالة الورع - الجديدة الشاملة التى اجتاحت الشعب . أما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فإنها كانت بطيئة التفاعل والاستجابة ، بشكل متزايد تجاه الطموحات الروحية المتأصلة فى نفوس المسيحيين الأوروبيين نظرا لأنها أصبحت مشغولة فى خضم المشاكل المعقدة للقوى السياسية بشكل مطرد .

وعملت البابوية على اذلال الامبراطورية ، بيد أنها تعرضت للمهانة فى نهاية الأمر على يد القوى المتزايدة للحكومات الجديدة المتمركزة فى شمال أوروبا . وبنهاية القرن الثالث عشر كان ثمة مفهوما جديدا عن السلطة العليا

الملكية وبشكل سائد • ووجد ملوك انجلترا وفرنسا بشكل متزايد أنه من الصعب السماح بوجود حالات تشبه الاستقلال وتتمتع بمزايا كبيرة ، وتسيطر عالميا على الكنيسة د'خل حدود دولهم • وعند محاولة وضع تلك الدول الكنيسة تحت سلطة الملكية تعرض الملكيين للمعارضة البابوية القوية • وإذا كانت مسألة وقوف البابوية ضد السيطرة الملكية على الكنيسة مسألة قديمة الا أن الخلاف القديم اتخذ شكلا جديدا • كما أن ملوك أواخر القرن الثالث عشر الذين بدأت قوتهم فى الازدياد ، وجدوا أنفسهم فى حاجة الى المال بشكل مطرد • وكان هذا صحيحا بعد سنة ١٢٩٤م بصفة خاصة عندما أصبحت انجلترا وفرنسا حبيستين لسلسلة من الحروب الباهظة النفقات • وتبنى الملكان سياسة جديدة خاصة بفرض الضرائب على رجال الدين فى مملكتيهما ، غير أن البابا بونيفس السابع Boniface VII ( ١٢٩٤ - ١٣٠٣ م ) ، رد بعنف على ذلك الاجراء باصداره أمرا بابويا يمنع صراحة دفع تلك الضرائب • وهكذا وصلت العلاقات بين الدولة والكنيسة الى طريق مسدود للمرة الثانية •

وكان بونيفس الثامن د'رسا للقانون - مقتدرا وإن لم يكن عبقريا وشديد الاحترام لذاته وعنيدا ، ورأى وجوب السلطة البابوية المطلقة بدرجة فاقت أفكار انوسينت الثالث بيد أنه كان على عدم دراية تامة بالمفاهيم الضمنية للحكومات الملكية الراغبة فى قيام نظام مركزى خاص بكل منها بأوربا فى أواخر القرن الثالث عشر • ومما يؤخذ عليه بشدة ، عدم مقدرة على تطوير مفاهيمه الشديدة البعد عن الواقع عن السلطة البابوية الى الحقائق الواقعية للسياسة المعاصرة •

ووجد البابا بونيفس فى فيلب الوسيم Philip the Fair ملك فرنسا ( ١٢٨٥ - ١٣١٤ م ) خصما قويا ، ومتحجر القلب • وتجاهل فيلب الأمر البابوى الخاص بعدم فرض ضرائب على رجال الدين ، وأمر موظفيه بنشر الشائعات المفتراه والمخزية فى مملكته • فأصبح بونيفس الثامن مجبرا على الاستسلام على الفور ، وفرض فيلب الضرائب على رجال الدين دون معارضة • غير أن البابا استرد ثقته عند وجود سيل عرم من الحجاج فى روما ابان فترة الغفران Jubilee ( فترة محددة كل ٢٥ سنة يمنح فيها البابا الغفران لكل الكاثوليك الذين يؤدون أعمالا دينية معينة ) ، سنة

١٣٠٠ م . وسحب البابا تنازله لفيلب الوسيم فيما يتعلق بالضرائب الدينية ،  
وفى سنة ١٣٠٢ م ، أصدر أمره البابوي الشهير *Unam Sanctam*  
الذى أكد فيه على مبدأ الحكومة البابوية فى عبارات متصلبة : ٠٠٠ اننا  
نصرح ، ونعلن ، ونقرر ، ونوضح لكل انسان ، ان خضوعه لكبير الكهنة  
رومانى أمر ضرورى بكل ما فى كلمة من معنى من أجل خلاصه ، وفى ذلك  
الحين دعا فيلب الوسيم الى اجتماع على مستوى المملكة واتهم البابا  
بونيفس بكل جريمة لا يمكن تصورها : بدءا من جريمة القتل العمد ، الى  
جريمة استخدام السحر لأغراض شريرة . وذهبت حملة عسكرية فرنسية  
صغيرة الى ايطاليا سنة ١٣٠٣ م . واعتقلت البابا بونيفس فى قصره  
فى اناجنى *Anagni* . يهدف ارساله الى فرنسا لتقديمه الى المحاكمة .  
كانت اناجنى المرحلة الثانية لما حدث فى كانوسا *Canossa* ، ورمزت الى  
اذلال البابوية فى العصور الوسطى . وفشلت الخطة الفرنسية - اذ قام سكان  
المدن باطلاق سراح بونيفس بعد أيام قلائل بعد القاء القبض عليه - غير ان  
البابا المسن والشديد الاحترام لنفسه مات بعد ذلك بوقت قصير ، بعد ان  
استشاط غضبا وعانى من الغم الشديد لتجرؤ الجنود الفرنسيين على القاء  
القبض عليه . وفى ذلك الحين انتهى عصر عظمة البابوية فى العصور  
الوسطى . وفى سنة ١٣٠٥ م ، انتخب الكاردينالات *Cardinals*  
( مجلس البابا الذى يرتدى ارواب حمراء وقبعات ) ، رجلا فرنسيا ، وهو  
كليمنت الخامس *Clemen V* ( ١٣٠٥ - ١٣١٤ م ) الذى انتهج سياسة  
قائمة على التبعية الذليلة جدا للعرش الفرنسى . واستسلم كليمنت الخامس  
بخصوص مسألة الضرائب الدينية ، وأعلن رفضه لأمر البابا *Unam*  
*Sanctam* واتخذ خطوة كانت بمثابة كارثة ، وهى الخاصة بهجر روما ،  
واتخاذ عاصمة جديدة للبابوية فى مدينة أفينون *Avignon* على نهر الرون  
*Rhone* .

وفى فرنسا بقى البابوات الجزء الأكبر من القرن الرابع عشر تحت سيطرة  
الملك الفرنسى ، وتعرض استقلالهم للخطر بشكل شديد ، وصارت مكانتهم  
الروحية تحت رحمة الظروف .

انه من اليسير أن ننتقد تشدد وعناد بونيفس الثامن ، أو ضعف  
كليمنت الخامس ، بيد ان تدهور أحوال البابوية بشكل خطير فى نهاية  
العصور الوسطى العالية لم ينتج عن مواطن الضعف فى شخصيتهما فى المقام

الأول . فعلى العكس من ذلك ، نجم هذا التدهور عن الفجوة التى ازدادت اتساعا بين الحكومة البابوية ، وحالة الجذب الروحى الذى عانت منه جماهير المسيحيين العاديين ، ويضاف اليهما شعور العداء تجاه الكاثوليكية الدولية من جانب الدول المحلية التى كانت تزداد قوة باطراد . وليس من الانصاف فى شيء ، أن نصف البابوية فى العصور الوسطى العالية بأنه ، « قد اعتراها الفساد » . فقيما بين ١٠٥٠ و ١٣٠٠ م اعتلى العرش البابوى رجال من أصحاب النوايا الحسنة ، والغايات النبيلة . ولم يقنع البابوات بمجرد القاء اللوم على المجتمع فى عهدهم عن طريق محاولة إخضاعه لسلطان القيم الأخلاقية الحميدة دون الخوض فيما يجرى داخل نطاق ذلك المجتمع ، وانما أقحموا أنفسهم جميعا فى شئون العالم ، وجاهدوا بكل قوة من أجل تغييره ، وتطهيره . ومن المفجع ، أنهم ، ربما على نحو لم يتمكنوا من اجتنابه ، تعرضوا لتلطيخ أيديهم .

#### الجدول الكرونولوجى للصراع البابوى - الامبراطورى

|             |   |
|-------------|---|
| ١٠٣٩ - ١٠٥٦ | عهد هنرى الثالث .   |
| ١٠٤٦        | هنرى الثالث يقوم بعزل ثلاثة من البساپوات الذى يناقش كل منهما الآخر .    |
| ١٠٥٦ - ١١٠٦ | عهد هنرى الرابع .   |
| ١٠٥٩ .      | مرسوم الانتخاب البابوى .  |
| ١٠٧٣ - ١٠٨٥ | مدة جلوس البساپا جريجورى السابع على العرش البساپوى .                    |
| ١٠٧٥        | البساپا جريجورى السابع يحرم كنسيا قيام العلمانيين بتعيين رجال الكنيسة . |
| ١٠٧٦        | البساپا جريجورى السابع يحرم كنسيا ويعزل هنرى الرابع .                   |
| ١٠٧٧        | هنرى الرابع يعرض نفسه للمهانة والمذلة فى كانوسا                         |
| ١٠٨٠        | الحرمان الكنسى الثانى لهنرى الرابع .                                    |
| ١٠٨٨ - ١٠٩٩ | مدة جلوس البساپا أورمان الثانى على العرش البساپوى .                     |

- ١١٠٦ - ١١٢٥ عهد هنرى الخامس .
- ١١٢٢ اتفاق ورمز .
- ١١٥٢ - ١١٩٠ عهد فريديك بارباروسا (صاحب اللحية الحمراء) .
- ١١٧٦ اللومبارديون يهزمون فريديك فى اليجنانو .
- ١١٨٠ فريديك يهزم دوق ساكسونى .
- ١١٩٠ - ١١٩٧ عهد هنرى السادس .
- ١١٩٤ هنرى السادس يصبح ملكا على صقلية .
- ١١٩٨ - ١٢١٦ مدة جلوس البابا أنوسنت الثالث على العرش البابوى .
- ١٢١١ - ١٢٥٠ عهد فريديك الثانى .
- ١٢٤٥ مجلس ليون .
- ١٢٥٤ - ١٢٧٣ فترة خلو العرش فى المانيا .
- ١٢٧٣ - ١٢٩١ عهد رودلف من هابسبورج .
- ١٢٩٤ - ١٣٠٣ مدة جلوس البابا بونيفس الثامن على العرش البابوى .
- ١٢٨٥ - ١٣١٤ عهد فيليب الوسيم فى فرنسا .
- ١٣٠٢ بونيفس يصدر الأمر المقدس .
- ١٣٠٢ تعرض بونيفس الثامن للاهانة والمذلة فى آناجنى .
- ١٣٠٥ - ١٣١٤ مدة جلوس كليمنت الخامس على العرش البابوى وانتقال البابوية الى أفينون .

### ١٣ - انجلترا وفرنسا :

#### الحكومة الملكية الأنجلو - نورمانية :

فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية والبابوية مشغولتين فى صراعاتهما ، كانت فرنسا وانجلترا تتطوران الى دول ذات حكومة مركزية . وقامت حكومة ملكية قوية فى انجلترا فى وقت مبكر عما حدث فى فرنسا ، بل ان انجلترا كانت أكثر نجاحا فى فرض الحدود الدستورية للتاج الملكى . ان الحكومة الملكية الاستبدادية الفرنسية والحكومة الملكية النيابية فى انجلترا امتدت جذورهما فى العصور الوسطى العالية .

انتهى العصر 'لأنجلو سكسون من التاريخ الانجليزى عندما ظفر وليم دوق نورماندى بالتاج الانجليزى بانتصاره فى هاستنجز Hastings سنة ١٠٦٦ م . وفى القرون التى تلت ، كانت انجلترا أكثر ارتباطا بالقارة الأوروبية عن ذى قبل ، وكان حكامها ملوكا لانجلترا وأتباعا اقطاعيين كبار للوك فرنسا فى وقت واحد . واستمر ارتباط انجلترا بفرنسا من سنة ١٠٦٦م حتى منتصف القرن السادس عشر . وكان هذا الارتباط سببا فى الاثراء الثقافى لانجلترا ، بيد أنه أدى الى قيام عداوات بين الحكومتين الملكيتين لعدة قرون أيضا .

أحدث وليم الفاتح William the Conqueror عددا من التغيرات الأساسية فى مملكته الجديدة . ان قام بتقسيم الكثير من الاراضى التى فتحها بين 'المحاربين القادة لجيشه المنتصر ، وبذلك الوسيلة أدخل الى انجلترا طبقة أرستقراطية جديدة من الفرسان تتحدث اللغة الفرنسية . وأقام نظاما اقطاعيا فى انجلترا على النمط النورمانى تقريبا ، وذلك بتحويله معظم أراضى انجلترا الزراعية التابعة للعلمانيين والكنسيين ، الى اقطاعات صغيرة تم توزيعها على أفعال اقطاعيين تابعين للتاج فى مقابل تقديم عند محدد من الفرسان المزودين بالخيول والمعدات القتالية وتقديم الالتزامات الاقطاعية الأخرى المتعددة . ولكى يتمكن الاقطاعيون التابعون للتاج أو المستأجرون الكبار من حشد العديد من الفرسان وفقا لطلب الحكومة الملكية ، فانهم قاموا بإعادة تقسيم أجزاء من اقطاعاتهم الى اقطاعات أصغر مساحة ، وأقطعوها الى أتباع اقطاعيين متفرعين وتابعين لهم لامدادهم بالفرسان .

ويعنى آخر سارت عملية 'لاقطاع من الباطن على نفس الأسلوب الذى حدث منذ قرون سبقت فى القارة الأوربية الى حد كبير . وكنتيجة طبيعية لقيام الاقطاع فى انجلترا ، أن تم تشييد القلاع فى كل أنحاء البلاد على وجه السرعة .

غير أن الاقطاع فى انجلترا لم يصاحبه انحلال سياسى كما حدث فى بلاد الفرنجة الكارولنجيين . إذ كان ملوك انجلترا النورمان حريصين على الاحتفاظ بمساحات شاسعة فى الأراضى تابعة مباشرة للأراضى الخاصة بالتاج الملكى ليجعلوا أتباعهم الاقطاعيين تحت قبضتهم الشديدة . والواقع أن السلطة الملكية المركزية فى عصر وليم الفاتح وخلفائه الذين تميزوا بالنشاط - والى تقدمت كثيرا عما كان عليه الحال فى عهد الملوك الأنجلو سكسون - نمت بمعدل سريع ، ومثير للانتباه . لقد ذهب وليم الى انجلترا ليس كمجرد أحد الغزاه ، وإنما كصاحب حق شرعى فى العرش ، إذ أنه ينتمى بصلة القرابة ( عن بعد ) الى الأسرة الملكية الأنجلو سكسونية وأنه تم تعيينه كما كان يدعى - على يد الملك إدوارد المعترف ، الذى كان قد مات دون عقب - فى أوائل سنة ١٠٦٦ م .

وسار وليم على نهج إدوارد المعترف كخليفة شرعى له ووعده بالمحافظة على القوانين والتقاليد التى كانت سائدة على أيام إدوارد المعترف . والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفعل ذلك لأن كثيرا من تلك التقاليد كانت مفيدة جدا للحكومة الملكية فعلى سبيل المثال تطورت ضريبة التاج الدانمركى *danegeld* الى ضريبة الأرض الملكية ، وهى ضريبة فريدة ومريضة جدا . ودفعه صدق ولائه لكونه أنجلو سكسونيا الى الحرص على الإبقاء على ضريبة التاج الدانمركى بالرغم من أنه لم يتردد فى أن يفرض التزامات مالية عديدة زيادة عليها ومفروضة على المستأجرين الكبار لأرائى الدولة . وكان الولاء الكلى للتاج تقليدا أنجلو سكسونيا يحظى باهتمام وتقدير الملوك النورمان بدرجة تفوق اهتمامهم بضريبة التاج الدانمركى . ومكنهم هذا الولاء الكلى من أن يطلبوا من كل تابع اقطاعى وكذلك أتباع هؤلاء الاقطاعيين الذين لديهم اقطاعات صغيرة أن يقسموا يمين الولاء للتاج فى النظام الاقطاعى الانجليزى . وكان ولاء الفارس لسيد الاقطاعى يلى ولاءه المباشر للتاج فى ذلك الحين . كما كانت الحروب محظورة بين الأتباع الاقطاعيين ،



ولم يكن فى المستطاع بناء قلاع خاصة دون الحصول على ترخيص ملكى .  
وباختصار اعترى عملية منح الاقطاعات الجديدة اعادة تنظيمها وفقا للتقاليد  
القوية الخاصة بسيادة السلطة الملكية للأنجلو سكسون تجاه مزيد من المركزية  
الى حد ما - وقليل من الطرد المركزى - عما كان عليه أحوال الاقطاع فى  
القارة الأوروبية .

وعند موت وليم الفاتح انتقلت مملكته الى ولديه وليم الثانى ( ١٠٨٧ -  
١١٠٠ م ) وهنرى الأول ( ١١٠٠ - ١١٣٥ م ) . وكلاهما كان قويا وقاسيا ،  
وان كان هنرى الأول أكثر مقدرة عن أخيه وليم الثانى . اذ كان هنرى الأول  
قائدا ماهرا ، ورجلا قانونيا رائعا ، واداريا مبدعا ، واستطاع أن يقضى  
تماما على حركات التمرد فى انجلترا ، وأن يستغل حالة الرخاء الاقتصادى  
المتزايدة ، وذلك بانتهاجه سياسة ضريبية مرهقة . ولم يكن رجلا كريما ،  
ولكن عهده اتسم بالحزم ، والمقدرة العسكرية وهما من المستلزمات الأساسية  
للحكم الناجح . واتسم أيضا باعتبار الكرم الزايد انما هو ضعف بالغ  
الخطورة . على أن أعظم خدمة قدمها لرعاياه الانجليز كانت فى فرضه  
الأمن العام بالقوة وبلا رحمة .

وشهد عهد وليم الفاتح ولديه تطورا مثيرا للانتباه فى المؤسسات  
الادارية الملكية . فالعملية الفريدة لمسح حيازات الأراضى والمعروفة باسم  
domesday Book - وهى نتاج اجراء احصاء رسمى وشامل لسكان  
المملكة تمت بناء على أمر ملكى سنة ١٠٨٦ م - تعلن بمنتهى الوضوح النشاط  
الادارى لوليم الفاتح . وفيما بين سنة ١٠٦٦ م و ١١٣٥ م أصبح النظام  
الادارى الملكى أكثر استقرارا ودقة وفعالية . وفى عهد هنرى الأول طاف  
رجال القضاء التابعين للملك فى كل أنحاء انجلترا ، واستمعوا الى الدعاوى  
فى المقاطعات المتعددة ، وبذلك الوسيلة وسعوا من نطاق السلطان القضائى  
للملك فى كل مكان عبر البلاد . واستمرت المحاكم البارونية ، والمحاكم  
الشعبية القديمة فى المقاطعات ، والمناطق المحلية تؤدى وظائفها . بيد أن  
اتساع نطاق السلطان القضائى الملكى فى عهد هنرى الأول كان الخطوة  
الأولى فى عملية مهمة الى حد بعيد وطويلة ، وعن طريقها تفوق القاضى  
الملكى على القاضى الشعبى والقاضى البارونى ، ثم حل القاضى الملكى محلهم  
جميعا فى نهاية الأمر .

ان الكفاية الادارية ونظام الحكم المركزى الملكى من أهم الدعامات التى 'رتكزت عليها الخطة السياسية للحكم فى عهد هنرى الأول . وقام النبلاء المحليون - الأشراف The Sheriffs - الذين فى خدمة الملك بجمع الرسوم الملكية بطريقة منظمة ، وينقل الأموال الى قسم ادارى خاص بالمحاسبة تميز بالروعة بشكل ملحوظ وعرف باسم خزانة الدولة The Exchequer وبدأ جهاز ادارى ملكى فى الظهور الى الوجود رويدا رويدا . وكانت رغبة الملك فى زيادة الدخل الحكومى بدرجة اكبر هى المحرك لتزايد فعالية خزانة الدولة ، وكذلك اتساع نطاق العدالة الملكية . ذلك لأنه كلما زادت أعداد القضايا التى تعرض على القضاة الملكيين ، كلما زادت الغرامات التى تذهب الى الخزائن الملكية ، وكلما تم مراقبة الاشراف عن قرب ، كلما قل احتمال ذهاب الضرائب الملكية الى أيديهم . ولقد اكتشف النورمان أن الحكومة القوية هى عمل مالى مضمون الربح .

#### هنرى الثانى ( ١١٥٤ - ١١٨٩ م ) :

أعقب موت هنرى الأول سنة ١١٣٥ م وجود فترة من الاضطراب والصراع الملكى على خلافة العرش . فلم يكن على قيد الحياة بعد وفاته سوى ابنته ماتيلدا Matilda التى تزوجت من جوفرى بلانتاجينيت كونت أنجـو Geoffrey Plantagenet count of Anjou وكان هنرى الأول قد رتب لهذا الزواج على أمل التخفيف فى حدة المنافسة المريرة بين القوتين العظميين فى شمال فرنسا : قوة نورماندى Normandy وقوة أنجو Anjou . وباختصار أنجبت ماتيلدا ابنه هنرى الأول حفيدا له قبل وفاته ، وهو هنرى بلانتاجينيت Henry Plantagenet الذى قدر له فى النهاية أن يرث أراضى شاسعة تضم أنجو ونورماندى وأنجلترا . غير أنه عند موت الملك المسن ، كان حفيده لايزال طفلا ، لذلك استولى ابن شقيقة هنرى الأول ، ستيفن من بلسو Stephen of Blois ( ملك إنجلترا ١١٣٥ - ١١٥٤ م ) ، على السلطة الملكية الانجليزية . ولدة عقدين من الاضطرابات والفتن حاول كل من ستيفن وماتيلدا السيطرة على إنجلترا فى الوقت الذى عمل فيه البارونات الانجليز على تأليب جانب ضد الآخر ، وذلك تحقيقا لمصالحهم الشخصية ، كما شيدوا القلاع دون الحصول على تصريح ملكى بذلك بل واغتصبوا الحقوق الملكية . أما رجال الكنيسة

وعامة الشعب الذين عانوا كثيرا من ويلات جالية الحرب الدائمة ، فقد استرجعوا ذكريات أيام الهدوء ، وحالة السلم ، فى عهد هنرى الأول باشتياق شديد .

وابان عهد ستيفن الملىء بالاضطرابات ، نما هنرى بلانجاينيت وصار رجلا مملوا حيوية ، واستطاع أن يسيطر على أنجو ونورماندى . وساعد زواجه من اليسانور من أكسويتين Eleanor of A quitaine وريثة تلك الدوقية الجنوبية المتغايرة العناصر السكانية والكبرى - ساعد على زيادة مساحات الأراضى التى تحت سلطانه بشكل أكثر . وعند موت الملك ستيفن سنة ١١٥٤ م حصل هنرى على العرش الانجليزى بسلام . وأصبح له سيطرة على مجموعة رائعة من الأراضى شمال وجنوب القناة الانجليزية وهى التى أطلق عليها الامبراطورية الأنجوية The Angevin Empire ولم تكن تلك الامبراطورية مملكة مندمجة ، وانما على العكس كانت خليطا من الدول المستقلة اتحدت معا فى تبعيتها تحت حكم رجل واحد . وعلى الخريطة بدت الأراضى التى تحت سيطرة ملك فرنسا صغيرة ومتواضعة بالنسبة الى الامبراطورية الأنجوية . غير أن هنرى الثانى وكذلك أولاده الذين خلفوه وجدوا صعوبة فى حفظ النظام فى كل انحاء أراضيهام الشاسعة والمختلفة . ولاشك أن الامبراطورية الأنجوية كانت مصدرا للقوة والمكانة العالية ، للملكية الانجليزية ، بيد أنها كانت أيضا عبئا ثقيلا .

كان هنرى الثانى نشيطا ، نكيا - قصيرا ، قوى البنية ، وأحمر الشعر . وإذا كان قد سمى تيمنا باسم جده ، الا أنه حكم وفقا لتقاليد هنرى الأول التى غلب عليها طابع الاستبداد ، وعمل على تقليد هنرى الأول عن عمد . وفى كثير من النواحي كان هنرى الأول صنيعة عصره - ونتاجا للصحة الفكرية الكبرى ، والثقافية لأوربا فى القرن الثانى عشر . إذ كان ملكا منقفا عاشر العلماء ، وشجع المدن المتزايدة فى النمو ، ورأس عصر الازدهار الاقتصادى . ولقد عم بلاطه الملكى جلبة شديدة من النشاط المشوب بالقلق ، الذى انتقل من مكان الى مكان ، وفى رأى أحد المشاهدين المعاصرين ، « كان صورة كاملة لمكان كله حيوية وحركة » .

كانت أهداف هنرى الثانى المحافظة على الامبراطورية الانجوية ، وتقوية السلطة الملكية ، وزيادة موارد الدولة . وابتان عهده الذى استمر خمس وثلاثون سنة نمت الادارة الملكية باطراد وباحكام وفعالية . وتم ازالة القلاع البارونية التى بنيت دون تصريح فى عهد ستيفن ، وتم استرداد الامتيازات الملكية والتوسع فيها . وانهارت العلاقة الاقطاعية القديمة القائمة على تقديم الخدمة مقابل الأرض، تحت ضغط الطموح الملكى ، والاقتصاد المالى النامى ، والقائم على الخدمة مقابل الأجر . ونمت الموارد المالية ، وصار الأشراف تحت السيطرة الملكية الصارمة ، وتطورت الأقسام الادارية المستقلة ، وأصبحت السجلات الشعبية أكثر كمالا وشمولا . وابتهج كثير من الانجليز لعودة السلام والنظام ، بينما كان الآخرون خائفين من التقدم المستمر ، « للحكومة الحاسمة » .

وأطلق على هنرى الثانى مبتكر القانون الانجليزى غير المكتوب ( المبنى على العرف والعادات ) . وكما فعل أسلافه ، حبذ هنرى الثانى اتساع نطاق السلطان القضائى الملكى وذلك من أجل العائد المالى الناتج عنها لصالح التاج بصفة أساسية ، وفى بحثه عن موارد مالية شرعية أكثر ، فانه كان قادرا على زيادة سلطات المحاكم الملكية أكثر بكثير عد حدودها السابقة . واشترط قانونه المعروف باسم قانون كلاريندون Assize of Clarendon والصادر سنة ١١٦٦ م على ضرورة اجتماع المحلفين المستجدين inquest Juries المحليين تحت رعاية السلطة الملكية ، لتحديد الجرمين المحليين ، والإبلاغ عن المجرمين المجاورين الأشد خطورة . وكان المحلف الذى مارس الاستجواب موجودا من قبل . بيد أنه لم يكن على الإطلاق على مثال هذا النمط المنظم . وعمل أيضا على مد نطاق السلطة القضائية الملكية على الحقول الزراعية الواسعة والتى سادتها المنازعات ، مستخدما المحلفين المحليين للفصل فى قضايا الملاك الشرعيين للأراضى الزراعية المتنازع عليها . وتسخر الملوك السابقون فى المنازعات التى تقع بالأقاليم دون وجود طريقة متماسكة ومنظمة . أما فى عهد هنرى الثانى قام القضاة الملكيون المتجولون بجولات دورية فى المناطق الريفية ، يحملون معهم قانون الملك الى الأعداد الضخمة من الانجليز الذين لم يصل اليهم من قبل . وتعلم رعايا هنرى الثانى الاتجاه الى المحكمة لوجود القاضى العقلانى، العصري ، السريع فى انجاز مهمته . لذلك كانت فرصة المنافسة أمام القانون

الاقطاعى باجراءاته الطويلة والقديمة قليلة . وعلى ذلك انهار ذلك الخليط من القوانين المحلية والعادات ، الذى جزأ انجلترا لفترة طويلة من الوقت أمام القانون الملكى المنتظم - وهو قانون غير مكتوب خضع له كل الشعب الانجليزى . ومن ثم اكتمل الاتحاد السياسى فى القرن العاشر بفضل الاتحاد القانونى فى عصر الملوك الأنجويين .

وكان من المتوقع أن يحاول هنرى الثانى مد نطاق العدالة الملكية على حساب المحاكم الكنسية أيضا . وفيما يتعلق بهذا الموضوع عارضه توماس بيكت Thomas Becket رئيس أساقفة كانتربري Canterbury العنيد . لذلك انشغل كل من الملك ورئيس الأساقفة فى نزاع عنيف تركز حول مسألة ما ان كان يتحتم على رجال الكنيسة المهتمين بارتكاب جرائم الخضوع للسلطان القضائى الملكى أم يقدمون الى محاكم الكنيسة فحسب . ووصلت المسألة الى أقصى درجات العنف سنة ١١٧٠ ، عندما قام أربعة من المؤيدين لهنرى الثانى من الفرسان المغممين بالتحمس ، باغتيال بيكت فى كاتدرائية كانتربري دون الحصول على أمر ملكى . وتركت هذه الجريمة المثيرة أثرا عميقا على العصر . وضار بيكت شهيدا ، ويقال ان معجزات حدثت على قبره ، ولذلك تم ضمه الى قائمة القديسين على وجه السرعة . على أن هذه الحادثة أثرت بشدة على مشاعر هنرى الثانى ، لذلك وجد نفسه مضطرا الى معاقبة نفسه تكفيرا عن خطيئته ، وذلك بالسير حافى القدمين عبر شوارع كانتربري ، والسماح لرهبان كانتربري بجلده بالسياط . بيد أن حملته ضد المحاكم الكنسية توقفت من حين لآخر ، وفى نهاية عهده مارست العدالة الملكية انتهاكات خطيرة لسلطة المحاكم الكنسية . ونجح التاج فى وضع الكنيسة الانجليزية تحت قبضته بإحكام شديد . وكان هنرى الثانى موفقا بشكل ملحوظ فى توجيه انجلترا تجاه المركزية الادارية والقانونية .

#### ريتشارد وحفا :

خلف هنرى الثانى ابنه الأكبر ريتشار قلب الأسد Richard lion Hearted ( ١١٨٩ - ١١٩٩ م ) ، الذى كان محاربا ماهرا ، وشرسا ، وكرس حياته بصفة أساسية لمشروعين كبيرين : الدفاع عن الامبراطورية الأنجوية ضد التاج الفرنسى والمشاركة فى حملة صليبية ضد المسلمين .

وكان قائداً ممتازاً ، بيد أنه كان رجل إدارة من الدرجة الثانية ، إذ قضى أقل من ستة شهور من مدة حكمه التي امتدت عشر سنوات فى انجلترا .  
وابان فترة غيابه التى طال مداها ، ثبت صلاحية النظام الإدارى الذى أقامه هنرى الثانى ، إذ بفضل سارت الأمور فى انجلترا على مايرام لمدة عشر سنوات تقريبا دون وجود الملك . وفى الوقت نفسه كان ريتشارد مشغولا فى مغامرات رومانسية ، وان كانت فاشلة ، فى الأراضى المقدسة . واستطاع أن يدافع بنجاح عن الامبراطورية الأنجوية ضد الضغوط القاسية التى مارسها ملك فرنسا فيليب أوغسطس Philip Augustus

تغيرت أحوال الامبراطورية المصيرية بوضوح شديد عند اعتلاء الملك حنا John ( ١١٩٩ - ١٢١٦ م ) ، الشقيق الأصغر للملك ريتشارد قلب الاسد . وكان حنا شخصا غامضا - أبدى تفوقا فى بعض النواحي ، وكان ملما بالشئون الادارية . بيد أنه كان قائدا نزاعا الى الشك والارتباك ، ومجردا من المبادئ الأخلاقية . إذ لم يكن يثق فى أحد ولم يثق به أحد . ونتيجة لذلك فلم يساند شعبه فى فترات 'الأزمة سوى بفتور' .

ووجد حنا فى فيليب أوغسطس ملك فرنسا خصما عنيفا على طول الخط . و'نتهز فيليب الفرصة بالكامل بالنسبة لمركزه كسيد اقطاعى أعلى على ممتلكات حنا بالقارة الأوربية . وفى سنة ١٢٠٢م تم استدعاء حنا الى البلاط الملكى الفرنسى للاجابة على الاتهامات التى وجهها اليه أحد أقصاله الاقطاعيين الأكويتيين Aquitainian . وعندما رفض حنا الذهاب الى فرنسا أعلن فيليب أوغسطس مصادرة اراضى حنا فى فرنسا وتقدم لغزو اقليم نورماندى . وسقطت دوقية نورماندى بين يدى فيليب بسرعة ( ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م ) ، وذلك لأن أتباعه الاقطاعيين ، ارتدوا عن الولاء له ، بعد ان نجحت محاولة تأثير فيليب عليهم ، الواحد بعد الآخر ، مما اضطر حنا الى الهرب الى انجلترا على نحو مخز . وابان حالة الاضطراب والفوضى الكاملة التى تلت ذلك كان فيليب أوغسطس قادرا على انتزاع أنجو ، ومعظم الممتلكات الباقية فى القارة الأوربية للامبراطورية الأنجوية من قبضة حنا . وظلت الأجزاء البعيدة فقط من اكتوبر Aquitaine على علاقاتها مع الحكومة الملكية الانجليزية . وجلب الملك حنا كارثة عسكرية وسياسية على شعبه

ولدة العشر سنوات التالية ضمد حنا جراحه ونسج شبكة متقنة من الأحلاف ضد الملك فيليب على أمل استعادة ممتلكاته الضائعة ، بيد أن خطته البارعة ذهبت أدراج الرياح نتيجة لنصر فيليب الحاسم على حلفاء حنا من الفلمنكيين Flemish والجرمان فى موقعة بوفين Bouvines سنة ١٢١٤ م . وفى بوفين ضاع أمل حنا الأخير فى احياء الامبراطورية الأنجوية .

وقضت تلك الكوارث على ماتبقى من مكانة حنا الملكية العالية ومهدت الطريق للثورة البارونية التى صنعت عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى حيث بلغ ذروة هذا العهد الجديد عندما وقع الملك العهد الأعظم Magna Carta سنة ١٢١٥ م . وأصبح لدى البارونات مبررا مقنعا لمعارضة حنا . وأصبح على حنا أن يقلص الاتجاهات المركزية لأسلافه الأنجويين والنورمان الى حدود جديدة ، وأن يفرض الضرائب على رعاياه ، وهو الشئ الذى لم يحدث من قبل . ويمكن اعتبار رد الفعل البارونى سنة ١٢١٥ م على أنه احتجاج موجه ضد حنا وكمحاولة لابطال الاتجاه نحو الفاشستية Authoritarianism الملكية للمائة وخمسين عاما السابقة . وتم تفسير العهد الأعظم تفسيرين متناقضين : كمصدر رئيسى للحكومة الملكية الدستورية الانجليزية ، وكموضوع رجعى ، ووثيقة رجعية تم وضعها لصالح الطبقة الأرستقراطية الرجعية ذات النزعة الاقليمية على حساب الحكومة الملكية الأنجوية المستنيرة .

والواقع أن العهد الأعظم كان اقطاعيا ودستوريا - اذ كان له اتجاها رجعيا وآخر تقدما . وخصصت أهم فقراته ليظل الملك فى نطاق التقاليد الشعبية والعرف الاقطاعى . بيد أن المفهوم الضمنى فى المبدأ الاقطاعى التقليدى ان احترام السيد الاقطاعى احترام لحقوق أتباعه الاقطاعيين - فى النظرية الجرمانية القديمة كان على الملك الالتزام بعادات شعبه - كان المبدأ الدستورى المهم لحكومة قانونية . وابلان النضال من أجل جعل الملك حنا سيدا اقطاعيا صالحا ، كان البارونات يتحركون سنة ١٢١٥ م ، وربما دون قصد فى اتجاه الحكومة الملكية الدستورية . لأن تلك كانت اللحظة الحاسمة التى بدأ فيها النبلاء الانجليز يمثلون وجهة نظر قومية . وفى الماضى اتخذت معارضة البارونات للسلطة الاوتوقراطية الملكية شكل الاصرار الانانى على أوربا فى العصور الوسطى

وجود حكم ذاتى ارسنقراطى • بيد انه فى استطاعة المرء ملاحظة المفهوم الذى ألزم الملك بالحدود القانونية التقليدية فى علاقاته بكل طبقات الانجليز الأحرار فى العهد الأعظم • ولا يصح أن ننخدع اذا ماعلقنا أهمية كبيرة على المبادئ الأساسية ، على هذه الوثيقة العملية ، التى اهتمت فى المقام الأول بإصلاح مساوئ السلطة الملكية ، بيد أنه سيكون من قبيل التضليل على حد سواء اذا تجاهلنا المعانى المتضمنة المهمة فى العهد الأعظم بشأن المجموعة القانونية الأساسية التى قلصت وحددت السلطة الملكية •

كانت المشكلة الدستورية الرئيسية خلال السنوات التى تلت العهد الأعظم هى كيفية إلزام الملك العنيد على العمل وفقا للآطار القانونى • وإن سلسلة من الروعود الملكية لم تكن كافية بوضوح للتحكم فى ملك طموح وضع كل الطرائق والوسائل التى تدار بها الحكومة المركزية فى قبضته • وتابعت لجنة مكونة من خمسة وعشرين بارونا لهم سلطة دعوة الشعب الانجليزى ، اذا ما حاول الملك التعدى على الميثاق Charter « من أجل احتجاز الملك ومضايقته بكل الوسائل المتاحة » • ومن ثم كان الملك مقيدا برادع فج من التمرد البارونى والشعبى - وهو سلاح يائس وغير عملى ضد ملك مجرد من المبادئ الخلقية •

ويبدو أن حنا نفسه لم يكن لديه النية فى الوفاء بوعوده • اذ تنكر للعهد الأعظم فى أول فرصة ، ومات سنة ١٢١٦ م فى غمرة ثورة شاملة • و'نتهت الثورة بموت حنا ، وانتقل التاج الى ابنه الذى كان فى التاسعة من عمره ، وهو هنرى الثالث ( ١٢١٦ - ١٢٧٢ م ) ، الذى كان تحت اشراف مجلس من البارونات ابان الفترة السابقة لسن الرشد • وخلال العقود التى تلت ذلك ، أيد نشر العهد الأعظم عدة مرات ، بيد أن أعظم الأعمال فى تلك الفترة الجديدة كانت اقامة مؤسسات سياسة قادرة على الحد من السلطة الملكية الأوتوقراطية بطريقتة أو بأخرى ، دون حدوث حركات تمرد • وجاء الحل النهائى لهذه المشكلة فى البرلمان •

#### • هنرى الثالث وادوارد الأول

كان هنرى الثالث ملكا قظا وغريب الأطوار - متدينا دون أن يكرس نفسه لخدمة الله والدين ، مولعا بالكتب والمطالعة دون أن يكون حكيما •



وأحاط نفسه بالمحاسيب الأجانب ، وكان مولعا بمظاهر الأبهة والعظمة ، وبالمشروعات الأجنبية غير العملية ، وتجاهل نصيحة البارونات ، وفقد ثقتهم رويدا رويدا .

ومنذ البداية اعتادت الحكومة الملكية الانجليزية على سياسة اصدار القرارات المهمة وفقا لمشورة المجلس الملكى المكون من النبلاء وكبار الموظفين . وكان تكوين هذا المجلس الملكى Curia regis غامضا على الدوام ، ولم يكن له أى شئ يشابه حق النقض أو الرفض veto للقرارات الملكية ، بيد أن الكثيرين من الانجليز وبخاصة النبلاء ، علقوا أهمية كبرى على حقيقة أن السياسة الملكية كانت تسير وفقا لمشورة البارونات .

ومن الناحية التقليدية كانت المجالس الملكية من نوعين . فالمسائل الملكية العادية كانت تبحث فى مجلس صغير يتكون من الملك وكبار موظفى القصر وأى عدد من البارونات يتصانف وجوده فى القصر فى ذلك الحين . غير أنه فى أوقات الأزمات ، أو عندما يعلق موضوعا للبت فيه ، يقوم الملك بدعوة كل النبلاء المهمين فى الدولة الى اجتماع موسع يضم أيضا كبار مستشاريه العاديين . وأخيرا تطور هذا المجلس البارونى الموسع الى البرلمان .

ان العامل الأساسى فى تطور المجلس الموسع الى البرلمان كان الاتجاه نحو وجود نواب عن أهل الريف وسكان المدن جنبا الى جنب مع كبار البارونات ، وذلك فى القرن الثالث عشر . ونتج هذا التحول الملحوظ فى السياسة الملكية ، بصفة خاصة بوضوح بعد العهد الأعظم ، وذلك بدعوة المجلس الموسع بهدف الحصول على الموافقة على بعض الضرائب الجديدة وغير مألوفة . ونظرا لتسرب الثروة تدريجيا الى الطبقات الأدنى من طبقة البارونات ، لذلك وجد الملك ذريعة للحصول على موافقة تلك الطبقات الأقل على الضرائب الملكية الجديدة بدعوة ممثليهم الى المجلس الموسع .

ظهرت معارضة البارونات النشطة لهنرى الثالث من حقيقة أن دعوته للمجلس الموسع لم تكن لاستشارة أقطاب الدولة فى الشئون السياسية ، وانما بهدف الحصول على موافقتهم على الضرائب الجديدة فى المقام الأول .

واستاء البارونات لمطالبات الملك لهم تمويل مشروعات أجنبية خيالية لم يسبق له أن 'استشارهم فيها ، فضلا عن أنهم لا يوافقون عليها لذلك اتخذوا شعارا لهم ، « لا فرض لضرائب جديدة دون استشارة » وكانت ردودهم على طلبات هنرى المالية مصحوبة بمزيد من المعارضة ، ولفترة من الوقت، صاروا قادرين على استخدام نفوذهم المالى فى اجبار الملك على قبول نصيحتهم • بيد أنه فى نهاية الأمر ثبت أن الصراع بين الملك والبارونات أصبح من المتعذر تسويته ، ومن ثم نشبت حركة تمرد خطيرة • وفى سنة ١٢٦٤ م هزم القائد البارونى سمعان من مونتفورت (Simon de Montfort) الملك هنرى الثالث ولدة الخمسة عشر شهرا التالية حكم انجلترا من خلال لجنة بارونية مكونة من تسعة رجال بالاضافة الى انعقاد المجلس الموسع لكل البارونات بصفة دورية •

وفى سنة ١٢٦٥ م حشدت الحكومة الملكية قواها وقضت على حركة سمعان من مونتفورت قضاء تاما • غير أن مفعول الثورة ظل قائما • واجتازت انجلترا أياما مثيرة أبان وجود الحكومة البارونية ، وأكثر من ذلك أهمية اتخاذ خطوة مهمة تجاه ظهور البرلمان فمند أوائل سنة ١٢٦٥ م دعا سمعان من مونتفورت مجلسا موسعا - برلمانا - ضم لأول مرة الطبقات الثلاث التى ميزت البرلمانات فى العصور الوسطى المتأخرة • وضم سمعان من مونتفورت الى برلمانه فارسين من كل مقاطعة واثنين من سكان كل مدينة بالاضافة الى البارونات • ومن المحتمل أن دافع سمعان الرئيسى فى الدعوة الى هذا البرلمان هو توسيع قاعدة ثورته ، غير أن البرلمان فى السنوات التالية تمت دعوتها لأغراض كثيرة : لتكون كمحكمة قانونية عليا ولتقديم المشورة الى الملك فى الشئون السياسية المهمة ولإعلان المساندة فى وقت المحن ، وأهم من ذلك كله لإعلان الموافقة على فرض الضرائب الملكية المتزايدة •

وبنى البرلمان الانجليزى على أساس قوى من الحكومة المحلية وكل الطبقات النيابية البارزة الثلاث - البارونات سكان المدن وفرسان المقاطعات - جلبوا معهم ثروة هائلة من الخبرة السياسية المحلية • وكان سكان المدن الذين شغلوا عضوية البرلمان فى العادة شخصيات محنكة فى الادارة الحكومية • وتمرس فرسان المقاطعات على ادارة الكونتيات ، ومحساكم الأقاليم ، لفترة طويلة • وبين طبقة النبلاء من البارونات وطبقة الفلاحين ألف هؤلاء الرجال طبقة مستقلة - أهل الريف - وهم الذين انتموا بجذورهم

الى مقاطعاتهم واقطاعات أسلافهم الزراعية ، ولديهم خبرة فى الادارة الحكومية المحلية ومناسبين فكريا لتمثيل الكونتيات فى البرلمان .

وفى سنة ١٢٧٢ م خلف هنرى الثالث ابنه القدير ادوارد الأول Edward I ( ١٢٨٢ - ١٣٠٧ م ) الذى كان أكثر حكمة من والده . وكان ادوارد الأول ملكا قوى الارادة ومستقلا فى رأيه الا أنه كانت لديه الحصافة فى أن يفوز بثقة البارونات . وكان ناجحا فى كسب تأييدهم له . وعلى الرغم من أنه اعتبر البرلمان وسيلة أساسية للحصول على الموافقة على الضرائب الجديدة كما فعل والده ، فإنه استخدمها فى أغراض كثيرة أخرى أيضا . ودعا البرلمان بشكل متكرر وأجرى تجارب لا حصر لها على تشكيله . وفى السنوات الأخيرة من عهده أصبح من المعتاد وجود فرسان المقاطعات وسكان المدن . ومع ذلك لم يحدث قبل القرن الرابع عشر أن بدأ الفرسان وسكان المدن عقد الاجتماعات منفصلين عن البارونات وبذلك حدث التقسيم البرلمانى الشهير الى مجلس اللوردات والعموم .

وعند نهاية القرن الثالث عشر ظلت القوى الحقيقية للبرلمان غامضة كما ظل تشكيله قابلا للمرونة . وفى أحسن الأحوال كانت تتم مساومات مع الملك للحصول على الامتيازات مقابل المساعدة المالية . ومع ذلك وضعت اللبنة الأولى أن مفهوم العصور الوسطى العميق الجذور الخاص بوجود حكومة ملكية محدودة السلطات قد ظهر فى شكل مؤسسة قدر لها أن تنمو على مر القرون لتصبح حجر الزاوية فى حكومة ممثلة للشعب . وفى نهاية الأمر أصبح البرلمان الجسر التنظيمى المهم بين النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى والديموقراطية الحديثة .

شهد عهد ادوارد الأول ذروة كثير من الاتجاهات التى تطورت على امتداد العصور الوسطى العالية . ومن خلال تشريعاته الخلاقة أكمل ادوارد العمل الضخم لأسلافه فيما يتعلق بإنشاء نظام ادارى ملكى معقد وفعال وإيجاد مجموعة من القانون غير المكتوب الشاملة والدالة على الاستنارة الثقافية والروحية . وكان قائدا ماهرا أضاف ويلز الى المملكة الانجليزية ، وأوشك على أن يهزم سكوتلاند Scotland وحارب الملك فيليب الوسيم بنشاط ، وإن كان بشكل غير حاسم ، بشأن الأراضى الانجليزية فى جنوب

فرنسا ، بيد أن أكثر مآثره أهمية فى نهاية المطاف ، كانت سياسته الخاصة بتطوير البرلمان الى أن صار أداة حكومية مكملة . ولذلك فمما يبعث على السخرية أن الملك ادوارد اعتبر البرلمان فى المقام الأول على أنه أداة نافعة لزيادة الموارد المالية الضرورية لتدعيم مشروعاته الواسعة المدى . ولابد أنه كان يصاب بحالة من الذعر لو علم أن أسلافه الملكيين سيكونون فى يوم ما مجرد ملوك من الناحية الشكلية فحسب ، وأن البرلمان قدر له أن يحكم إنجلترا .

### أسرة كابيه الباكورة :

اعتلت أسرة كابيه العرش الفرنسى سنة ٩٨٧ م . وكانت انجازات أسرة كابيه فى القرن الأول من حكمهم بسيطة الى حد كبير ، وكان انتصارهم الوحيد فى نجاحهم فى المحافظة على التاج لأسرتهم . وإذا كانت أسرة كابيه قد وصلت الى العرش بفضل انتخاب أقطاب الدولة لهم ، الا أنهم سعوا منذ البداية الى أن تتخلص الحكومة الملكية من شخصيتها الانتخابية وجعلوا الحكومة وراثية . وفعلوا ذلك لتهيئة الأمور للورثة من الذكور لاعلان الواحد منهم ملكا قبل وفاة الملك .

وربما يساعدكم على ذلك حقيقة أن التاج لم يكن شيئا جديرا بالقدر الذى يمكن أن يناضل من أجله الراغبون فى اغتصابه من الشخصيات القوية .

وفى أوائل القرن الثانى عشر كانت أسرة كابيه أضعف من العديد من أتباعهم الاقطاعيين . وفى الوقت الذى كانت تزداد فيه أحوال أتباعهم الاقطاعيين قوة مثل نورماندى وأنجو كانت جزيرة فرنسا التابعة لأسرة كابيه معرضة لمضايقات البارونات الذين مالوا الى التمرد والسلب بوحشية . وإذا ما أدرك الكابيون القوة المتاحة للقبهم الملكى فان عليهم القيام بأعمال ثلاثة كبار :

١ - أن يسيطروا على جزيرة فرنسا وأن يعملوا على تهدئة الأحوال بها .

٢ - وأن يوسعوا قاعدتهم السياسية والاقتصادية باضـافة أراضى جديدة الى سلطتهم الملكية .

٣ - وأن يكون سلطانهم على أتباعهم الاقطاعيين الكبار حقيقيا وليس مجرد مسألة نظرية فحسب .

وفى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر اجتهدت سلسلة من ملوك كابيه المشهورين وحققوا تلك الأهداف . ونجح نظامهم حتى استطاعوا السيطرة على كل فرنسا عند مطلع القرن الرابع عشر سواء بطريق مباشر أو غير مباشر وطوروا النظام الملكى البيروقراطى الى أن وصل الى درجة عالية من الكفاية والحنكة . واتبعوا صيغة مرنة وقابلة للتغيير . والواقع أن نجاحهم اعتمد على تجمع الحظ والابداع الى حد ما - على أن استغلالهم لقواهم بذلك مكنهم وفقا لطاقتهم الكامنة التى توفرت لديهم على الدوام كملوك وكسادة اقطاعيين كبار بشكل مدهش فى تجنب الخلافات العائلية التى أثهكت كلا من ألمانيا وإنجلترا من حين لآخر . وعلى عكس الملوك الجرمان فقد احتفظوا بعلاقات ودية نسبيا مع البابوية . وواتاهم الحظ فى وجود سلسلة متعاقبة من الورثة المباشرين من الذكور من سنة ٩٨٧ م الى سنة ١٣٢٨ م . وفوق ذلك فنাদرا ماتجاوزوا حدودهم اذ تجنبوا المشروعات المتسمة بالمبالغة وسياسة الأعمال المفاجئة التى تنم فى إثارة مظاهر الأبهة والعظمة مفضلين بدلا من ذلك النضال من أجل تحقيق الأهداف الواقعية والمعتدلة . وعملوا على ازدياد سلطانهم تدريجيا وبحذر . وذلك بعقد الزيجات التى تحقق فوائد وبمصادرة الاقطاعات التى يموت أصحابها دون ورثة وكذلك بانتزاع ملكية الأتباع الاقطاعيين الذين لا يلتزمون بالواجبات الاقطاعية تجاه الحكومة الملكية . ومع ذلك فان غالبية أسرة كابيه لم تكن راغبة فى السيطرة على كل أراضى أتباعهم الاقطاعيين . والواقع أنهم سعوا الى بناء مملكة لها قلب أساسى من الأراضى الملكية تحيطها الاقطاعات التى تدين بولاء المطيعين .

#### لويس السادس والسابع :

ان أول ملك من أسرة كابيه الذى عمل بجدية نحو تأكيد السلطة فى جزيرة فرنسا هو الملك فيليب الأول Philip I ( ١٠٦٠ - ١١٠٨ م ) الذى كان رجلا مغرورا ومبغوضا ، والذى أدرك الحقيقة الأساسية القائلة بأن الحكومة الكابيه عليها أن تجعل وطنها قاعدة أمنة قبل الاتجاه الى تحقيق الأهداف الأكبر . كانت سياسة فيليب واقعية وواصلها بنشاط أكثر ابنه

لويس السادس • ( ١١٠٨ - ١١٣٧ م ) « البدين » • وعاما بعد عام دخل  
لويس البدين معارك ضد الاقطاعيين الصغار الذين احترفوا السرقة فى  
جزيرة فرنسا وحاصر قلاعهم الواحدة بعد الأخرى ، وأخيرا أجبرهم على  
الطاعة • وعند موت لويس سنة ١١٣٧ م كانت جزيرة فرنسا مزدهرة وأكثر  
نظاما نسبيا ، وبدأت الحكومة الملكية الفرنسية تنطلق بقوة جنبا الى جنب  
مع كبار الاقطاعيين بها •

حصل لويس البدين على مساعدة قيمة فى الجزء الأخير من عهده  
من الأب سوجير Abbot suger رئيس دير القديس دينيس Saint Denis  
الملكى الشهير ، والذي كان رجل دولة موهوبا ومتقانيا فى عمله ،  
عمل كمستشار ملكى أول من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥١ م ، وعمل بكل  
جد وفعالية على ازدياد نفوذ الملك وتنظيم الجهاز الادارى الملكى ، وترتب  
على ذلك ازدياد ثروة ومكانة دير القديس دينيس • وقدم سوجير عنصرا  
قيما من الاستمرارية بين عهدهى لويس البدين وولده لويس السابع ( ١١٣٧ -  
١١٨٠ م ) ، الذى واصل تحقيق أهداف بمهارة لا تقل عن مهارة والده •  
وكان لويس السابع تقيا ، ودمث الأخلاق ، ووفقا لقول أحد معاصريه « كان  
ملكا مسيحيا بكل حق وصدق ، وان كان ساذجا الى حد ما » •

وعندما مات الأب سوجر سنة ١١٥١ م واجه لويس السابع تهديدا مرعبا  
وجديدا تعرضت له الحكومة الملكية الفرنسية • ان كانت الامبراطورية  
الأنجوية فى مرحلة التكوين • وفى سنة ١١٥٤ م ، اكتملت الصورة المنذرة  
بالسوء عندما اعتلى العرش الانجليزى هنرى بلانكا جينيت كونت أنجو  
ودوق نورماندى وأكوتين تحت اسم هنرى الثانى • وحاول لويس السابع  
احراج تابعه الاقطاعى القوى غير أن جهوده كانت تفتقر الى الحماس الى  
الحد الذى جعلها لم يكتب لها التوفيق • ورغم ذلك شهد لويس السابع  
اتساعا ملحوظا للسلطة الملكية • والواقع أنه كما قال أحد المؤرخين بثقة  
جديدة بكل اهتمام « ان المكانة العالية للحكومة الملكية الفرنسية توطدت  
أركانها فى عهد لويس السابع » • ان الاتباع الاقطاعيين للمتاج الكبار  
الذين كانوا خائفين من زملائهم الأنجويين الأقوياء والذين احترموا ورع  
ونزاهة لويس السابع بدأوا لأول مرة يعرضون دعاويهم امام محكمة سيدهم  
الاقطاعى الملكى ، ويحيلون منازعاتهم الى حكمه • وحاول رجال الكنيسة

ورجال المدن على حد سواء الحصول على تأييد لويس السابع فى منازلهم مع طبقة النبلاء . ولم تكن تلك التطورات نتيجة لمبادرة ملكية بقدر ماكانت نتيجة للاتجاهات الأساسية للعصر تجاه السلام والنظام والنشاط التجارى المتزايدة ، واتجه الفرنسيون بأعداد متزايدة الى ملكهم اللطيف والمتواضع من أجل العون والعدل . وشيئا فشيئا بدأ لويس السابع يتولى مكانته الشرعية كسيد اقطاعى أعلى كعاهل للملكة .

فيليب أوغسطس ( ١١٨٠ - ١٢٢٣ م ) :

وصلت الحكومة الملكية الفرنسية الى مرحلة النضج فى عهد فيليب الثانى « أغسطس » - ( ١١٨٠ - ١٢٢٣ م ) الابن الموهوب للويس السابع . اذ باصراره المتسم بالشراسة من أجل المحافظة على حقوقه الاقطاعية وبانتهاجه سياسة الانتهازية المتقنة استطاع فيليب أوغسطس العمل على زيادة مساحة الاراضى الملكية الى حد كبير ، وأما فى المناطق التى ليست فى اطار النطاق المباشر للسلطة الملكية فانه حول حالة الفوضى الكاملة فى اراضى الأتباع الاقطاعيين الى نظام هرمى منظم تابع للملك .

وكان أروع انجازات فيليب أوغسطس تدميره للامبراطورية الأنجوية وامتدت سلطة ملكه على نورماندى وأنجو ، وملحقاتهما . ولمدة عقدين من الزمان تأمر مع الأعضاء الساخطين من الأسرة الأنجوية ضد الملك هنرى الثانى وريتشارد قلب الأسد غير أن جهوده لم تثمر قبل الملك حنا ( ١١٩٩ - ١٢١٦ م ) . وفى مواجهة جشع حنا وغدره الذى كان معروفا للجميع ، كان فيليب قادرا على أن يلعب دور السيد الاقطاعى النصف الذى يعاقب بعدل أى تابع اقطاعى متمرد . وعندما تحرك فيليب أوغسطس ضد نورماندى « فى الفترة ما بين ١٢٠٢ - ١٢٠٤ م - فان عدم شعبية حنا عند الجميع ارتدت الى نحره . وحصل فيليب على الغنيمة التى سعى من أجل الحصول عليها طويلا بسهولة مدهشة . وما ان صارت نورماندى ملكا له حتى ألت اليه الاقطاعات الباقية لحنا فى شمال فرنسا كما تتساقط أحجار الدومينو Dominnoes . وبعد ذلك بعشر سنوات سنة ١٢١٤ م قضى فيليب على آخر أمل لحنا فى استرداد الاراضى الضائعة باحرازه نصرا حاسما على حلفاء حنا الالمان فى بوفين . وبعد أن جدد فيليب مصير نورماندى وأنجو كانت بوفين أيضا نقطة تحول فى ميزان القوى بين فرنسا والمانيا فى العصور

الوسطى العالية • ومنذ ذلك الحين كانت الحكومة الملكية الكابية بفرنسا النامية تحل محل المملكة الجرمانية المتداعية وبذلك صارت فرنسا القوة الأوروبية الكبرى فى غرب أوروبا •

وفى عهد فيليب أوغسطس وخلقاؤه حدثت تطورات مهمة فى النظام الادارى الملكى • اذ عاود المجلس الملكى Curia Regis مكانته كمحكمة اقطاعية فى فرنسا وثبت أنه جهاز فعال لتأكيد الحقوق الملكية على الأذواق Dukes والكونتسات Counts حيث حل الموظفون من أبناء الطبقة الوسطى والذين عرفوا باسم « المشرفون الملكيون » baillis محل النبلاء بالوراثة الذين خدموا بشكل تقليدى كرجال ادارة محليين فى الأراضى الملكية تدريجيا • وهؤلاء الموظفون الذين كانت أعمالهم مالية وقضائية وعسكرية وإدارية فى وقت واحد كانوا مدينين بوظائفهم للفضل الملكى ولذلك كرسوا أنفسهم لخدمة المصالح الملكية بحماس شديد • وعمل المشرفون الملكيون بشكل متواصل طوال القرن الثالث عشر ، وغالبا ما عملوا على تقليص امتيازات الطبقة الارستقراطية الاقطاعية بأسلوب مجرد من المبادئ الأخلاقية • وعملوا على تقليص امتيازات الطبقة الارستقراطية الاقطاعية بأسلوب مجرد من المبادئ الأخلاقية • وعملوا على زيادة النفوذ الملكى • وتركزت هذه السلطة فى أيدي جماعات من الموظفين الاداريين التى تدعى بالولاء للملك والقادرة على الانتقال من مكان لآخر على وجه السرعة دون أن يأتى احترام للاقطاع والتقاليد المحلية • وأصبحت بمرور الوقت أداة قوية للاستبداد الملكى • وكان هؤلاء المشرفون الملكيون على نقيض شديد مع الموظفين المحليين فى انجلترا - الاشراف بالمقاطعات - الذين كانوا فى العادة ينحدرون من بين الطبقة العليا المحلية والذين توزع ولاءهم بين الملك الذى خدموه ، والاقلبيم والطبقة التى انحدروا منها •

#### لويس الثامن ( ١٢٢٣ - ١٢٢٦ م ) :

تزامنت السنوات الأخيرة من عهد فيليب أوغسطس مع الحرب الصليبية الألبجنسية Albigensian الشرسة فى جنوب فرنسا التى دعا اليها البابا أتوسنت الثالث المعاصر للإمبراطور فيليب ضد اللوثيدين للتعاليم المسيحية الألبجنسية التى تخالف تعاليم الكنيسة والتى انتشرت بسرعة عن



طريق لانجودوك Langudox وشمال إيطاليا . وإذا كان فيليب أوغسطس قد رفض المشاركة الشخصية في الحرب الصليبية إلا أن ابنه لويس التقى اتخذ دورا إيجابيا في المشاركة بها . فعندما تولى العرش بعد والده سنة ١٢٢٣ م تحت اسم لويس الثامن ( ١٢٢٢ - ١٢٢٦ م ) وضع كل موارد الدولة تحت تصرف الحملة الجنوبية . وتجحت الحملة الصليبية في القضاء على التهديد الألباني للعالم المسيحي الغربي إلا أن ذلك ترتب عليه تدمير أجزاء كبيرة من جنوب فرنسا وإبادة ثقافة رائعة كانت قد انتشرت من قبل هناك . ومنذ ذلك الحين فصاعدا مال جنوب فرنسا للخضوع لسيطرة شمال فرنسا ، وامتدت سلطة الحكومة الفرنسية لتصل إلى البحر المتوسط . وربما يبدو مدهشا أن نكتشف أن لويس الثامن الذي ورث سلطة ملكية مترامية الأطراف من والده وعمل على زيادتها بنفسه وأن حوالى ثلث الأراضي الملكية فتحت عنوة كإقطاعيات بين الأفراد الصغار من أسرة كاييه وعرفت تلك الإقطاعيات التي ظهرت خارج أراضي الملك باسم إقطاعيات أفراد الأسرة المالكة appanage . على أن ظهور هذه الإقطاعيات لا بد وأنه كان بمثابة إشارة إلى نمو الحكومة الملكية الكايبية لا يمكن أن يفهم ببساطة على أنه عملية طويلة لتوسيع مدى الأرض الملكية . فالكايبون لم يكن لديهم اعتراض على الاتباع الإقطاعيين طالما كانوا مطيعين وخاضعين للسلطة الملكية . والواقع أنه لوجود التسهيلات المحدودة في المواصلات والنقل في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بفرنسا كانت المملكة من الاتساع إلى الحد الذي يصعب على الحكومة الملكية إدارتها بطريق مباشر . لذلك فإن الإقطاعيين الجدد والذين تربطهم بالتاج روابط عائلية قوية لعبوا دورا أساسيا في إدارة شئون المملكة وعملوا على تقوية فعالية الحكم الكايبى Capetian Rules .

#### القديس لويس ( ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م ) :

مات لويس الثامن سنة ١٢٢٦ م تاركا البلاد في يـمـ أرملته الاسبانية القديرة والمتدينة والقوية وهى بلانش قشتاله Blanche Castile. والتي قامت بدور الوصية على الملك الفتى لويس التاسع ( ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م ) والذي عرف فيما بعد باسم القديس لويس والذي ظل وقيا لوالدة حتى بعد أن بلغ سن الرشد سنة ١٢٣٤ م . لذلك استمرت الملكة بلانش شخصية مهيمنة في الحكومة لعدة سنوات .

أخذ لويس التاسع عن والدته الورع وعن والده الحزم • وعلى عكس الكثيرين من الملوك القديسين كان لويس التاسع ملكا قويا استبدت به فكرة الزام نفسه بأن يحكم بالعدل والحزم وأن يعلى منزلة الاستقامة الخلقية فى كل أتحاء المملكة الفرنسية • وبالرغم من ورعه الحقيقى بشكل كامل فانه كان شديد التمسك بالايمان القويم - كان حرفيا جدا فى تطبيقه التقاليد الدينية اذ قام باضطهاد الطوائف المسيحية التى لا تدين بعقيدة الثالوث الأقدس على المذهب الخلقيدونى وشارك فى حملة صليبية ضد المسلمين • وقال ذات مرة أن الرد الممكن والوحيد تجاه اليهود الذين يسفخرون من المعتقدات المسيحية هو أن يقوم المسيحي « بغمد سيفه فى بطونهم الى نهايته » • ومع ذلك ففى تأكيد على هذه المواقف فانه كان يعكس صورة عصره فحسب • وكان عهده مختلفا اختلافا كبيرا عن عهد فيليب أوغسطس لأنه لم يواجه حياته تجاه الأهداف السياسية وانما تجاه ماكان يعتقد أنه أهداف دينية اذ كان يؤمن بمحاربة غير المسيحيين فى الوقت الذى يؤمن فيه بالسلام مع الحكام المسيحيين بتحمس وبكل مافى هذه الكلمة من معنى • وبناء على ذلك عقد معاهدات مع هنرى الثالث ملك انجلترا ، ومع ملك أرجون Argon حيث تمت تسوية كل المنازات المعلقة بسلام • وقام لويس التاسع بدور مصلح ذات البين بين الحكام المسيحيين بل أنه استدعى للفصل فى النزاع بين الملك هنرى الثالث وباروناته •

وكان القديس لويس مقتنعا بصفة عامة بالمحافظة على الحقوق الملكية التى أرسى قواعدها أسلافه • ففى الواقع كان المشرفون الملكيون التابعون له والموظفون الآخرون أكثر عدوانية منه فى محاولاته توسيع نطاق السلطة الملكية • وكما عبر أحد المؤرخين المحدثين « فى هذا العهد كان تقدم الحكومة معقدا نتيجة لورع الملك المبجل والسياسة العدوانية التى اتسمت بالصمود والعناد التى مارسها موظفو الملك » • والواقع أن القديس لويس وصل الى حد اقامة نظام المفتشين الملكيين المتنقلين من مكان الى مكان - أو المحققين Enquêteurs الذين قدموا تقارير رسمية عن الشكاوى المحلية وساعدوا على أن يظل الموظفين المحليين الطامحين خاضعين للمراقبة • وفى عهد لويس التاسع وصلت ثقافة العصور الوسطى الى قمتها فى فرنسا • وازدهرت الحياة فى المدن فى عهده وشيدت كاتدرائيات قرطبية رائعة فى المدن • وهو العصر العظيم للجامعات فى العصور الوسطى • وفى أكثر جامعات

العصور الوسطى شهرة، جامعة باريس، اجتمع فى وقت واحد بعض رجال الفكر الممتازين فى أوروبا العصور الوسطى - القديس بونفنتور Bonaventure والبرتوس ماجنوس Albertus Magnus ، توماس الأكوينى . وخرجت الجامعات رجال اللاهوت المهرة، رجال نظرتهم أكثر علمانية نذروا مواهبهم لخدمة الملك ، واحتلوا المناصب العليا فى الأجهزة الادارية الملكية . وأصبحت الحكومة الكابية راسخة الدائم وأكثر تعقيدا وفعالية . أما من وجهة نظر طبقة النبلاء الاقطاعية فقد كانوا أكثر استبدادا .

فيليب الوسيم ( ١٢٨٥ - ١٣١٤ م ) :

مات القديس لويس فى غمرة حملته الصليبية الثانية . وفى عهد خلفائه واصل الجهاز الادارى الحكومى سياساته المركزية دون تحفظ وخلف الملك لويس ابنه فيليب الثالث ( ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م ) ثم حقيقه فيليب الرابع أو « الوسيم » المجرد من المبادئ الأخلاقية والذى سيطر عليه الاحساس بعدم المبالاة ( ١٢٨٥ - ١٣١٤ م ) . كان فيليب الوسيم شخصية صامتة وغامضة وورعا تقليديا ، غير أنه كانت لديه نزعة حقيقية فى اختيار كبار الموظفين المقدرين والمجربين من المبادئ الأخلاقية تماما ، والعدوانيين - وبصفة أساسية رجال القانون من الطبقة الوسطى من جنوب فرنسا - الذين نذروا أنفسهم لاعلاء شأن الحكومة الملكية الفرنسية باخلاص ملحوظ .

كان عهد فيليب الوسيم عصر عدوان ملكى متواصل ضد أراضي النوبل المجاورة والبابوية والامتيازات التقليدية لطبقة النبلاء الفرنسية وشن فيليب حربا غير حاسمة ضد الاقطاعات الباقية لادوارد الأول ملك انجلترا فى جنوب فرنسا . وبذل جهدا مضنيا للاستيلاء على اراضى الفلاندر وسجن الكونت القلمنسى Flemish Count وحكم الأقاليم حكما مباشرا على يد مندوب ملكى بيد أنه تعرض للسهزيمة على يد ثورة فلمنكية دموية سنة ١٣٠٢ م . وواصل بنجاح سياسة التصدى للعدوان الآتى من الشرق ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وشتت شمل جماعة الفرنسان الداوية الصليبية Crusading order of knights templers الغنية وقضى على سمعتهم بشن حملة من الشائعات المغرضة والمذمومة أثارت الدهشة وصادف ثروتهم . ولقد شاهدنا فى الفصل السابق كيف تصارع مع البابا بونيفس

الثامن وكيف ألقى ممثلوه القبض على البابا لفتره من الوقت وكيف فى نهاية الأمر دبر انتخابات البابا الفرنسى لين العريكة كلمنت الخامس Clement V الذى أقام فى أغينون Avignon . وواصل سياسة نشطة مضادة للاقطاع ضد طبقة النبلاء فى بلاده ' إذ حد من قوة النظام الهرمى الاقطاعى وألزم كل الفرنسيين بتقديم الطاعة والولاء المباشر له . وكانت كل تلك الانشطة مظاهر للفلسفة السياسية السائدة لعصره إذ كان الملك سيدا لفرنسا علمانيا ودينيا والشخصية المسيطرة فى غرب أوروبا . وتصادفنا هذه الفلسفة نفسها فى رجال الدولة الفرنسيين الطموحين فى القرون التالية ، فى الكاردينال ريشليو Cardinal Richelieu ، وفى لويس الرابع عشر Louis XIV .

فى حين أنها تجردت من زخرفها فى عهدى نابليون ودى جول degoulle . وبرغم ذلك لم يكن الملك قادرا على أن يحكم دون وجود قدر من العون من رعاياه . وجلب انتصار فيليب على البابوية فى مسألة فرض الضرائب على رجال الدين وكذلك استيلائه على أموال الفرسان الداوية أموالا اضافية الى خزائنه . غير أن نفقات الحكومة المتزايدة وكذلك الصراعات الحربية أجبرته على البحث عن مصادر جديدة لزيادة موارده المالية وأن يضمن موافقة شعبه على رفض الضرائب غير العادية كما كان الحال فى انجلترا . غير أنه بدلا من دعوته مجلس شعبى عام برلمان لهذا الغرض اعتاد على التفاوض مع المجموعات المختلفة الدافعة للضرائب كل على انفراد .

ومع ذلك ففى عهد فيليب الوسيم انعقد أول المجالس الشعبية الكبرى بممثليها فمئذ سنة ١٢٠٢ م انعقد مجلس الطبقات من حين لآخر بهدف تقديم الدعم الرسمى للملك فى أوقات الأزمات ، وإبان الصراع الذى وصل قمته مع البابا بونيفس الثامن ، أو على سبيل المثال فى غمرة الخلاف مع الفرسان الداوية . واشتمل المجلس على الطبقات الثلاث الكبرى - رجال الاكليروس ، طبقة النبلاء ، وسكان المدن . واستمر انعقاد المجلس من حين الى آخر إبان القرون التالية بيد أنه لم يصبح أبدا أداة حقيقية للحكومة كما حدث فى البرلمان الانجليزى . وكان فشله نتيجة لمحاولته الحصول على صلاحية شرعية مبكرة وغير موفقة خلال القرن الرابع عشر فى غمرة حرب المائة عام . بل ان مجلس الطبقات فى عهد فيليب الوسيم افتقر الى القوة الدافعة التى تتمتع بها برلمانات انجلترا المعاصرة . ولم يكن لمجلس الطبقات صوت حقيقى فيما يتعلق بالضرائب الملكية . ولذلك لم يكن فى مركز يسمح له بلوم الملك من خلال



الجدول الكرونولوجى للملك انجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى :

**انجلترا :**

|                                  |             |
|----------------------------------|-------------|
| الغزو النورماندى لانجلترا •      | ١٠٦٦        |
| عهد وليم الفاتح •                | ١٠٦٦ - ١٠٨٧ |
| عهد وليم الثانى •                | ١٠٨٧ - ١١٠٠ |
| عهد هنرى الاول •                 | ١١٠٠ - ١١٣٥ |
| الخلاف على العرش ، الملك ستيفن • | ١١٣٥ - ١١٥٤ |
| عهد هنرى الثانى •                | ١١٥٤ - ١١٨٩ |
| عهد ريتشارد قلب الأسد •          | ١١٨٩ - ١١٩٩ |
| عهد حنا •                        | ١١٩٩ - ١٢١٣ |
| ضياح نورماندى •                  | ١٢٠٣ - ١٢٠٤ |
| العهد الأعظم •                   | ١٢١٥        |
| عهد هنرى الثالث •                | ١٢١٦ - ١٢٧٢ |
| ثورة سمعان من مونثفورت •         | ١٢٦٤ - ١٢٦٥ |
| عهد إدوارد الاول •               | ١٢٧٢ - ١٣٠٧ |

**فرنسا :**

|                               |             |
|-------------------------------|-------------|
| عهد حكم أسرة كابيه •          | ٩٨٧ - ١٣٢٨  |
| عهد فيليب الاول •             | ١٠٦٠ - ١١٠٨ |
| عهد لويس الرابع « البدين » •  | ١١٠٨ - ١١٣٧ |
| عهد لويس السابع •             | ١١٣٧ - ١١٨٠ |
| فيليب الثانى « أوغسطس » •     | ١١٨٠ - ١٢٢٣ |
| معركة بوفين •                 | ١٢١٤        |
| عهد لويس الثامن •             | ١٢٢٣ - ١٢٢٦ |
| عهد القديس لويس التاسع •      | ١٢٢٦ - ١٢٧٠ |
| عهد فيليب الثالث •            | ١٢٧٠ - ١٢٨٥ |
| عهد فيليب الرابع « الوسيم » • | ١٢٨٥ - ١٣١٤ |

## ١٤ - الأبعاد الجديدة للمسيحية فى العصور الوسطى :

### الكنيسة فى العصور الوسطى العالية :

على الرغم من أن العصور الوسطى شهدت بدايات ظهور الأمم ، فإن القومية لم تبدأ تلعب دورها فى الفكر الأوربي الا بعد ذلك بكثير . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ظلت الغالبية العظمى من الأوربيين محليين بشكل شديد فى نظرتهم ومعرفتهم عما يجرى بجوار بيئتهم التى كانت غامضة . غير أنه بجانب نظرتهم المحلية كان هناك عنصرا عالميا - وهو شعور بالانتماء الى مصلحة عالمية كبرى فى العالم المسيحى ، وإذا كانوا غير متحدين سياسيا الا أن الكنيسة وحدتهم ثقافيا وسياسيا . ومن الناحية الواقعية كانت العصور الوسطى العالية أكثر ميلا الى النظام المحلى وأكثر اتجاها الى النظرة الدولية عن العصور الحديثة .

وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى العالية سلطة قوية تدعو الى الوحدة . إذ حققت تقدما جديرا بالذكر منذ العصر السابق للعصر الكارولنجي الذى كان نصف سكانه من الوثنيين . وفى ذلك الحين انزهر نظام الأبرشية النشط فى كل أنحاء المناطق الريفية الأوربية لتقديم الأسرار المقدسة والقدر اليسير من التعليم المسيحى الى الفلاحين . وتكوّنت أبرشيات، ومهام جديدة لرئيس الأساقفة وعملت الأبرشيات القديمة بنشاط أكثر باستمرار . ولم تنجح البابوية نجاحا كاملا فى محاولاتها لايقاف أو وضع حد للسيطرة التى مارسها الملوك الاقطاعيين العلمانيون على أساقفتهم المحليين بيد أنه فى أعقاب الخلاف حول تقليد العلمانيين لرجال الدين Investure Controversy فإنها مارست سيطرة حقيقية على الأسقفيات . وأثار نمو النظام الإدارى البابوى الفعال حقد الحكومات الملكية الناهضة عليها ومحاولتها محاكاة الكنيسة .

على أن حالة الابتهاج فى العصور الوسطى العالية لم تكن أكثر وضوحا عما حدث من أثر للورع المسيحى فى المجتمع الأوربي والذى تم بشكل سريع . وقدمت أسرار الكنيسة أبعادا دينية جديدة فى حياة الرجل العلماني الأوربي التقليدى : إذ أن سر المعمودية طهر ميلاده حيث خلص من وصمة الخطيئة الأولى ، ودخل فى زمرة الجماعة المسيحية ، وفى سن البلوغ يتلقى سر التثبيت أوربا فى العصور الوسطى

Confirmation الذى يستهدف التأكيد على عضويته للكنيسة . ويعطيه نعمة اضافية التغلب على مشكلات المراهقة . ويتم تبجيل زواجه بسر الزواج . واذ ما اختار نداء الكهنوت فانه يتحول كنسيا الى كاهن عن طريق سر الكهنوت ، وعند الموت يتلقى سر مسح المحتضر بالزيت المقدس extreme unction الذى يعد روحه لرحلتها الى العالم الآخر . ويستطيع طوال حياته ان يحصل على المغفرة عن نتائج اللعنة الخاصة بالموت الروحي عن طريق الندم على ما اقترفه من آثام ، وكذلك التوبة وتلقى سر الغفران Penance المريح بكل تواضع . واخيرا يمكن للمرء ان يشارك بانتظام فى السر الرئيسى للكنيسة - القربان المقدس The eucharist اذ يتقبل جسد المسيح فى جسده عن طريق تناول خبز القربان . ومن ثم فان الكنيسة جلبت نعمة الله من خلال أسرارها السبعة لكل المسيحيين كبرهم وحقيهم ، فى كل مرحلة حاسمة من حياتهم . على أن نظام الاسرار السبعة المقدسة أخذ شكله النهائى فى العصور الوسطى العالية فحسب ، وكان مصدرا هائلا للراحة وتأكيد السكينة وجلب الأمل فى الخلاص ليس فقط للنخبة الوريعة ولكن أيضا للغالبية الأثمة . كما أن الاسرار ربطت الصلة بالله ليس فقط عن طريق الهدف المحير للطقوس السرية ولكن أيضا عن طريق ممارسة كل المؤمنين الدورية . وبالطبع . جعلت الاسرار السبعة المقدسة من الكنيسة وسيلة أساسية بين الله والانسان .

ونتج عن تزايد مجال الكنيسة بالاضافة الى القوى النامية للعصر الجديد تعميق لحالة الورع الشعبى فى كل أنحاء أوروبا . وشهدت العصور الوسطى تغيرا عميقا فى الاتجاه الدينى من صفته المميزة القائمة على الخوف من الله والرغبة تجاه كل شىء مقدس وسرى . وهذه الصفة هى التى ميزت المسيحية الباكرة الى النزعة العاطفية والحركة النشطة الجديدة . واتضح هذا التحول فى فن العمارة الكنسى حيث تراجع الطراز الرومانسيكى العادى المتبلد الحس أمام الطراز القوطى الممتد الى أعلى والمشدود بالتعبيرات . وهناك تغير مماثل كان واضحا فى الممارسات التعبدية وهو أن لاهوت المسيح ترك ناسوته يعانى الآلام الصلب أثناء المحاكمة من أجل خطايا الانسان . وفى العصور الوسطى العالية نالت العذراء مريم مكانة الشفعية الحنونة للأرواح الضالة اليائسة . ومهما كان الشخص آثما فانه يمكن له التخلص من الخطيئة اذا ما حاز عطف مريم لأنه من هو الابن الذى يستطيع ان يرفض



شفاعة والدته ؟! وهناك أسطور في ذلك العصر قالت ان الشيطان شكا الى الله من ملكه السماء الشفوقة التي حرمت جهنم من الموعودين بها ان الله القادر فوق عباده أصبح الرحيم الذى عانى فى الجسد ومات فى ألم مبرح ليكفر عن خطايا البشر وليهبهم الحياة الأبدية .

وعلى مثال كل المؤسسات الانسانية ابتعدت الكنيسة فى العصور الوسطى كثيرا جدا عن مثاليها العليا . اذ كان وجود رجال الكنيسة المنحرفين أمرا جليا طوال العصر ووجد بعض المؤرخين متعة فى تقديم الأمثلة والشواهد لأساقفة مالوا الى السرقة وقساوسة اتسموا بالشره وراهبات فاسقات . غير أن مثل تلك الحالات كانت نادرة . على أن موطن الضعف الشديد فى الكنيسة فى العصور الوسطى لم يكن فى الانحراف الفاضح وانما فى الشعور بالرضا الذى أفرز موقفا سطحيا واليا تجاه الحياة الدينية المسيحية أحيانا . كان للكنيسة فى العصور الوسطى نصيبا كبيرا من القديسين بيد أن الايمان العميق كان ضائعا بالنسبة للشئون اليومية للمهمة الرعوية وإدارة الأراضي الزراعية المنتشرة فى أماكن كثيرة فى غالب الأحوال .

### الأنظمة البندكتية :

كانت النزعة نحو الشعور بالرضا الذاتى مشكلة متكررة فترة بعد أخرى فى الحياة الديرية المسيحية . وحدث مرارا وتكرارا أن اضمحل شأن المثالية السامية لحركة الإصلاح الديرى ، وتحولت بمرور الوقت وتعاقبه حتى ظهرت فى النهاية حركات احتجاج ضد الانهماك المتزايد فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية فى الحياة الدينية الأقدم فى التطور . وتكررت هذه الدورة مرات عديدة . والواقع أن الحركة البندكتية نفسها كانت احتجاجا على التجاورات والقصور الموجود فى الحياة الديرية الباكورة . واعتبر القديس بندكت St. Benedict نظامه الجديد وسيلة للانسحاب من العالم وتكريس كل الوقت للاتصال بالله . وعلى الرغم من مثالية المبادئ البندكتية فانها ارتبطت بسرعة بنشر التعليم والتبشير .

ويحلول القرنين العاشر والحادى عشر صارت الحركة البندكتية كلها مشغولة بالشئون العالمية . وأدارت الأديرة البندكتية الأراضي الشاسعة وجهزت جماعات من الفرسان لخدمتها فى الجيش الاقطاعى ، واتصلت

اتصالا وثيقا بالأمراء العلمانيين فى شئون الدولة • وفى أوائل القرن العاشر ظهرت الحركة الكلونية Cluniac movement والتي كانت بندكتية فى روحها ونظامها كاحتجاج ضد الانهماك فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية والشعور بالرضا الذاتى الذى ألت اليه الحياة الديرية البندكتية المعاصرة ، بيد أنه فى أواخر القرن الحادى عشر توصلت مجموعة الأديرة الكلونية Congregation of Cluny الى تقاهم مع المؤسسات التجارية العلمانية بشكل واضح ، وبدأت تكشف عن نفس آثار الشعور بالرضا الذاتى الذى تمردت عليه من قبل • كانت مدينة كلونى Cluny مزدهرة وتحظى بالتقدير وتوقع فى النفس الشعور بالأمن لذلك ، فانها كانت راضية عن أديرتها الفخمة الخاصة بالرهبان والراهبات كما أنها قدمت منها يفسر الأمور المتعلقة بالطقوس الدينية فضلا عن أن حقولها الغنية ساعدت على حدوث التحول الجذرى للمجتمع المسيحى الذى ناضل من أجله البابا جريجورى السابع regory VII .

كانت أهداف البابا جريجورى السابع على كس أهداف القديس بندكت St. Benadic تماما تقريبا ، لأنه فى حين حاول بندكت إيجاد حياة ديرية فى أماكن مقدسة يلجأ اليها المسيحيون عندما يترهبوا حاول جريجورى السابع أن يجعل المجتمع نفسه مكانا مقدسا • إذ لم يكن هدف جريجورى مجرد الانسحاب من العالم فحسب ، وإنما الاندماج فيه وتعليمه • فبدلا من أن يكون المسيحيون فى مأمن من العالم فانه عمل على أن يكون العالم كله مكانا آمنا للمسيحية • وإبان الخلاف على تقليد المناصب الدينية Investiture Controversey ، وما تلاه من آثار كان لهذين الاتجاهين - الانسحاب من العالم والاندماج فيه - أثر شديد على اصلاح الحياة الديرية •

وبدت علامات الانهك على الحركة البندكتية فى بداية العقود الأولى من العصور الوسطى العالية • وقدم المدرسون والمبشرون ونساخ المخطوطات والمستشارون السياسيون من الرهبان البندكتيين خدمات للمجتمع لا غنى عنها . وذلك إبان القرون الطويلة التى سادها الاضطراب فى العصور الوسطى الباكرة • وقامت الأديرة البندكتية بدور مراكز للاشعاعات الروحية والثقافية فى العالم المسيحى • غير أنه فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر شهد البندكتيون توقفا لاحتكارهم للعملية التعليمية على أيدي مدارس الكاتدرائيات والجامعات بالمدن الجديدة • وخرجت مدارس المدن أعدادا متزايدة من العلماء المدربين الذين فاقوا الرهبان البندكتيين تدريجيا كنساخ المخطوطات كمستشارين للملوك • وبعبارة أخرى قلصت القوة الكبرى الناشئة عن قيام المدن الدور التقليدي للحركة البندكتية في خدمة المجتمع بشدة •

ومع ذلك 'احتفظ البندكتيون بممتلكاتهم من الأراضي الشاسعة • ومن النادر أن كان الدير البندكتي ملاذا مقدسا بعيدا عن الشؤون الدينية كما أراء القديس بندكت St. Benedict . كما لم يعد الدير البندكتي القوة الدافعة لتنصر العالم كما كان من قبل • ولم تسلك البندكتية في القرن الثاني عشر طريق الانسحاب من العالم أو طريق الهداية ، وانما فقدت سيطرتها في ميدان التناقض على الشؤون الدنيوية • وبدأت الحياة البندكتية للمتدينين الذين سعوا لأسمى درجات الورع في العصر الجديد مخيبة للأمل ولا تروق لهم •

### الحياة الرهبانية الجديدة :

سلكت الثورة الديرية ضد البندكتية الطريقتين المختلفتين الخاصين بالانسحاب الشديد من المجتمع والمشاركة المتحمسة في تنصير هذا المجتمع • إذ ان الدافع تجاه الانسحاب من المجتمع انتشر بين النظام الديرى الكارثوزى Carthusian Order الذى ظهر فى شرق فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وانتشر عبر أنحاء العالم المسيحى فى القرن الثانى عشر • وعاش الكارثوزيون Carthusians فى مجموعات صغيرة بمعزل عن العالم الخارجى متعبدين معا فى كنائس صغيرة خاصة بطائفتهم الا أنهم عاشوا 'كنساك فى صوامع معدة لشخص واحد • ومازال هذا النظام الديرى المتزمت موجودا حتى أيامنا هذه • وعلى عكس الحركات الديمية فان تمسك هذا النظام الشديد بالقيم الروحية من النادر ان اعتراه شيء من الوهن • ومع ذلك فحتى فى جو القرن الثانى عشر المشبع بالتمسك بالقيم الروحية كان النظام الديرى الكارثوزى حركة صغيرة قدمت نمطا للحياة لأقلية فقط من الرجال الأتقياء الذين اتسموا بالبطولة بعد أن ذنبروا أنفسهم لخدمة الله والدين • ونال النظام الديرى الكارثوزى اعجابا شديدا نظرا الى أنه كان

من النادر الانخراط فى سلوكه بسبب ميله الشديد الى الزهد بدرجة فاقت مستوى المسيحى العادى .

نجد النظام الديرى السسترشن Cistercian order أكبر الحركات الديرية فى القرن الثانى عشر لفترة من الوقت فى أن يكون نظاما متفشفا ومقبولا شعبيا . المقر الرئيسى لهذا النظام الديرى فى سيتو Citeaux سنة ١٠٩٨ م وهو مكان مقفر ومنعزل فى جنوب فرنسا . وفى بداية الأمر نما النظام الديرى السسترشن ببطء شديد ، ثم تحققت له القوة الدافعة رويدا رويدا . وفى سنة ١١١٥ م كان لهذا النظام الديرى أربع مقرات تابعة ، وفى نهاية القرن صار له خمسمائة مقرا تابعا .

وقدم النجاح المدهش للنظام الديرى السسترشن الدليل على الاعجاب الهائل بفكرة الانسحاب من العالم لدى المسيحيين فى القرن الثانى عشر . وعلى مثال النظام الديرى فى سيتو Citeaux تم بناء الأديرة التابعة فى المناطق القفرة البعيدة . وكان الرهبان أنفسهم غلاظ الطباع وسذجا . كما كانت الأديرة فى تباين صارخ بالنسبة لفن العمارة الكلونية المتقن . وكانت الحياة السسترشنية Cistercian قاسية وبدائية - وأقل قسوة عن الحياة الكارتوزية Carthusians ، وإن كانت أكثر قسوة من الحياة الكلونية . وسعى السسترشن الى بعث الحياة الصارمة والبسيطة للبندكتية الأصلية . بيد أنهم كانوا فى الحقيقة أكثر تزمنا من بندكت نفسه . وارتبطت أديرة السسترشن ارتباطا وثيقا ليس عن طريق سلطة رئيس الدير المركزى كما هو الحال فى النظام الكلونى Cluny وإنما عن طريق اجتماع لكل رؤساء أديرة الطائفة فى مدينة سيتو Citeaux . وبدون تلك السيطرة المركزية يصبح ارتباط الأديرة المستقلة بالمثل العليا الصارمة والتقشفية التى قامت من أجلها أمرا بعيد الاحتمال .

كان القديس برنارد St. Bernard الشخصية البارزة الرئيسية فى النظام الديرى السسترشيانى Cistercianism فى القرن الثانى عشر إذ انخرط فى سلوك جماعة رهبان سيتو سنة ١١١٢ م وبعد ذلك بثلاث سنوات صار رئيسا لدير كليرفو Claveaux الذى قام بتشييده وهو أحد الأديرة الباكورة التابعة للدير الرئيسى فى سيتو . وكان القديس برنارد رئيس دير

كليرفو المسيحي القيادي لعصره متصوفا ، واسع المعرفة ، وخطيبا دينيا شهيرا ، وشخصية مهمة فى الظهور النوراني للنظام الديري السسترثيانى . وكان نفوذه الأدبى هائلا لدرجة أنه أصبح الوسيط الأوروبى القياى للمنازعات السياسية والكنسية . اذ قام باقناع ملك فرنسا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة بالمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية . وأقنع العالم المسيحى بقبول ترشيحه فى الانتخاب البابوى الذى اتسم بالنزاع الشديد سنة ١١٣٠ م . وفى احدى المناسبات نجح فى تسوية الخلافات بين الأسترتين الألمانية الكبيرتين المتحاربتين وهما : أسرة الويلف Welfs وأسرة الهونشتوفين Hofinsttaufens بل أنه وبخ البابا نفسه : « قبل كل شىء تذكر أن الكنيسة الرومانية المقدسة هى أم الكنائس ، وليست سيدتهم المسيطرة ، وأنت لست سيدا على الأساقفة وإنما أحدهم . . . » واتخذ برنارد موقفا عنيدا ضد احدى الحركات التى ظهرت فى عصره : وهى التصور الاستفزازى الخاص بمحاولة التوفيق بين الايمان الكاثوليكي Catholic Fait والعقل البشرى والذى تعرض له بطرس أبيلارد Peter Aberlard فيلسوف القرن الثانى عشر الشهير . وفى خاتمة المطاف فشل برنارد فى أن يوقف اخضاع الايمان للعقل بيد أنه نجح فى أن يجعل معيشة أبيلارد المسكين ضنكا ، وأن يحصل على ادانة رسمية لبعض من تعاليم أبيلارد .

ويثبت مجرى حياة برنارد تناقض ظاهرى كامل بالنسبة للطائفة السسترثيانية Cistercianism بشكل شديد لأنه على الرغم من نضال تلك الطائفة لفصل انفسهم عن المجتمع فانهم اتجهوا صوب نوامة الشئون العالمية . والواقع أنه بمرور القرن الثانى شر أصبحت كل الحركة السسترثنية مهمته بالشئون الدنيوية باضطراب . وعلى سبيل مثال البيورتان Purtans الأواخر اكتشف السسترشن أن فضيلتهم المزدوجتين الخاصتين بالتقشف والعمل الشاق قد أقضيتا الى تكس مريك للثروة وصدا ملازم لبساطتهم الروحية . وان جهودهم فى تأمين الأراضى المحيطة بأديرتهم البعيدة وضعتهم فى الطليعة للحركة الواقعية على الحدود الداخلية . وأصبحوا روادا فى الفلاحة العلمية وأدخلوا تحسينات جذيرة بالملاحظة فى تربيته الخيول والماشية والأغنام . وأصبحت طائفة السسترشن الانجليزية من أكبر منتجى الصوف فى المملكة . وعلى الجملة مارست هذه الطائفة

نفوذًا متصاعداً وقويا على الاقتصاد الزراعى والحيوانى الأوروبى وقدر لها أن تلعب دوراً بارزاً فى الاقتصاد الأوروبى . وتزايدت ثروة هذا النظام الديرى نتيجة للنجاح الاقتصادى . وأصبحت كنائس الأديرة السسترشن أكثر غنا وتطورت اضطراد وساد حياة طائفة السسترشن المتقشفة والبسيطة حالة ظهرت أنظمة أخرى بهدف المشاركة بنشاط فى المجتمع والعمل على تجديده . مثل طائفة الترابيست Trappists التى عادت الى النظام الأصيلى للطائفة السسترشنية .

وحاولت طائفة السسترشنية الانسحاب من العالم وبرغم هدفهم هذا فانهم أصبحوا قوة كبرى فى أوروبا فى القرن الثانى عشر . وفى الوقت نفسه ظهرت أنظمة أخرى بهدف المشاركة بنشاط فى المجتمع والعمل على تجديده . فعلى سبيل المثال خضعت القوانين الأغسطينية Canons Augustinian لصرامة النظام الديرى ومع ذلك قامت بتنفيذ الواجبات الكنسية العادية فى العالم بتقديم الخدمات فى الكنائس الأبرشية والكاتدرائيات . ووصل الاندماج للنظام الديرى ذروته ونشاطه الدنيوى فى المنظمات الصليبية فى القرن الثانى عشر - الفرسان الداوية The Knights Templars والفرسان الاسبتارية والفرسان التيتون The Teutonic Knights والمجموعات المشابهة التى كان مثلها الاعلى هو امتزاج الحياة الديرية بالحياة العسكرية من أجل تحقيق امتداد الحدود السياسية للعالم المسيحى الغربى . تلك التنظيمات وجهود أخرى هى التى وجهت النشاط الروحى للحياة الديرية نحو تنصير المجتمع ، وكرمز الى التصورات الجريئة والآمال الكبار لحالة الروع الجديدة والمشيعة بشكل عاطفى ، والتى حركت أوروبا فى القرن الثانى عشر .

**الطوائف الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثولىكى ومهكمة التفتيش :**

ان موجة الروع التى شاعت بين عامة الناس أثارت مشاكل خطيرة للكنيسة والمجتمع لأنه تمخض عنها وجود فيض من النقد ضد رجال الكنيسة . ولم يكن الأمر تحول رجال الكنيسة الى السلوك السيئ وانما يرجع ذلك الى أن العلمانيين بدأوا يحكمون عليهم بمعايير أشد قسوة . وعبر الاستياء الشعبى بشأن العمل اليومى للكنيسة عن نفسه الى حد ما فى

الانخراط فى الأنظمة الديرية المتقشفة فى القرن الثانى عشر على وجه السرعة . ومع ذلك فان الغالبية العظمى من المسيحيين لم يستطيعوا ان يكونوا رهبانا ، وبالنسبة اليهم بدأت بعض المذاهب المسيحية الجديدة والمخالفة للمذهب الكاثولىكى تشكل مصدر اعجاب كبير لهم .

وازدهرت الطوائف المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثولىكى فى المدن الناشئة فى جنوب أوروبا بصفة خاصة . كما فاجأت الثورة المدنية فى القرن الحادى عشر الكنيسة دون استعداد فى حين كانت المدن الجديدة المراكز الحقيقية لحالة الورع التى انتشرت بسرعة بين العلمانيين . وبدت الكنيسة بجذورها فى النظام الاقطاعى القديم غير قادرة على تقديم العون لطبقة سكان المدن الجديدة النشطة والمتعلمة الى حد بعيد . وغالبا ماظهر اساقفة المدن كمستبدين سياسيين وأعداء لاستقلال سكان المدن المتمتعة بالحكم الذاتى أكثر من كونهم موجهين روحيين ملهمين . وغالبا مافشلت الكنيسة فى فهم مشاكل سكان المدن وطموحاتهم أو فى ان تتوقع شكهم المتزايد بخصوص ثروة الكنيسة وقوتها . وعلى الرغم من أن غالبية عظمى من سكان المدن فى العصور الوسطى ظلت على ولائها للكنيسة فان أقلية مثيرة للمتعاب وبصفة خاصة فى الجنوب انضمت الى الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثولىكى . وفى شجيتهم للثروة الكنسية فان تلك الطوائف لم تفعل أكثر مما فعله القديس برنارد والرهبان السسترشن . غير أن العديد من تلك الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثولىكى تجاوزت الحد بين الإصلاح الأرثوذكسى والخروج على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية . وذلك بممارستهم الوعظ دون الحصول على الموافقة الأسقفية أو البابوية ، وأكثر من ذلك أهمية أنهم أنكروا الحق المقصور على جماعة الكهنة بشأن ممارسة الأسرار المقدسة . وكانت الطائفة الولدوية احدى تلك الطوائف وهى التى أقامها تاجر من مدينة ليون Lyons يدعى بطرس ولدو Peter Waldo الذى وزع ثرواته على الفقراء سنة ١١٧٢ م وسلك حياة الفقر الرسولى . وفى بداية الأمر عمل ورفاقه فى حدود التعاليم الأرثوذكسية . غير أن اسرافهم الشديد فى عدم رضاهم على رجال الاكليروس والذى نما تدريجيا وكذلك انكارهم للمسلطات الخاصة بالقساوسة جلب عليهم لعنة الكنيسة . وظهرت مجموعات بعضها أرثوذكسية والبعض الآخر لا تؤمن بالمذهب الكاثولىكى فى الوحدات الادارية الصغيرة Communes باقليم لومباردى وعرفت باسم المتواضعون Humilati

بالطبع كانت تلك المجموعات مثيرة للمتابع • غير أنفا في العادة نجت من طائلة اللعنة طالما أنها لم تلجأ الى حد انكار سلطة الكنيسة • ومع ذلك انكرت طوائف كثيرة سلطة الكنيسة ، ولذلك انتشرت الطوائف الدينية المسيحية التي لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي عبر شمال ايطاليا وجنوب فرنسا ، بل وحتى في اسبانيا ، وألمانيا في القرن الثالث عشر •

وأكثر المذاهب الدينية المسيحية التي لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي خطورة وشهرة في جنوب فرنسا ذلك المذهب الذي عمل على نشره جماعة عرفت باسم الكاثاري Cathari ( الأطهار ) أو الالبجنسيين Albigensians نسبة الى مدينة البى Albi حيث كانوا أقوياء بشكل بارز • وقدم 'الالبجنسيون مزيجا من تعلمين ( ١ ) اعلان الاحتجاج على الدين بسبب ثروة الكنيسة وسلطانها • ( ٢ ) تقديم نظرية لاهوتية دخيلة مستمدة في الأصل من الثنائية الفارسية • واعترف الالبجنسيون بالهين - اله الخير الذي يحكم عالم الروح واله الشر الذي يحكم عالم المادة • واله العهد القديم Old Testament ، خالق العالم المادي كان في نظرهم اله الشر • أما المسيح الذي كان في اعتقادهم روحانيا بكل معنى الكلمة وله جسد غير حقيقي كان اله الخير عندهم • وركز مذهب الالبجنسيين على الرفض الشديد لكل الامور المادية - الشهوات الجسدية ، الثروة وزخرف الدنيا والزواج - على أمل الهروب في يوم ما من سجن الجسد أو الصعود الى مملكة الروح الطاهرة • والواقع عن هذه المبادئ الأخلاقية مارستها الصفوة القليلة من الطائفة ، أما الأتباع والمريدون فكانوا يأكلون مالد وطاب ، وينجبون الأطفال ، وكانت مشاركتهم في رفض العالم المادي - عن طريق نقد حياة الرغد التي نعم بها رجال الكنيسة • والواقع أن خصومهم اتهموهم بأشنع ألوان الفسوق ، ولا يبدو صحيحا أن بعض أمراء بروفنسال Provençal جذبهم تلك التعاليم الجديدة بسبب ممتلكات الكنيسة التي استولت عليها •

ومع ذلك انتشرت المبادئ الالبنجسية بسرعة عند بداية القرن الثالث عشر ، وشكلت تهديدا مخيفا لوحدة العالم المسيحي وسلطة الكنيسة • ولما أدرك البابا اثوسنت الثالث Innocent III خطورة الموقف حاول بكل ما أوتى من قوة العمل على القضاء التام على الطائفة الالبنجسية • وأخيرا دعا هذا البابا الى حملة صليبية سنة ١٢٠٨ م ضد الالبجنسيين وهي



أول حملة صليبية ضد المسيحيين الأوروبيين • وكانت تلك الحملة وحشية وشرسة ونجحت فى تحقيق هدفها الا أن ذلك كان على حساب تخريب الحضارة النابضة بالحياة فى جنوب فرنسا • وكما عرفنا تدخلت الحكومة الملكية الفرنسية فى المراحل الأخيرة لتلك الحملة الصليبية • ونتج عن ذلك امتداد نفوذها حتى البحر المتوسط • وكانت تلك الحملة الصليبية حدثا مهما فى تطور السلطة الملكية الفرنسية ونجحت فى وقف الاتجاه نحو الطائفة اللبينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي فى جنوب فرنسا • كما انها كانت نهاية لمرحلة القسوة التى مارسها الكنيسة عندما تعرضت للخطر •

وفى السنوات التى تلت الحملة الصليبية ضد الالبيجنيين مباشرة ظهرت مؤسسة ظلت رمزا مثيرا للاشمئزاز ضد الكنيسة فى العصور الوسطى فى أسوأ أحوالها انها محكمة التفتيش Inquisition • ان اضطهاد المسيحيين للطوائف التى لا تدين بالمذهب الكاثوليكي يعود الى أواخر القرن الرابع ليلادى الا أن الأفكار المخالفة للمذهب الكاثوليكي لم تشكل مشكلة خطيرة قبل العصور الوسطى العالية للمجتمع الأوربي • ووجرت العادة على أن مشكلة إخضاع الطوائف الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي على الالتزام بالمذهب الكاثوليكي أو معاقبتهم كانت تتم على المستوى الملى • غير أنه سنة ١٢٢٢ م أقامت البابوية محكمة مركزية دائمة بهدف وضع المعايير للأجراءات وزيادة الفعالية عند قمع الذين يدينون بمذاهب تخالف المذهب الكاثوليكي • واشتملت أساليب محاكم التفتيش على استعمال التعذيب والشهادة السرية والادانة وفقا لشهادة شاهدين فقط ، وعدم قبول المستشار القانونى لأقوال المتهم والأساليب الأخرى العدوانية بالنسبة للتراث القانونى الأنجلو - أمريكى ، وان كانت غير جذيرة بالملاحظة وفقا لمعايير تلك الفترات • والواقع أن كثيرا من تلك الأساليب - بما فيها التعذيب - أخذت عن تقاليد القانون الرومانى • ودفاعا عن محكمة التفتيش قانه يمكن القول ان المدانين باعتناقهم مذاهب تخالف المذهب الكاثوليكي يمكن لهم النجاة من الموت اذا ما أعلنوا تخليهم عن الآثام • وبعبارة أخرى إقامة عهد أرهاق يبدو أن محكمة التفتيش حظيت بتأييد شعبى •

وقدم بعض المؤرخين أدلة أخرى فى محاولة للدفاع عن مؤسسة من المتعذر الدفاع عنها • دعنا نقول هنا ان الايمان المسيحى كان أكثر أهمية بكثير لشعب العصور الوسطى عن الولاء القومى • وان الكنيسة فى العصور

الوسطى بأنشطتها الخيرية المدروسة ومستشفياتها وجامعاتها وخدماتها -  
الاجتماعية الأخرى شكلت الكثير من أدوار الدولة الحديثة ، وأن المذهب  
المخالف للمذهب الكاثوليكي كان شبيها بتهمة الخيانة العظمى فى وقتنا  
هذا . وبالنسبة للمسيحي فى العصور الوسطى كان اعتناق مذهب مخالف  
للمذهب الكاثوليكي أمرا مدعما بالكراهية والبغضاء واهانة للمسيح ،  
ومصدرا لافساد أرواح الآخرين . وفى العصر الحاضر فان المذاهب السياسية  
والاقتصادية أكثر أهمية عند معظم الناس عن المعتقدات الدينية . والنظير  
الأقرب للمذهب الولدوى Waldensianism والمذهب الالبجنسى  
Albigensianism موجود فى أمريكا الحديثة فى الحزبين الشيوعى  
والنازى . وعند دراسة المعارضة الشعبية لتلك الجماعات المتطرفة ربما يمكن  
لنا الوصول الى معلومة عن الحالة الفكرية التى تمخض عنها وجود محكمة  
التفتيش فى العصور الوسطى .

#### الرهبة التى تعيش على الصدقات :

قدم القرن الثالث عشر حلا للاتجاه الخاص بوجود طوائف لا دين  
بالمذهب الكاثوليكي فى حالة الورع بالمدن والتى كانت أكثر رحمة وتأثيرا  
من محكمة التفتيش . وفى بداية العقود الأولى من هذا القرن ظهرت منظمتان  
جديدتان بشكل أساسى - الدومينيكان Dominican والفرنسيسكان  
Franciscan - اللتان وهبتا حياتهما للفقر والتبشير والاعمال الخيرية .  
ونظرا لرفضهم حياة الأديرة لذلك نذروا أنفسهم للعمل الدينى فى العالم  
وبصفة خاصة فى المدن . وفى العادة أخذ الرهبان البندكتيون السسترشن  
عهدا على أنفسهم بأن يعيشوا فى حالة فقر شخصى الا أن تلك المنظمات  
الديرية استطاعت جمع ثروات هائلة مشتركة . وعلى العكس من ذلك أخذ  
الدومينيكان والفرنسيسكان عهدا على أنفسهم بأن يكونوا فقراء شخصيا  
وجماعيا ولذلك عرفوا باسم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات  
Mendicats . وبعد أن فازوا بأعجاب العالم المسيحى فى القرن الثالث عشر  
نجحوا فى افماغ المذاهب الخارجة على المذهب الكاثوليكي بالمدن من كثير  
من وسائل دعمها عن طريق اقامة الأدلة لسكان المدن الأوربية ، أن  
الأرثوذكسية المسيحية يمكن أن تكون مناسبة وأن تفرض بالقوة .

والقديس دومينيك St. Dominic ( ١١٧٠ - ١٢٢١ م ) أحد أبناء اسبانيا قام بالوعظ فى جنوب فرنسا ضد طائفة الالبنجسيين وأمن بوجود أخوة رهبان مدربين كرجال لاهوت ووعاظ ونبذوا أنفسهم للفقر والحياة البسيطة ومحاولة استمالة الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكي عن طريق تقديم الحجج والبراهين والخطابة والقدرة . ونظرا لحصول جماعة الدومينيكان على موافقة البابوية سنة ١٢١٦ م فانهم اجتازوا مرحلة التوسع والازدياد ، ويمرور نصف قرن انتشروا فى كل أنحاء العالم المسيحي : وقدمت الجماعة أعظم الفلاسفة ورجال اللاهوت فى عصرهم ومن بينهم القديس توماس الاكويني . وشارك الدومينيكان أيضا بنشاط فى ديوان التفقيش بيد أن أكثر أعمالهم فعالية كانت عن طريق الاقتناع أكثر من استعمال العنف . ويمرور الوقت سقط المبدأ المثالي الخاص بالفقر المشترك لانه أصبح من المسلم به أن العلماء والمدرسين الذين يعملون طول الوقت لا يمكن لهم أن يستجدوا الصدقات ، أو أن يقوموا بأعمال شاقة ، أو أن يظلوا فى شك بشأن المصدر الذى يقدم لهم وجبات الطعام التالية . غير أنه بعد أن تطورت مفاهيم العيش على الصدقات بقى الدومينيكان أوفياء لرسالتهم الخاصة بالدفاع عن الأرثوذكسية بالكلمة المسموعة والمقروءة .

فاقت انجازات القديس فرنسيس St. Francis ( حوالى ١١٨٢ - ١٢٢٦ م ) معاصره القديس دومنيكان . وكان فرنسيس رجلا مفعما المحبة ومثيرا للاعجاب ويعتبر من أشهر القديسين فى المسيحية . كان فرنسيس نتجا واقعيًا لثورة المدن . وكان ابنا لتاجر أقمشة ثرى فى مدينة أسيزي Assisi فى شمال إيطاليا . وهى مدينة كان بها أقلية من الطائفة الالبجنسية التى كانت لها نفوذا مؤثرا . وبعد أن قضى فرنسيس مرحلة المراهقة التى اتسمت بالمرح والصخب تحول الى الايمان العميق بالمسيحية ، وعاش فى عزلة لفترة وجيزة ثم عاد الى المجتمع البشرى بتصميم شديد على أن يتخلّى عن كل الخيرات الدنيوية وأن يهب حياته لخدمة الفقراء والمرضى . وكان فرنسيس حازما الا أنه لم يكن متجهما . والواقع أن احساسه بالبهجة الذى لم يقل عن ورعه الشديد هو الذى جعله يفتن عصره . ولما تزايدت أعداد التابعين له كتب نظاما ديريا مبسرا لهم مبثيا على مبادئ الأنشطة الخيرية فى العالم والتفانى الكامل للعمل من أجل الله والرفق الكلى لكل الزخرف الدنيوي . وفى سنة ١٢١٠ م طلب من البابا انوسنت

الثالث الموافقة على نظامه الديرى ووافق البابا على هذا النظام الديرى بعد أن أبدى بعض الشكوك . وفى السنة التالية انتشر النظام الديرى الفرنسيسكان بسرعة كبيرة . ولاشك أن شخصية فرنسيس الجذابة بشكل يفوق العادة كانت عاملا حاسما فى شعبية نظامه الديرى بيد أنه مدين كثيرا أيضا للحقيقة القائلة بأن مثله العليا ترجع الى طموحات العصر الدينية العليا الى حد كبير . وفقدت الطوائف الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكي وسائل اغرائها فى المدن بعد أن بدأ الرهبان الفرنسيسكان المخلصون يتدفقون على مدن أوروبا ويقدمون المواعظ فى الشوارع المزدهمة ويقومون المثال الحى للورع المسيحى .

وإذا كان المتدينون قد هجروا العالم فى الأزمنة الأخرى الا أن هجرة الالبجنسيين كانت مثالا للشر . غير أن القديس فرنسيس أقبل على العالم بسرور وإبتهاج باعتباره من صنع الله . وعبر عن ذلك شعرا فى أغنية عن « أخانا الشمس » Song of Borthor Sun حيث عبر عن نظريته المقدسة الى الكون :

المجد لك يا الهى خالق كل شئ  
فأخانا الشمس أعظم المخلوقات  
فمنه النهار والضوء  
ومنه الجمال والأشعة والسعادة الكبرى  
وجوده دليل على وجودك فى الاعمالى

المجد لك يا الهى خالق أختنا القمر والنجوم  
جعلن السماء نورا متألفا جميلا

المجد لك يا الهى مسير الرياح  
ومسخر الهواء والسحاب ومبدل الأحوال  
وعليها كانت حياة كل المخلوقات

المجد لك يا الهى خالق أختنا الماء  
فهو، ماء، غاية النفع والتواضع والصفاء

المجد لك يا الهى خالق آخانا النار  
فهو الذى أضواء الليل  
وهو الأشقر والمبتهج والمروع والشديد

المجد لك يا الهى خالق أمنا الأرض  
فهى التى تمدنا بأسباب الحياة ونمشى فى مناكبها  
وتنبئ لنا الفواكه المختلفة والنباتات والازهار الياضعة  
المجد لك يا الهى بارك لنا فى الأرض  
واجعلها طوعا لنسا

وكانت المبادئ الفرنسيسكانية Franciscanism على درجة عالية من المثالية الى حد يصعب استمراريته . وعندما انتشر هذا النظام الديري عمل على التخلص من مفاهيمه الأولى بل أنه قبل موت فرنسيس ١٢٢٦ م كانت البابوية مضطرة الى اجازة دستور متطور وعملى لهذا النظام الديري . وبمرور الوقت بدأ الأخوة الفرنسيسكان يثذرون أنفسهم للعلم وأخذوا أماكنهم جنباً الى جنب مع الرهبان الدومنيكان فى جامعات أوروبا . والواقع أن العلماء الفرنسيسكان مثل روجر بيكون Roger Becon فى انجلترا فى القرن الثالث عشر لعبوا دوراً رئيسياً فى نهضة البحث العلمى . وكذلك القديس بونفينتر St. Bonventure الرئيس العام لمنظمة الفرنسيسكان فى أواخر القرن الثالث عشر ، والذى كان أشهر علماء عصره فى علم اللاهوت . وإن علو شأن منظمة الفرنسيسكان ومظهرها العام وضعها فى موقف المضطرة الى معالجة مسألة مثلها الأعلى الأصلى فيما يتعلق بالفقر المشترك . وعلى الرغم من أن تلك المنظمة لم تمتلك أو سعت الى امتلاك ثروات مثل البندكتيين أو السيستريشن فانها سرعان ما امتلكت الوسائل الكافية لمد أعضائها بأسباب الحياة . ولذلك فبمرور الوقت انتهج الفرنسيسكان أسلوب حياة المنظمات الديرية الباكورة كما تعرضت بساطتهم الأولى وحماسهم الدينى الى شىء من التراجع ونتيجة لشعبيتهم ونجاحهم . وحاولت جماعة صغيرة منشقة عرفت باسم « الروحانيون الفرنسيسكان » Spiritual Franciscans المحافظة على الفقر الرسولى ومثالية فرنسيس نفسه الخالية من كل تكلف بيد أن الغالبية العظمى من الفرنسيسكان كانوا راغبين فى التلاقى مع الواقع فى

منتصف الطريق • واستمروا فى خدمة المجتمع غير أنهم توقفوا عن الهاب  
مشاعره عن طريق الوعظ الدينى وذلك عند نهاية القرن الثالث عشر •

ان نمط الاصلاح الدينى فى العصور الوسطى العالية هو أحد مظاهر  
المد والجزر المتواترة • وبدأت حركة الاصلاح بحماس شديد وغاية نبيلة  
وانجحت فى اثاره وتنبيه المجتمع لفترة من الوقت ثم خضعت الحركة رويدا  
رويدا الى الرضا الذاتى • « واقسحت المجال الى موجة من الاصلاح مختلفة  
وجديدة • غير أنه عند نهاية العصور الوسطى العالية يستطيع المرء أن  
يكشف ضعف تدريجى للنشاط الروحى وحتى ظهور الاصلاح البروتستانتى  
فى القرن السادس عشر لم تحرز أى منظمة دينية جديدة ماحققته منظمة  
الفرنسيسكان فى القرن الثالث عشر من شعبية ضخمة وتأثير اجتماعى •  
وظل الومع الشعبى قويا ويصفه خاصة فى شمال أوروبا فى حين شهدت القرون  
التالية حركن تصوف مهمة • على أنه بدأ اتجاه أكثر علمانية فى الظهور  
ببطء • ولم يعد الشباب يندفعون افواجا للانخراط فى النظم الديرية وكذلك لم  
يعد الجنو. يسارعون فى الانضمام الى الحملات الصليبية • وكانت الاثارة  
القوية التى أحدثها القديس برنارد St. Bernard والقديس دومينييه  
St. Domonic والقديس فرنسيس St. Francis ظاهرة فريدة  
لعصرهم وانتهى عصرهم بحلول القرن الرابع عشر •

مكتبة  
الكتاب  
الرقم  
التاريخ

الجدول الكرونولوجي للحياة الرهبانية والخروج على الأرثوذكسية :

|             |  |
|-------------|--|
| ٩١٠         | انشاء دير كلونى  |
| ١٠٨٤        | انشاء النظام الديرى الكارثوسى                                    |
| ١٠٩٨        | انشاء كيتو   |
| ١١١٢ - ١١٥٣ | حياة القديس برنارد من كليرفو كأحد رهبان<br>السيسترتشن .          |
| ١١٢٨        | النظام الاصلى للفرسان الداوية                                    |
| ١١٧٣        | بداية الطائفة الولدوية   |
| ١٢٠٨        | انوسنت الثالث يدعو لحملة صليبية ضد<br>الالبجنسيين                |
| ١٢١٦        | البابا انوسنت الثالث يرخص باستمرار النظام<br>الديرى الفرنسيسكانى |
| ١٢١٦        | البابوية تبارك النظام الديرى الدوسينيكانى                        |
| ١٢٢٦        | موت القديس فرنسيس .  |
| ١٢٢٣        | اقامة محكمة التفتيش  |

## ١٥ - الفكر والإدب والفنون :

### القوى المحركة لثقافة العصور الوسطى العالمية :

وصفت مدينة باريس في القرن الثالث عشر على أنها مدينة أثينا في أوروبا العصور الوسطى . وأنه لأمر حقيقى بالطبع أن بونا شاسعا يفصل ما بين العصر الذهبي لأثينا البيريكليية Periclean Athens ( بيركليس هو السياسى الاغريقى حوالى ٤٩٠ - ٤٢٩ ق م ) والعصر الذهبى فى فرنسا فى القرن الثالث عشر . ونمت كلتا الثقافتان فى اطار المعتقدات التقليدية والعادات الراسخة وان كانتا قد تعرضتا الى التحدى والتحول على يد عدة قوى جديدة . وان عالم العصور الوسطى الباكرة الدينى والاجتماعى كمثل عالم دولة المدينة اليونانية الباكرة الدينى والاجتماعى كان محدودا وملتزما بالتقاليد نوعا ما . وابان وصول الثقافتين الى عصرهما الذهبى تعرضت قيم الماضى للتحدى بفعل الاتجاهات الفكرية الجديدة كما ان الأنماط الاقتصادية القديمة انهارت أمام النشاط التجارى الذى تزايد فى حدته . وعلاوة على ذلك فلفترة من الوقت أدت تلك القوى الجديدة المتميزة والمستمرة ، الى التعبير عن القيم الثقافية القديمة بوضوح بارز . فالبارثنون Parathenon المخصص لالهة أثينا المحلية الموقرة وكذلك الكاندرائية القوطية الموقعة فى النفس روعا لسيدتنا Notre-Dame كلاهما نتاجا لابداع جديد تم استخدامه لخدمة أيديولوجية أكثر تقدما . وفى خاتمة المطاف اثبتت الدوافع الخلاقة الجديدة مقدرتها على القضاء على الايديولوجيات القديمة . بيد أنه لفترة من الوقت حققت كل من بلاد اليونان القديمة وأوروبا فى العصور الوسطى توازنا بين القديم والجديد وفى كلتا الحالتين كانت النتائج مثيرة للاعجاب .

وعلى العموم نجحت أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى ان تظل بثقافتها شابضة بالحياة والاقدام فى نطاق المسيحية الكاثوليكية التقليدية . كما ان فكرة العالم المسيحى أعطت النمط والاتجاهات للمقدرة الابداعية الجديدة وبرغم القوى المحركة النشطة والقوية فى تلك الفترة فانه يمكن القول بشئ من الصحة أنه عصر الايمان .



تعرضت أوروبا فى العصور الوسطى العالية لصحوة فكرية وفنية اثرت على كل اساليب التعبير الخيالية تقريبا . وظهرت أعمال خلاقة مهمة فى الانتاج الأدبى وفن العمارة والنحت والقانون والفلسفة والنظرية السياسية بل وحتى فى العلوم . وعند نهاية هذه الفترة التاريخية كانت أسس التراث الثقافى الغربى قد رسخت بثبات . وستقدم لنا الصفحات التالية لمحة فقط عن بعض الانجازات الثقافية الرائعة فى هذه الفترة التاريخية .

### الانتاج الأدبى :

كان الانتاج الأدبى فى العصور الوسطى العالية وافرا ومتنوعا بغزارة . اذ كان الشعر مكتوبا باللغة اللاتينية التقليدية - اللغة العالمية للطبقة المثقفة فى العصور الوسطى - وكذلك باللغات المحلية للفجئات العادية التى ظهرت منذ عهد بعيد فى الأقاليم المختلفة من العالم المسيحى . ووجد الورع المسيحى التقليدى تعبيرا فى سلسلة من التراجم المهيبة والباعثة على الغم ، والتى ظهرت حالتها المزاجية فى تلك المقتطفات من « أورشليم الذهبية Jerusalem The Golden

ان العالم به الكثير من الفساد  
وعصرنا فى تزايد فى العناد  
كن متزنا ومداوما للصلاة  
فملك الموت لا مفر من لقاءه  
وحياتنا القصيرة لا تخلو من الآلام وقلة الاهتمام  
أما الحياة الأبدية فليست بها أحزان  
أورشليم المبتهجة التى حلت عليها البركة  
القلب يهيم بحبك واللسان ينطق عن الكلام  
انى لا أعرف مدى السعادة هناك  
فيالها من سعادة سماوية متألقة  
وياله من نور روحى يفوق الوصف

وعلى الطرف الآخر لألوان طيف Spectrum الانتاج الأدبى اللاتينى فى العصور الوسطى يجد المرء شعرا من نوع مختلف تماما .

نظمه دارسون مترحلون فى سن الصبى ورجال لم ينتهوا بعد من دراستهم التعليمية • وإن الظهور المتعمد للانغماس فى الشهوات وعدم احترام المقدسات فى أشعارهم ، إنما هو تعبير عن ثورة الدارسين على الأفكار القائمة على التّكشف. التى نادى بها كبار رجال الكنيسة :

عندما يحين موعن الصلاة ينادينى قلبى بتوقى شديد  
دعنى أظل فى الحانة الى أن أموت وائاء الخمر بجوارى  
فى حين تنظر الملائكة الى من فوقى وتغنى بأبتهاج • الخ

• وكانت واحدة من تلك القصائد للعلماء المترجلين تطاولا وقحا ومتعمدا  
ضد قانون الايمان المسيحى • فبالنسبة للعبارة من هذا القانون والقائلة :

« أومن بالروح القدس والكنيسة الكاثوليكية المقدسة ••• » تم تحويلها  
على النحو التالى :

أومن بالخمر المناسبة لى  
وأومن بـحانة مضيّفى  
أكثر من ايمانى بالروح القدس  
فالحانة هى محبوبتى  
أما الكنيسة فليست لى

تلك المشاعر الوجدانية يجب الا ينظر اليها على انها تدل على  
الاتجاه الكاسح نحو مذهب اللادريين ( الذين يؤمنون بالماديات فحسب )  
agnosticism • اذ لا ريب انها أساليب للتعبير مميزة للعصور الوسطى  
تتعلق بحركة التطرف radicalism للدارسين غير الملتزمين والنّى  
شهدتها كل العصور •

وبرغم أصالة الشعر اللاتينى فى العصور الوسطى العالية فإن الشعر  
المكتوب لغة الاقاليم المحلية فاقه فى الكم والنوع فى أساليب التعبير •  
كما أن النزعة تجاه النظر للأشياء عاطفيا والتي لاحظناها فى حالة الورع  
فى العصور الوسطى كانت متوازية تماما مع تطور الانتاج الأدبى الخاص

بكل اقليم على حدة منذ ظهور الملاحم التى تتحدث عن الشجاعة فى القرن الحادى عشر الى القصص الشعرية المرفقة الرقيقة للمشاعر فى القرن الثالث عشر . ولتأثر الروح القتالية فى شمال فرنسا بالحركة الرومانتيكية التى تميل الى الورقة بعضى الشئ والمتعة عقليا والمتعلقة بالتراث الترويدورى Troubadour Tradition ( وهو تراث الشعراء الغنائيين الذين اشتهروا فى جنوبى وشمالى ايطاليا فى القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر ) لذلك فان هذه الروح خبت رويدا رويدا .

وفى القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثمانى عشر كانت الملاحم البطولية المعروفة باسم أغاني الأعمال العظيمة Chansons de Geste شائعة بين طبقة النبلاء الاقطاعيين الشعبيين الى حد كبير فى شمال فرنسا . وكان العديد من تلك الأغاني سجلات من الأحداث مبالغ فيها حول عصر شارلمان . وأكثر هذه الأعمال العظيمة أغنية رولان Roland التى تحكى قصة المعركة الدامية والبطولية بين جماعة من المسلمين ومؤخرة جيش شارلمان اثناء انسحابها من أسبانيا . وعلى مثال الطراز الغمبي العتيق فان أغاني الأعمال العظيمة كانت مقعمة بالأثر الأدبى ومال أبطالها الى تجنب الارتباطات العاطفية بالسيدات . فالبسالة الحربية، والشجاعة ، والولاء للمسيد الاقطاعى ، ورفقاء القتال كل ذلك كانت فضائل تم التركيز عليها فى تلك الملاحم البطولية . وتميز وصف تفصيلات المعركة بخصائص الواقعية المثيرة :

وشاهد أمعاه تتدلى من جانبه  
ومخه ظاهر بوضوح للعيان على حاجبه

وباختصار فان أغاني الأعمال العظيمة كانت مرآة لروح الفروسية الاقطاعية للقرن الحادى عشر التى اتسمت بالقسوة والتركيز على أعمال الرجال .

وفى خلال منتصف وأواخر القرن الثانى عشر تغيرت الروح الحربية فى الانتاج الأوروبى بشمال فرنسا رويدا رويدا نتيجة لتدفق التراث الرومانسى للشعراء الموسيقيين بجنوب فرنسا ، بروفنس ، وقولوى ، واكويتين . وثمة

ثقافة قوية ونابضة بالحياة والحيوية كانت فى طريقها الى الانتشار التدريجى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر . ومن هذا المجتمع المفعم بالحيوية خرج الشعر الغنائى الذى تميز برقة المشاعر على نحو رائع واهمية كبرى . وعرف الشعراء الغنائيون باسم الشعراء الموسيقيين *trabadours* . وعمل معظم هؤلاء الشعراء فى البلاط الملكى أما البعض الباقي فكانوا ضمن طبقة النبلاء العليا بما فيهم دوق أكويتين نفسه . وكانت قصائدهم متعلقة بأقرب الأصدقاء ولها طابع شخصى وتضمنت اهتماما كبيرا بالحب الرومانسى أكثر بكثير عما وجد فى أغانى الأعمال العظيمة . واتجهت الرقعة والرومانتيكية عند الشعراء الموسيقيين الى الدمثة والشهامة أكثر مما كان موجودا فى المال الاقطاعى . وهذه الشهامة فضلت أغانى الغرام على أغانى الحرب . والواقع أن جنوب فرنسا فى العصور الوسطى كان مصدرا لكل تراث الحب الرومانتيكى للحضارة الغربية بكل مثالية عن النساء ، وتركيزه على كياسة الذكور ، ومجاملتهم للأناث ، والاصرار على اصفاء الزخرف على الدافع الجنىسى ، يذكر قصص القلوب المتبعة بالحب ، والاكاذيب العاطفية التى تبعث على البهجة .

وفى منتصف القرن الثانى عشر انتقل التراث الغرامى اللطيف شمالا الى بلاط شامبين *Champagne* وبدأ ينتشر على وجه السرعة . ونظرا لتزايد تأثير هذا التراث الغرامى اللطيف اكتشف الفرسان أن هناك ماهر أكثر توقعا منهم من مجرد حياة الولاء للرجال وممارسة القتل دون أدنى حذر . وأصبح متوقعا أن يكون هناك رجال مهذبين أيضا - وأن يكونوا لطفاء فى سلوكهم ويتحدثون كما يتحدث سكان المدن ، وأن يكون لهم بعض السيدات النبيلات وينعمن بولع الرجال بهن . تلك كانت مفاهيم الحب اللطيف . وكان تأثير تلك المفاهيم على السلوك الفردى محدودا بشكل واضح . بيد أن أثرها على الانتاج الأدبى فى شمال أوروبا كان جذريا . وتمخض التقاء الملحمة العامة بالقصائد الغنائية بالمهجات المحلية عن ظهور نمط شعري جديد عرف باسم القصة الشعرية *The romance* وعلى مثال أغانى الأعمال العظيمة *Chansons de geste* كانت القصة الشعرية قصيدة سردية طويلة بيد أنها كانت عاطفية وخيالية الى حد بعيد على مثال الشعر الغنائى فى جنوب أوروبا . وكانت فى العادة مبنية على موضوع مهم من الماضى البعيد مثل الحرب الروادية ، والاسكندر الاكبر وقبل

كل شيء الملك آرثر Arthur وهو الملك البريطاني الشبه أسطوري في القرن السادس الميلادي . وكان الملك آرثر قد تحول الى ملك مثالي في القرن الثاني عشر محاطا بالسيدات الفاتنات والفرسان المتسمون بالشرف والكراسة . وكان بلاطه الملكي مركزا للحب الرومانسي ورقة المشاعر الدينية المهدبة حيث أبدى الفرسان اعجابا ممزوجا بالاحترام لسيداتهم أو ذهبوا الكبير كريتين من تروى Holy Grail وفقا لوصف الشاعر الفرنسي بحثا عن الكأس المقدسة Chretien de Troyes . وازدهرت القصة الشعرية في فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وبين طبقة النبلاء في إنجلترا الذين يتحدثون اللغة الفرنسية . وكانت القصة الشعرية عنصرا حاسما في نمو الانتاج الأدبي باللغة الألمانية . وتأثر الشعراء الألمان - والذين عرفوا باسم Minnesingers - بالشعر الغنائي الفرنسي . والقصة الشعرية بيد أنهم طوروا تلك الأنماط الأدبية وفقا للخطوط الأصلية . وقدم هؤلاء الشعراء الألمان رواياتهم الرمزية والتي كانت بالغة الرقة عن القصص الأثرية Arthurian stories والتي فاقت في رمزيتهما المثيرة للخيال وعمق عواطفها أعمال كريتين من تروى ومعاصريه الفرنسيين .

وظهر الشعر باللغة المحلية بعد ذلك في إيطاليا غير أنه في أعمال دانتي Dante ( ت ١٣٢١ م ) وصل هذا الشعر الى أروع أساليب التعبير فالكوميديا الإلهية لدانتي Dante's divine Comedy كتبت باللغة الإيطالية المنطوق بها في توسكانيا Tuscan veracular ، انما هي مزيج رائع للانتاج الأدبي والفكري في العصور الوسطى . وهي غنية بأساليب الاستعارة والرمزية وتحكي عن رحلة دانتي نفسه في جهنم والمطر والمفرودوس الى المثل أمام الذات العلية . وسمحت هذه الصورة البلاغية لدانتي أن يقدم انتقادات مدمرة للتاريخ السابق على عهده ، والمعاصر له ، وذلك بوضعه كل من لا يوافق على آرائهم - بدءا من السياسيين المحليين الى البابوات - في درجات من جهنم . وكان الشاعر فيرجيل Virgil النموذج الأصلي للذهاب العقلي مرشدا لدانتي عبر جهنم والمطر . وأرشدته السيدة بتيريك Beatrice رمز الحب العظمى عبر المناطق السامية للمفرودوس . كما قاده القديس برنارد Bernard نموذج الطهارة في العصور الوسطى الى حضرة الذات العلية . وفي الكوميديا الإلهية أحاط دانتي بالعالم بأكمله لانسان

العصور الوسطى فى عمل أدبى واحد ، أمكن بواسطته الوصول بالانتاج الأدبى للعصور الوسطى الى صورة بلاغية مثالية .

### فن العمارة - من أوائل القرون الوسطى الى فن العمارة القوطى :

ان العصور الوسطى العالية من أشهر الفترات فى تاريخ فن العمارة الغربى . اذ تم اقامة أعداد هائلة من الكنائس الكبيرة والصغيرة باستخدام الأحجار : فى فرنسا وحدها زادت كمية الأحجار التى استخدمت فى العصور الوسطى العالية عن التى استخدمها بناء مصر القديمة فى بناء الأهرام والمعابد على امتداد تاريخها الذى امتد ثلاثة آلاف عام . غير أن الانجاز الحقيقى للمهندسين المعماريين فى العصور لم يكمن فى المجال الضخم لأنشطتهم وانما فى الابداع الرائع لرؤيتهم الجمالية . وسيطر على العصر نمطان معماريان الطراز المعماري الذى راج فى أوائل العصور الوسطى Romanesque Style والذى تطور فى القرن الحادى عشر ووصل الى حد النضج فى أوائل القرن الثانى عشر وخلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر تراجع رويدا رويدا أمام الطراز القوطى . وفى الفترة ما بين ١١٥٠ م الى ١٢٠٠ م تم بناء أشهر الكاتدرائيات القوطية فى العصور الوسطى . ومنذ ذلك الحين فصاعدا فقد النمط القوطى بعضا من قدرته على الابداع وذلك لأنه أصبح أكثر تعقيدا وافتقر الى الذوق الى حد بعيد ، بيد أن النمط القوطى شكل أحد التجارب المعمارية الناجحة والأكثر جراءة وذلك خلال العصور الوسطى العالية .

ويتأثر فن العمارة فى العصور الوسطى تأثرا شديدا باتجاهين ثقافيين أساسيين فى ذلك العصر . فأولا كانت الكاتدرائيات الكبرى نتاجا للثورة المدنية وظهور الورع الشديد بالمدن .

ثانيا : جرى التطور من فن المعمار فى القرون الاولى من العصور الوسطى الى الفن القوطى على خط مواز للتحوّل الذى لاحظناه من قبل فى الانتاج الأدبى والورع تجاه رقة المشاعر العاطفية والطابع الفردى والبطولى والخيالى Romanticism . وعلى الرغم من تميز طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى بالتنوع الشديد فى أسلوب التعبير فإنه

اتجه بصفة عامة الى الوفار الذى كان طابعا لحالة الورع. المسيحي الباكر ، وكذلك التركيز الدائم على عنصر الرجولة الموجود فى أغانى الأمال العظيمة Chansons de geste . ومن ناحية أخرى كان فن العمارة القوطى مقعما بالاثارة والتأثير فى النفس بل أنه مال الى عنصر الانوثة بعض الشيء ( فلقد تم تخصيص عدد كبير من الكاتدرائيات القوطية لسيدتنا . (Notre Dame

ان التحول من طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى الى الرراز القوطى يمكن أن يفهم أيضا على أنه تقدم فى القواعد العامة للمهندسة المعمارية . اذ كانت القنطرة المستديرة احدى المقومات المعمامية الرئيسية فى طراز الكنائس التى بنيت فى أوائل القرون الوسطى . وكان تصميم السقف قائما على اضافات متعددة القناطر المستديرة مثل العقد الاسطوانى والعقد المتقاطع وذلك من طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى . واحتاجت تلك السقوف الحجرية الثقيلة الى جدران سميكة لحملها وبها نوافذ التى كانت بالضرورة قليلة وصغيرة . ونقلت الكنيسة المقامة وفقا للطراز المعمارى الذى راج فى أوائل القرون الوسطى شعورا قويا الوحدة والصلابة الراسخة . ففتنطرها الضخمة وعقودها وجدرانها والجزء الداخلى المظلل والمعتم ، كل ذلك أعطى صورة خادعة للبصر بلالال الاسرار النصرانية والايمان بعالم الغيب . ورغم ذلك فقد أشار فى الوقت نفسه الى القوة الراسخة للكنيسة العالقة .

وفى منتصف القرن الثانى عشر صار الأب سوجر Abbot Suger المستشار الرئيسى للتاج الفرنسى رائدا للنمط القوطى الجديد بإدخاله عناصر جديدة رائعة فى بناء الكنيسة ديره فى سانت دينيس St. Denis وكانت القناطر المستدقة الرأس والأكتاف التى يدعم بها الجدران هى الملامح الرئيسية للنمط القوطى الذى انتشر فى ذلك الحين بسرعة الى خارج جزيرة فرنسا ile de France . وأفضت تلك الوسائل ووسائل معمارية متصلة بها الى تجربة فنية جديدة . وسمحت القناطر المستدقة الرأس لسقف الكاتدرائية أن يزداد فى الارتفاع . وفى ذلك الحين فقدت الكنائس خاصيتها الأرضية وبدأت تصل عنان السماء . وبأبسط التعابير فان القنطرة المستديرة فى الطراز المعمارى الذى راج فى أوائل العصور الوسطى أفضى الى بناء

تصميم أفقى بصفة أساسية فى حين أن القنطرة المستدقة الرأس فى الطراز القوطى أفضت الى التصميمات العمودية • ومن وجهة النظر الجمالية أوجد هذا التحول فى الاتجاه اختلافا هائلا •

وكانت الأكتاف التى تدعم الجدار وسائل لتخفيف العبء عن حوائط الكنيسة الناتج عن قوة دفع السقف الى الخامج والى أسفل • وباستخدام تلك الأكتاف فانها جعلت الجدران من الناحية المعمارية غير ضرورية وسمحت للمهندسين بتصميم النوافذ الضخمة التى ملئت فى العادة بالزجاج الملون اللامع الذى غمر الجزء الداخلى من الكنيسة القوطية بالضوء واللون • ولقد تم تزيين الجزء الخارجى من الكنيسة القوطية بالصور المنحوتة للنباتات والحيوانات والقديسين ورجال الدولة • وغالبا ماحاول فن النحت القوطى أن يحكى قصة عن طريق المناظر والاحداث المستمدة من الكتاب المقدس أو من حياة القديسين • وكان يتم هذا أحيانا بشكل صريح ، وأحيانا أخرى عن طريق الرمزية الدينية • وأحيانا لم يكن هناك رغبة عند النحاتين سوى تصوير مجموعة مختلفة عن العالم الطبيعى بالأحجار • وفى كثير من الأحوال نجح النحاتون فى تصوير النباتات والحيوانات والانسان بدرجة من الواقعية جديرة بالملاحظة •

وكانت الكاتدرائية عملا فنيا موحدا وعملنا الى حد بعيد • وإن ارتفاع صورتها الظلية التى أطلت بها على المدينة التى تقع بها ، فضلا عن جدرانها الداخلية الشامخة والمملوءة بالزخارف خلفت انطبعا مثيرا فى نفوس العابدين فى العصور الوسطى ظهر فى احساسهم بالورع والجلال • وبعد مرور سبعة قرون من الجذب الروحى والنفسى فمازالت تحتفظ بسحرها وجمالها •

### • ظهور الجامعات :

وعلى مثال الكاتدرائية القوطية كانت الجامعات تتأجج للمدينة فى العصور الوسطى • وتسببت ثورة المدن فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى تدهور المدارس الديرية القديمة التى فعلت الكثير من أجل الثقافة عبر القرون السابقة • وفى شمال جبال الألب حلت مدارس الكاتدرائية محل المدارس الديرية ، وفى ايطاليا حلت المدارس المحلية شبه العلمانية محل



المدارس الديرية . وظلت كل من مدارس الكاندرائيات والمدارس المحلية قائمة لفترة طويلة من الوقت بيد أنهما لم يحتلا درجة كبيرة من الشهرة الا فى القرن الحادى عشر . وصارت كثير من تلك المدارس مراكزا للتعليم العالى من نوع لم تكن تعرفه أوروبا منذ عدة قرون . وازدادت تنظيمات تلك الجامعات باضطراب ونمت كلياتها حتى تطور بعضها الى جامعات فى القرن الثانى عشر .

وفى العصور الوسطى كان تعبير جامعة غير واضح الى أبعد حد . وكانت كلمة جامعة تعنى جماعة من الأشخاص ارتبطوا معا من أجل اى هدف . فالكلمة كانت تطلق عادة على نقابات التجار والحرفيين فى المدن النامية . فالنقابة أو الجامعة من الدارسين والعلماء الذين يشامكون فى مواصلة الدراسة العليا أطلق عليهم اسما أكثر دقة وهو الدراسة العامة *Studium générale* . ولذلك عندما نتحدث عن جامعة العصور الوسطى فاننا نشير الى مؤسسة كان يطلق عليها انسان القرن الثالث عشر الدراسة العامة . انها تختلف عن المدارس الأقل فى ثلاث نواحى مهمة : ( ١ ) كانت الدراسة العامة مباحة للدارسين من كثير من البلاد وليست قاصرة على الذين يأتون من المناطق المحيطة بها . ( ٢ ) وكانت الدراسة العامة مدرسة كبيرة بها عدد من المدرسين وليس مجرد معلم واحد على قدر عال من المعرفة . ( ٣ ) وقدمت الدراسة العامة مناهج دراسية ابتدائية وعالية كما قدمت برنامجا أساسيا لتعليم « الفنون العقلية السبعة » التقليدية : علم الفلك ، علم الحساب ، الموسيقى ، علم النحو والصرف ، علم البلاغة ، وعلم المنطق ، وكذلك أيضا التعليم فى الفروع « الأعلى » الدراسات اللاهوتية والقانون ، والطب . وعند اتمام دراسة منهج الفنون السبعة العقلية بنجاح يستطيع الدارس أن يتقدم بطلب للحصول على اجازة رسمية لمزاولة التدريس . بيد أنه فى امكانه أيضا أن يستمر فى دراساته اذا مارغب للتخصص فى الطب ، واللاهوت ، أو الأكثر شيوعا - القانون الكنسى أو المدنى . وقدمت الثقافة القانونية مكافأتها بالعمل الادارى المربح فى الحكومة الملكية أو الكنسية .

وبصفة أساسية لم تكن الجامعة فى العصور الوسطى حرما جامعا أو عدة مباني ، وإنما قاعة كبرى - تحقق مزايا مشتركة للمدرسين وأحيانا للدارسين . وكانت الجامعة مؤسسة يمكن أن تنتقل من مكان الى آخر ،

نظرا لأن فصولها الدراسية كانت تنعقد فى حجرات مستأجرة ، وفى أكثر من مناسبة عندما تستاء الجامعة من الأحوال المحلية فإنها تحرز امتيازات من سكان المدينة بمنتهى البساطة وذلك بتهديدهم بالانتقال الى مكان آخر .

وفى القرن الثالث عشر وجدت الجامعات المزدهرة فى باريس وبولونيا Bologna ومونتبلين Montpelier ونابلى Naples وأكسفورد Oxford وكمبردج Cambridge وفى أماكن أخرى . وسيطرت جماعات من المعلمين للفنون السبعة العقلية على جامعتى باريس وأكسفورد . ومن ناحية أخرى أدار جامعة بولونيا جماعة من الدارسين الذين عملوا على تخفيض الأسعار المحلية الباهظة للطعام وأماكن الإقامة بالتهديد بالانتقال الجماعى الى مدينة أخرى ، ووضعوا قواعد صارمة ، والزموا المعلمين بالجامعة بالالتزام بها . وكان على الأساتذة بداية ونهاية المحاضرات فى الوقت المحدد ، وأن يتموا شرح المنهج المقرر كما لم يكن فى استطاعتهم مغادرة المدينة دون إذن خاص . ولاريب أن هذه الادارة التى مارسها الطلبة جنحت الى العنف . ومع ذلك فمن المهم الاشارة الى أن بولونيا تخصصت فى الدراسات القانونية ، وأن طلبتها كانوا من الدارسين الأكبر سنا - من الرجال الذين أكملوا دراساتهم لمناهج الفنون السبعة العقلية ، وكانوا حريصين على الحصول على تعليم كاف للعمل بنجاح فى مجال القانون .

وعلى الجملة كان طلبة الجامعات فى العصور الوسطى أكثر فظاظة وأكثر حيوية عن طلبة الجامعات الأمريكية فى أيامنا هذه ، وأوسع خيالا فى مراقبهم ، وأكثر عدوانية تجاه المدن المحيطة بهم . وهكذا تميز تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى بأعمال الشغب والاخلال بالأمن التى قام بها الطلبة فى المدن بشكل متكرر الحدوث فى فترات قصيرة . وتعرض الطلبة الجدد للسخرية بلا رحمة كما تعرض الاساتذة الأير محبوبين لاصوات الاستهجان والازدراء وعدم اعطائهم الفرصة لمواصلة الشرح عن طريق التشويش عليهم بأصوات عالية بل وصل الامر الى حد رشقهم بالحجارة . وكان معظم الطلبة من أصول متواضعة نسبيا - من المدن أو من الطبقات الأقل من طبقة النبلاء بيد أنهم كانوا راغبين فى قضاء أيامهم الدراسية فى فقر مدقع اذا ما اقتضت الضرورة لكى يحصلوا على المعرفة المطلوبة وأن

يعدوا أنفسهم للمكافآت الاقتصادية والاجتماعية القيمة التى كانت تنتظر العديد من الخريجين .

وعلى الرغم من الفرق الهائل بين الحياة الجامعية فى العصور الوسطى والحديثة فيجب أن يكون واضحا أن الجامعة الحديثة هى نتاج مباشر للمؤسسة التعليمية التى ظهرت فى أوروبا فى العصور الوسطى العالية .  
واننا لمدينين لجامعة العصور الوسطى بمفهوم اجازة التدريس الرسمية والتقليد الجامعى الذى لم يكن معروفا فى العصور القديمة الخاص بمجموعة من التعليمات ، وفكرة الدرجات العلمية الجامعية والفكرة العامة الخاصة بتدريس الفنون السبعة العقلية ، والتقليد الخاص بارتداء الطلبة والأساتذة الزى الاكليريكي ( القلنسوة والأرواب ) فى يوم التخرج . بل ان الخطابات التى أرسلها الطلبة فى العصور الوسطى الى آبائهم أو الأوصياء عليهم بها مسحة حديثة لافتة للنظر :

» اننى أحيطكم علما أنى أدرس فى جامعة أكسفورد بكل كد واجتهاد ، بيد أن مسألة المال تقف حجر عثرة فى طريق مواصلى الدراسة بشكل خطير. اذ قد مضى شهران على نفاد ماكنتم قد أرسلتموه الى . ان أسعار المدينة مرتفعة ولا قدرة لى على شراء سلعتها ، وعلى أن أستأجر غرفة وأن أشتري الضروريات وأن أتروذ بأشياء أخرى كثيرة لا أستطيع أن أذكرها بالتفصيل حاليا . ولذلك أتوسل الى حنانكم الابوى بكل احترام أن تساعدونى بعون الله، حتى أتمكن من اكمال مابدأته خيد بداية ، اذ أنه لابد وأنكم تعلمون أنه بدون سـسيريز Ceres وباخوس Bacchus يموت أبولو Apollo تدريجيا ، .

#### الطب والقانون :

كانت جامعة ساليرنو Salerno المدرسة الطبية الرئيسية فى أوروبا العصور الوسطى . وهناك بلد بها امتزاج ثقافى قوى كان العلماء قادرين على الاغتراف من التراث الاسلامى والبيزنطى . وبصفة عامة كان علم الطب فى العصور الوسطى مزيجا عجيبا من الملاحظة الخرافية البدائية . فمثلا نجد النصيحة التى تقول ان على المرء ان يأكل ويشرب باعتدال فى حين نجد أيضا أن البصل بعالج الصلع ، وأن بول الكلب علاج رائع للثوبل Warts

( ربما تكون السنطة ) ، وإن كل ما يجب أن يفعله المرء من أجل منع المرأة من الحمل هو أن تعصب رأسها بقطعة من القماش الأحمر اللون . ومع ذلك ففي وسط هذا الهراء فلقد تم احراز تقدم فى الطب . فكتابات جالينوس galen . الشهير الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى تمت دراستها واستيعابها ، فهى عبارة عن مزيج من المعرفة الطبية الأصلية وبالمثل المؤلفات المهمة لعلماء العرب فى الطب . ويضاف الى هذه المجموعة النفيسة من المعرفة ما قدمه العلماء الأوربيون فى ذلك الحين من اسهاماتهم الأصلية فى بعض الموضوعات مثل الخصائص العلاجية للنباتات وعلم التشريح الخاص بالجسم البشرى . ومن المحتمل أن علماء ساليرنو فى القرن الثانى عشر قاموا بإجراء تشريحات للحيوان والانسان . وعلى الرغم من أن تجارب هؤلاء الأطباء كانت مختلفة وبدائية فانهم وضعوا الأسس العامة لنهضة العلوم الطبية فى غرب أوروبا .

انصبت الثقافة القانونية فى العصور الوسطى على مجموعتين واضحتين من المواد - القانون الكنسى والقانون المدنى . وكانت الخلافات على تقليد رجال الدين سلطتهم الكهنوتية والصراعات المتتالية بين الدولة والكنيسة حافزا على دماسة القوانين الكنسية الى حد كبير . واغترف المتفقهون فى القوانين الكنسية فى بولونا Bologna ، وفى أماكن أخرى من السوابق القانونية المستمدة من الكتاب المقدس . ومن كتابات آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن المراسم البابوية ، والقرارات الخاصة بالمجامع ، وقاموا بتفسير وجهات النظر القانونية الصعبة . وجاهدوا من أجل التوفيق بين القوانين المتعارضة ، ورتبوا مجموعة ضخمة من القوانين الكنسية . وكان كثير من المتفقهين فى القانون الكنسى مؤيدين متحمسين للقضية البابوية ، وكرسوا ثقافتهم لهدف تقديم أساس قانونى قوى للدعوى البابوية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . تلك الدعوى التى أحرزت فوزا ساحقا . والواقع أننا علمنا أن الكثير من البابوات كانوا متفقهين فى القانون .

ومن ناحية أخرى نزع المتفقهون فى القانون المدنى الى تجميع الامبراطور والملوك الذين كانوا يعملون تحت امرتهم . اذ ان علم القانون المدنى قام فى اطار مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis للامبراطور جوستينيان التى تم دراستها بجد وكد لأول مرة فى الغرب فى

أواخر القرن الحادى عشر فى بولوتا Bologna • ويروق لعلماء العصور الوسطى العالية اعتبار القانون الرومانى مجموعة قوانين منطقية وشاملة بشكل فريد • وعلى الرغم أنها اجتوت على عنصر قوى من المبادئ الدستورية فإنها ورثت من عنصر جوستينيان اتجاهه نحو الحكم المطلق الامبراطورى الذى وضع موضع التنفيذ بشكل مؤثر على يد المتخصصين فى القانون فى بلاط الحكومات الملكية الصاعدة • وأصبح القانون الرومانى القاعدة الأساسية لمعظم الأنظمة القانونية فى القارة الأوروبية حيث ساعد على جعل الحكومة على الفور أكثر نظاما واستبدادا • ومن ثم لعب رجال القانون المدنى دورا مهما فى تطوير فرنسا من الحكومة الملكية الألمانية المحدودة لأسرة كاييه الباكرة الى الحكم المطلق الاستبدادى فى العصور الوسطى المتأخرة • وان التطور وقوة النظام النيابى فى انجلترا لمدى بالكثير لحقيقة وجود حكومة ملكية قوية قائمة على مبادئ القانون الجرمانى والتى كانت قائمة بالفعل قبل أن تشعر أوربا بالتأثير الكامل للنهضة القانونية الرومانية •

### الفلسفة والعلوم :

وكان من المتوقع لعصر شهد تلك التطورات السياسية والاقتصادية الشاملة وذلك الابداع القوى فى أساليب التعبير الفنية والدينية أن يحقق نجاحا جديرا بالذكر فى مجال الفكر النظمى • وكانت الفلسفة فى العصور الوسطى متنوعة الى حد بعيد • وتميزت بالفصول اللانهائى والجدل العنيف • ومن بين الابحاث المختلفة والآراء المتعارضة للمفكرين فى العصور الوسطى هناك ثلاث قضايا رئيسية تستحق اهتماما خاصا •

١ - مدى العلاقة المتبادلة بين الدين والعقل ، ٢ - والمزايا النسبية للتراث الفكرى للأفلاطونية الأوغسطينية Platonie Augustinian والتراث الفكرى الأرسطورى Aristotelian ٣ - وحقيقة الأفلاطونية الأصلية • العالمية وربما كانت مسألة الإيمان ازاء العقل أكثر الموضوعات الثلاث بعدا فى الأثر • فمنذ عهد تيرتولين Tertullion فى القرن الثالث الميلادى كان هناك مسيحيون أصروا على أن الله يسمو على قدرة العقل وأن أى محاولة للاقتراب منه باستخدام المنطق فهو ليس مجرد إجراء عديم الجدوى فحسب وإنما ضرب من الكفر • وان الصوفى هو الذى عرف الله

وليس اللاهوتى . وفى مواجهة هذا الرأى قدم فلاسفة العصور الوسطى من أمثال أنسلم Anselm وتوماس الأكوينى الدليل والحجة على أن الايمان والعقل هما وسيلة مزدوجة الى الحقيقة وأنهما فى الغالب يوصلان الى نفس النتائج . وأنه لا يحدث فى أى حال من الأحوال أن تتناقض نتائجهما .

وان التعارض بين نظم فكر أفلاطون - أوغسطين وأرسطو لم يظهر بوضوح حتى القرن الثالث عشر عندما وصلت الى الغرب المجموعة الكاملة لكتابات أرسطو فى الترجمات اللاتينية من اللغتين اليونانية والعربية . وحتى ذلك الحين فإن معظم جهود استخدام العقل فى فهم الدين كانت مبنية على التراث الأفلاطونى ، وتحولت وانتقلت الى الغرب فى العصور الوسطى على يد أوغسطين . وكثير من الفلاسفة من النوع الأكثر محافظة على القديم كانوا نزاعين الى الشك بشدة تجاه الكتابات الأرسطوية التى كشف الغطاء عنها مؤخرا واعتبروها من وجهة النظر وثنية وخطيرة على الدين . والآخرين من أمثال القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas ، كانوا فى غاية الاخلاص لهدف التوفيق بين الايمان والعقل الى الحد الذى لم يستطيعوا فيه أن يتجاهلوا أعمال رجل اعتبروه أعظم فلاسفة العصور القديمة . وحاول القديس توماس أن يخلص أرسطو كما كان قد حاول القديس أوغسطين تنصير أفلاطون . وفى منتصف عقود القرن الثالث عشر عندما وصلت فلسفة العصور الوسطى العالية الى أوجها ازدهر التراث الأفلاطونى والتراث الارسورى جنباً الى جنب . وفى أعمال بعض المفكرين الانجليز للعصر نجد أنهم حققوا اندماجاً مثيراً وفريداً .

حمل الخلاف بين الأفلاطونية - الأوغسطونية والأرسطوية فى العصور الوسطى بذور جدل آخر هادئاً ؛ مشكلة النموذج الاصلى أو الطراز البدئى أو العموميات . وقد أوضح أفلاطون أن التعبيرات من أمثال « كلب » و « انسان » و « قطة » لا تصف مخلوقات معينة فحسب وانما تمثل واقعا فى حد ذاتها . ذلك أن القطط ماهى الا انعكاسات غير تامة لقطة نموذجية ، قطة من الطراز البدئى أو العالمى . ومن ناحية ثانية فانتنا نطلق على بعض الافعال «خير» لأنها تشارك فى الخير العام الذى يوجد فى السماء . ويأقتصر فان هذه العموميات القطة والكلب والجمال والصالح ... الخ توجد بصرف النظر عن الأعداد التى لا حصر لها من القطط والكلاب والأشياء الطيبة

والجميلة فى هذا العالم . وعلى المرء الذى ينشد المعرفة ان يفكر مليا فى تلك العموميات فحسب ووافق القديس أوغسطين على نظرية أفلاطون عن العموميات مع تعديل واحد : ان الطراز البدئى وجد فى علم الله وليس فى عقولنا بعملية أطلق عليها أوغسطين « الاستنارة الالهية » . ووافق كل من أفلاطون وأوغسطين على أن الكون وجد بصرف النظر عن التخصيص . والواقع أن الكون أكبر حقيقة من التخصيص . وفى العصور الوسطى العالمية فان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة الأفلاطونية الأوغسطية لمعرفة العموميات عرفوا باسم الواقعيين اذ أنهم اعتقدوا أن العموميات أمر حقيقى .

وجلب التراث الاغسروى معه وجهة نظر أخرى عن العموميات ؛ انها موجودة بالتأكيد بيد أنها فى مجال التخصيص . ويستطيع البشر أن يحصلوا على معرفة العموميات عن طريق دراسة الأشياء الخاصة فى ظواهر العالم فحسب . فالعموميات كانت حقيقة واقعية بيد أنها فى ادراك أقل حقيقة عما اعتقد كل من أفلاطون وأوغسطين . وبناء على ذلك فان الفلاسفة فى العصور الوسطى الذين مالوا تجاه الموقف الأرسطورى عرفوا باسم « الواقعيون المعتدلون » .

غير أن فلاسفة العصور الوسطى لم يقيدوا أنفسهم بالخيار بين هاتين النظريتين . فالكثير منهم استنبط حلولاً بارعة من جهودهم . وفى أوائل القرن الحادى عشر أعلن الفيلسوف روزكيلينوس Roscellinus أن العموميات ليست حقيقة بالمرّة . وإنها مجرد أسماء أطلقها البشر على الطوائف الاعتبارية للأشياء . ان الحقيقة لا توجد فى التعميمات وانما فى التعددية وفى الأشياء المتنوعة التى نراها ونلمسها ونشم رائحتها فى العالم المحيط بنا . على أن الذين حذوا حذو روزكيلينوس فى هذا الرأى عرفوا باسم « الاسمائية » nominalist . ( هم أتباع مذهب فلسفى يقول ان المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقى وإنها مجرد أسماء ليس غير ) فبالنسبة اليهم ليست الكليات سوى أسماء Nomina وأن المذهب الفلسفى القائل بالمفاهيم المجردة أو الكليات ليست لها وجود حقيقى وإنها مجرد أسماء ليس غير . وتوارى مذهب الاسمائية nominalism فى البيئة الثقافية الفكرية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . بيد أنه ازدهر من جديد فى القرن الرابع عشر . واعتبر كثير من رجال الكنيسة أن هذا ازدهاراً فى العصور الوسطى

المذهب الفلسفى خطير لانه يؤكد على الفردية أكثر من الكليات • ويبدو انه أشار الى أن الكنيسة الكاثوليكية ليست هيئة عالمية فريدة تضم المؤمنين • من رجال الكنيسة الأخيار وانما هى مجرد حشد هائل من الأفراد المؤمنين •

وبعد أن درسنا القضايا الثلاث المهمة للفلسفة فى العصور الوسطى - العقل مقابل الالهام ، والأفلاطونية الأوغسطية تجاه أرسطو ، ومسألة الكليات - فسوف نرى كيف تطورت هذه القضايا فى أفكار الفلاسفة فيما بين القرن الحادى عشر والرابع عشر • وعرف فلاسفة تلك الفترة « باتباع المدارس Scholastics لأنهم كانوا مرتبطين بالمدارس السديرية ، والمدارس الكاتدرائية أو الجامعات • وظهروا لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر كنتائج للمصحوة التى بدأت أوميا تتأثر بها • وكان القديس أنسلم Anselm الشخصية الكبرى فى الفلسفة المدرسية scholastic philosophy

وكان إيطاليا مارس التدريس لسنوات عديدة فى مدرسة بيك Bec الديرية النشطة فى إقليم نورماندى • وبمرور الوقت تم تعيينه رئيسا لدير بيك • وفى سنة ١٩٥٠ م رئيسا لأساقفة كانتربرى ، وكرئيس للأساقفة ناضل أنسلم بقوة ضد ملوك إنجلترا من النورمان سبب مسألة تدخل العلمانيين فى تعيين رجال الدين • وأخيرا بعد أن وافق على تسوية بحل وسط للخلاف مات سنة ١١٠٩ م • وأبان مجرى حياته الراخر بالأحداث وجد أنسلم وقتا للتفكير والكتابة بعمق فى موضوعات مثل التكفير عن خطايا البشر عن طريق صلب المسيح • وامكانية تقديم الدليل العقلى عن وجود الله والعلاقة بين الايمان والعقل وشارك أنسلم بقوة فى التعاليم الافلاطونية - الاوغسطونية وكان مهما بشكل فريد تطوير الفكر فى العصور الوسطى بسبب ثقته فى أن العقل ليس متعامضا مع الايمان • وقام أنسلم بالتعليم بأن الايمان يجب أن يعطى على العقل • وأن العقل يمكن استخدامه لتوضيح الايمان وتأكيد على العقل ثم فى اطار الايمان المسيحى الراسخ وأعد المشرح للتطورات الفلسفية المهمة للأجيال التالية • وجعله فكره البارع فى التحليل بذكاء أكثر الفلاسفة الغربيين شغوة منذ وجود أوغسطين • وبفضل أنسلم استرد العالم المسيحى الغربى أخيرا المستوى الفكرى لفلسفة القرن الرابع الميلادى •

ان فلاسفة القرن الثانى عشر تأثروا على ما يبدو بالامكانيات المحدودة للعقل والمنطق وتقدموا بجسارة عبر الحدود الفكرية الجديدة فى الوقت الذى



كان فيه معاصريهم يزيدون من رقعة الصدود الجغرافية لأوربا . وكان بطرس ابيلارد Peter Abelard ( ١٠٧٩ - ١١٤٢ م ) أكثر المسيحيين العقلانيين فى القرن الثانى عشر شهرة وجراًة . وكان مدرسا محبوبا رائعا معددا بنفسه وانتهت حياته القصيرة فى مأساة وهزيمة .

وربما زادت من شهرة ابيلارد قصة حبه للفتاة هيلويز Heloise وانتهت تلك القصة بتحويل ابيلارد الى خصى على يد جماعة من قراع الطرق استأجرهم عم هيلويز الذى كان فى غاية الغضب . وتم التفريق بين المحبين بصفة دائمة والتحق كل منهما بالسلك الديرى . وفى السنوات التالية كتب ابيلارد بكل ندم عن غرامه العنيف فى قصة حياته التى كتبها بقلمه وسماها تاريخ كـوارثى History of my Calamities . ثم تبع ذلك رسائل متبادلة مؤثرة بين المحبين حيث اعترفت هيلويز التى كانت فى ذلك الحين رئيسة لدير راهبات بحبها الراسخ فى قلبها تجاه ابيلارد الا ان ابيلارد كتب اليها ككاهن الاعتراف تقريبا ولم يقدم لها العزاء الروحى . ومازالت حياة ابيلارد التى كتبها بقلمه وكذلك رسائله المتبادلة مع هيلويز باقية حتى يومنا هذا تقدم كلها الى الدارسين الحاليين صورة لقصة غرام عنيف فريدة فى الالفة والدفء والرقة وتقدم أيضا عنصرا مثيرا للشفقة فى مجتمع بعيد عن مجتمعنا الحالى .

كان ابيلارد أشهر علماء المنطق فى القرن الثانى عشر ونظرا لأنه كان يكتب لعدة عقود سابقة على التوفيق الكبير للفكر الأرسطوى فى الترجمة اللاتينية فانه سبق موقف أرسطو فى مسألة الكليات وذلك بتأييده نظرية معتدلة تقول أن للمادة وجودا حقيقيا مستقلا عن ادراكنا العقلى لها . واعتقد ابيلارد أن الكليات universals ليس لها وجود منفصل وانما نشأت عن الاشياء المفردة بعملية تجريدية . وفى مؤلف شهير يحمل عنوان نعم ولا Sic et Non جمع ابيلارد الآراء من الكتاب المقدس ، ومن الآباء اللاتين ، ومن المجامع الكنسية ، ومن القرارات البابوية ، فيما يتعلق بمجموعة كبيرة من المسائل اللاهوتية ، وأقام الدليل على أن تلك السلطات المقدسة غالبا ما اختلفت فى الرأى بشأن الامور الدينية المهمة . ولقد قام آخرون قبل ابيلارد بجمع الآراء الرسمية الخاصة بالمسائل المتعددة القانونية واللاهوتية بيد أن ما جمعه لم يكن على الاطلاق دقيقا . أو منظما . وانتهج ابيلارد فى كتابه

نعم ولا طريقة التحقيق التي تطورت ونمت على يد الدارسين للقانون الكنسي. والفلاسفة على امتداد الأجيال العديدة التالية . بيد أن خلفاء حاولوا التوفيق بين التناقضات والوصول الى قرارات نهائية في حين أن ابيلارد ترك كتيما من المسائل دون حل . ومن ثم جلب لنفسه عدااء المعاصرين له من المحافظين على القديم والمقاومين للتغير . وكان ابيلارد مسيحيا مخلصا . وان هناك شيئا من التفاخر الفكري غير أن كثيرين نظروا اليه على أنه كان نزاها الى الشك في مبادئ الدين بشكل خطير . ومن ثم ترك ابيلارد نفسه عرضه للهجمات الشديدة على يد رجال من أمثال القديس برنارد St. Bernard الذي كان معارضا بشدة لسمجة الايمان بالعقل . وتعرض المدرس اللامع للمطاردة من مكان الى آخر . وأخيرا تمت ادانته بتهمة اعتناق مبادئ دينية تتعارض مع مبادئ الكنيسة heresy سنة ١١٤١ م .

غير أن المذهب العقلي في القرن الثاني عشر كان أبعد من أن يكون مسألة فرد واحد ، كما أن اضطهاد ابيلارد فشل في أن يوقف نمو هذا المذهب العقلي . ففي أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر قويت الحركة بشدة عند وصول كميات هائلة من الكتابات اليونانية والعربية الى الترجمة اللاتينية . وأصبحت أجزاء مهمة من التراث العلمي والفلسفي للاغريق القدماء في متناول العلماء الأوربيين في ذلك الحين . وفوق كل ذلك فإن المجموعة الأرسطوية الكاملة وصلت في ذلك الحين الى الغرب عن طريق جهود المترجمين في كل من اسبانيا وصقلية .

وعلى أية حال كانت تلك الترجمات موفقة إذ جاءت استجابة لحالة الشوق الشديد من جانب المفكرين الغربيين للحصول على معرفة أكمل للتراث الكلاسيكي في الفلسفة والعلوم . ومع ذلك فإن مقدمات بعض الأعمال الأرسطوية الجديدة خلقت أزمة فكرية في العالم المسيحي لأنها احتوت على بعض المفاهيم الضمنية التي بدت معادية للايمان . على أن التعارض الجلي بين تلك الكتابات الأرسطوية والمسيحية تزايد نتيجة لأنها وصلت الى الغرب مصحوبة بتفسيرات الفيلسوف المسلم الاسباني ابن رشد Averroes الذي كانت معتقداته الدينية بعيدة جدا عن المعتقدات المسيحية . وأكد هذا الفيلسوف الشهير النزاع الى الشك على مذهب أرسطو القائل بأن العالم موجود منذ الأزل . ولذلك فانه غير مخلوق . وقام أيضا بتفسير فلسفة

أرسطو بطريقة أنكر فيها الخلود الشخصى • واستطاع ابن رشد العمل على التوفيق بين تلك الوجهات مع الاسلام الحنيف بطريقة فكرية لافتة للنظر عرفت باسم « مذهب الحقيقة الثنائية » وقدم ابن رشد الدليل على أن بعض الأفكار يمكن أن تكون صحيحة من وجهة نظر الدين المستتر فى القلب • وأن لوصول مذهب الحق الثنائى للغرب نتيجتين مهمتين •

( ١ ) ظهور مجموعة من المؤمنين « بأفكار ابن رشد من اللاتين » الذين أصروا على الصحة الفلسفية لأراء أرسطو الخارجة على المبادئ الشرعية للمسيحية ومع ذلك دافعوا عن الايمان المسيحى بكل صدق حتى لو تعارض مع العقل •

( ٢ ) والثانية هى ادانة بعض كتابات أرسطو على يد الكنيسة •

وفى مراجعة هذه الأفكار الفلسفية ظهرت فى منتصف القرن الثالث عشر جماعة جسورة من الرجال الذين نذروا انفسهم للتوفيق بين العقل والايمان والعمل على اندماج فلسفة أرسطو بالمسيحية • اذ حاولوا تفهيم آراء المؤيدين لفلسفة ابن رشد من اللاتين وذلك باقامة الدليل على أن العقل والوحى يشيران الى حقيقة واحدة لا الى حقيقتين • وكان كل من الفيلسوف الألمانى البرت الكبير Albertus Magnus وتلميذه الايطالى الشهير توماس الأكوانى Thomas Aquinas من أشهر الشخصيات فى هذا المجال • وكلاهما كان من الرهبان الدومينيكان ودرسا فى جامعة باريس وترامنا مع بوناڤنتور Bonaventure الفيلسوف الفرنسيسكانى الكبير الذى كان من أشهر مفسرى التراث الافلاطونى الاغسطوى • وأن التقاء هؤلاء الرجال جعل باريس فى منتصف القرن الثالث عشر أحد المراكز الفكرية الشهيرة فى التاريخ •

وأتجد القديس توما الأكوانى المزج الكامل للعقل والوحى فى أوربا النعصور الوسطى وفى بحثه المفصل والكامل فى علم اللاهوت قام القديس توما بدراسة تمهيدية عن كل المسائل الكبرى فى الفلسفة واللاهوت وعلم السياسة والأخلاق مستخدما طريقة أرسطو المنطقية وكانت مقولاته العشر فى الفكر فى توافق كامل مع الايمان المسيحى وإن كان قد وصل الى

استنتاجات • وحاول القديس توما تقديم الحجة والمنطق كمؤمن بالواقعية المعتدلة فيما يتعلق بمسألة الكليات *Universals* مستخدما التجربة المنطقية أكثر من الاستنارة الالهية • وكما فعل أبيقاراد قام توما بجمع كل حجة ممكنة الحجة المؤيدة والحجة المعارضة فى كل موضوع قام بدراسته غير أنه على عكس أبيقاراد استخلص النتائج • وقليل من الفلاسفة من قبل أو من بعد كانوا كرماء فى تقديم ودراسة الآراء المتعارضة مع آرائهم • ولم يكن هناك أحد على الإطلاق يعمل بنظام وانتقائ • ووجد القديس توما نظاما فكريا موحدا وهائلا يمتد من الله الى العالم الطبيعى مدعما بالمنطق فى كل خطوة • وكما أن الكاتدرائية القوطية كانت تجسيدا فنيا لعالم العصور الوسطى العالمية فان فلسفة الاكوانى كانت قمة التعبير الفكمى نظاما ولذلك السبب أطلق على البحث الشامل فى علم اللاهوت *Summa Thiológica* كاتدرائية الفكر •

وحتى يومنا هذا يوجد هؤلاء الذين يؤيدون فلسفة الاكوانى بصفة أساسية • غير أنه من ناحية أخرى فان كثيرا من معاصريه فى القرن الثالث عشر عارضوا فلسفته اما كلية أو الى حد ما • اذ كان المفكرون الفرنسيون من أمثال بوناڤنتور *Bonaventure* نزاعين الى الشك والارتياب بصفة أساسية فيما يتعلق بالأفكار الدالة على البراعة *tour de force* لهذا الدومنيكان الموهوب • ففى انجلترا ظهرت أفكار معارضة لأفكار توما بشدة رويدا رويدا فى القرن الثالث عشر وهى وجهة نظر ضمت التراث الرياضى لأفلاطون والتراث التجريبي لأرسطو ووجهتهما تجاه البحث فى العالم المادى • وقد ولد العلم الأوروبى فى انجلترا فى القرن الثالث عشر •

اذ كان العالم الانجليزى الشهير روبرت جروسستيس *Robert grossteste* ( ت ١٢٥٣ م ) على علاقات وثيقة بالفلسفة الأفلاطونية المحدثه ، وعلم الطبيعة الارسطوى ، والتراث العلمى الاسلامى الخصب • وشارك بدور ريادى فى تطور الطريقة العلمية وذلك بتحديد معالم منهج الملاحظة والفرضية والتجربة وباللجوء الى استعمال التحليل الرياضى كلما كان ذلك ممكنا • وكمثل الرواد الآخرين سلك روبرت جروسستيس كثيرا من السبل الخاطئة - اذ أن تفسيراته عن الألوان والحرارة واقواس قزح لقيت معارضة فى القرون التالية بيد ان طريقه التجريبية التى دافع عنها تطورت على أيدي خلفائه الى أداة فكرية قوية الى حد بعيد • وقام احد تلاميذ

جروستيسيت وهو روجر بيكون الفرنسيسكاني Franciscan Roger Bacon ( حوالى ١٢١٤ - ١٢٩٤ م ) باجراء مجموعة مهمة جدا من التجارب العلمية المعقولة وغير معقولة كما كان روجر بيكون مؤيدا للتجارب العلمية أكثر من كونه ممارسا دائما لها بيد أنه فى أحسن أحواله كان معلما ملهما تقريبا .

فالعلم التجريبي يتحكم فى استنتاجات كل العلوم الأخرى وأنه يكشف عن الحقائق المستنبطة من المبادئ العامة ( التى لم يتم الكشف عنها بطريقة كل من أبليلارد والقديس توما ) وأخيرا فإنه يضعنا على بداية الطريق الى الاختراعات المدهشة التى سوف تغير وجه العالم .

ومن ثم فإن الشايط الفكرى الجاد فى القرن الثالث عشر تمخض عن كل من المزيج الاسمى للمذهب العقلى المسيحى ونقطة البداية لطريقة جديدة للبحث العلمى وفى ميدان الفكر كما فى كثير من المجالات كان القرن الثالث عشر متسما بالنشاز التأليفى والابداعى . وعند اقتراب نهاية القرن الثالث عشر اضمحل شأن المزيج الفكرى الذى أوجده القديس توما نتيجة لشكوك خلفائه الذين بدأوا يشكون فى أن محاولته للتوفيق بين العقل والوحى انما كان يحاول تحقيق المستحيل . ومال الفلاسفة اللاحقون الى فصل المجالين أكثر فأكثر . ومال كثيرا منهم الى العودة الى نظرية ابن رشد الخاصة « بالحقيقة الثنائية » : على أن نظم التعميم Universal systems كتلك التى تخص القديس توما لم يقدر لها البقاء الا نادرا بيد أنه لسنوات قلائل صور مذهب توما الفلسفى Thomism للكثيرين الاندماج الكامل للفكر والعقيدة للعقل والروح . كما أخذ مذهب توما الفلسفى مكانه جنبا الى جنب مع الكاتدمائية القوطية . والكوميديا الالهية لدانتى . وكذلك ومع القديس فرنسيس كتعبير ناضج للانبعاث الملىء بالقوة والنشاط فى أوروبا العصور الوسطى العالية .

وصفت بعض الكتب الدراسية عالم العصور الوسطى العسالية بأنه سادها الخمول والكآبة والتحجر الفكرى . وفى الطرف الآخر فلقد تم وصف عالم العصور الوسطى العالية على أنه كان مجتمعا مثاليا خاليا من المخاوف والتوترات حيث استطاع الناس من كل المجتمعات العيش فى سعادة وبطبيعة

خلاقة • والواقع أنه كان عصر الحيوية ، والتباين لافت للنظر ، والمخاوف الشديدة، والآمال الكبار، والفقر المدقع ، فى أغلب الاحوال، وان كان قد اتخذ سبيله الى التلاشى تدريجيا • وقبل كل شئء فلقد كان عصرا أدرك فيه الأوروبيون المجموعة المتنوعة والوافرة من الامكانيات التى كانت فى متناولهم وقام شاعر فى القرن الثالث عشر ابان احتفال الربيع باثارة الانتباه تجاه روح هذه الصحوة :

تألفت الأرض فتنة وسحرا من جديد  
بالأزهار المزهرة  
واخضرت الحقول ثانية  
وصارت الظلال وافرة  
وأورقت الغابات من جديد  
والعالم كله فى فرح شديد  
وهذه الأرض القاحلة منذ عهد بعيد  
تنبض بالحيوية من جديد  
وتدفقت المشاعر  
بمولد الحب من جديد  
وصحا الجمال من رقاده الشديد

**Suggested Readings :**

**The asterisk indicates a paperback edition :**

**General Works :**

R.W. Southern, *The making of the Middle Ages* (\* Yale). A brilliant sympathetic interpretation of the eleventh and twelfth centuries. Frederick Heer, *The Medieval World* (\* Mentor). Heer contrasts twelfth century expansion with thirteenth century Stabilization.

**Economic History and the Frontiers :**

Henri Pirenne, *Economic and Social History of Medieval Europe* (\* Harvest). A compact, richly interpretative survey by a great Scholar. Henri Pirenne, *Medieval Cities* (\* Anchor). Brief, lucid and highly original.

Sidney Painter *Medieval Society* (\* Cornell) A short, introductory Essay.

Steven Runciman, *A History of the Crusades*; (3 vols, Cambridge University Press; vol. I : (\* Harper). Comprehensive and Authoritative.

**Empire and Papacy :**

Geoffrey Barraclough, *Medieval Germany, 911-1250* (2 vols., Blackwell). Volume I is a valuable introductory essay; Volume II consists of specialized studies by German scholars in English Translation.

Gerd Tellenbach, *Church, State and Christian Society* (Blackwell). The finest analysis of the Investiture Controversy in English. Walter Ullmann, *The Growth of Papal Government in the Middle Ages* (Methuen). An intellectual history of the medieval papal ideology.

Ernst Kantorowicz, *Frederick II*, An excellent biography. Kantorowicz's conclusions should be compared with those of Bar-clough in his *origins of Modern Germany* (\* Capricorn). Innocent III, *Vicar of Christ Lord of the World?*, J.M. Powell (Ed.). (\* Heath), *Essays by historians representing diverse viewpoints.*

For high medieval England, the appropriate Volumes of the Monumental Oxford History are authoritative but rather heavy: A.L. Poole, *From Domesday Book to Magna Carta*. E.M. Powicke the thirteenth century. For a lighter treatment of the period see *Especially* : Christopher Brooke, *from Alfred to Henry III* (Thoman Nelson).

Helem M. Cam, *England Before Elizabeth* (\*) Very brief but Excellent.

Robert Fautirer, *The Capetian Kings of France* (\* St. Martin's) A short, masterful treatment, highly recommended. Amy Kelly, *Eleanor of Aquitaine* (\* Vintage). Sound and entertaining.

#### **Christianity in the high Middle Ages :**

Norman E. Contor, *Medieval History* (Macmillan). A recent, highly interpretive textbook, particularly strong on matters ecclesiastical.

Summerfield Baldwin, *The Organization of Medieval Christianity* (Holt). A short introductory essay. Steven Runciman, *The Medieval Manichee* (\* Compass Books). A Penetrating investigation of medieval heresy.

Paul Sabatier, *St. Francis of Assisi* (Scribners). A masterly Older Study, deeply, sympathetic to St. Francis.

#### **Thought, Letters, and the Arts :**

F.C. Copleston, *Medieval Philosophy* (\* Harper). A popular introduction by a leading scholar. Gordon Leff, *Medieval thought* (\* Penguin). A survey which emphasizes the development of metaphysics.



C.H. Haskins, *The rise of the universities* (\* Carnell). Short and Highly Competent; a pleasure to read. C.H. Haskins, *The Renaissance of the twelfth century* (\* Meridian). An epoch-making Book, Particularly strong in the area of latin literature. Erwin Panofsky, *Gothic Architecture and scholasticism* (\* Meridian), A Challenging study which endeavors to demonstrate lines of connections between these two great medieval enterprises.

C.H. McIlwain; *The growth of political thought in the west* (C.H. McIlwain, *The growth of political thought in the west* (Macmillan). The preferred, one- volume account of medieval political theory.

#### Sources :

*The portable medieval reader*, Tr. J.B. Ross and M. McLoughlin (\* Viking). Like Cantor's medieval world, a useful, well chosen selection of medieval sources in translation.

*Documents of the Christian Church*, Tr. Henry Bettenson (Oxford). A useful collection running from antiquity to the present. *The little flowers of St. Francis* Tr. L. Sherley-Price (\* Penguin). A fascinating collection of sources relating to the life of St. Francis. *Otto of Freising, the deeds of Frederick Barbarossa*, Tr. C.C. Mierow and R. Emery (Columbia). A good example of medieval historical writing.

*Memoirs of the Crusades* : Villehardouin and Joinville, Tr. Sir Frank Marzials (Everyman). Excellent contemporary accounts of the fourth crusade and the crusading adventures of St. Louis. *The portable Dante*, Tr. Paole Milano (\* Viking). Good translations of the Divine Comedy and other works.

*Introduction to St. Thomas Aquinas*, Anton C. Pegis (Modern Library). Intelligently chosen selection together with a stimulating introduction.



## محتويات الكتاب

| الموضوع   | صفحة    |
|---|---------|
| مقدمة المترجم . . . . .                                   | ٣ - ٤   |
| فاتحة الكتاب . . . . .                                    | ٥ - ٦   |
| مقدمة الكتاب . . . . .                                    | ٧ - ١٠  |
| ★ القسم الأول : روما العظيمة والتدهور . . . . .           | ١١ - ١٢ |
| ١ - الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها :                 |         |
| القرنين الأولين للميلاد - الأدب والفكر الرومانى . . . . . | ١٣ - ٢٠ |
| ٢ - المسيحية : الخلفية ، الانتشار ، الانتصار :            |         |
| الدين الرومانى - الطوائف ذات الطقوس السرية -              |         |
| الأفلاطونية المحدثة - ظهور المسيحية - الكنيسة الباكرة     |         |
| - المسيحية والحضارة اليونانية - المسيحية                  |         |
| والامبراطورية . . . . .                                   | ٢١ - ٢٣ |
| ٣ - الامبراطورية الرومانية المتأخرة :                     |         |
| القرن الثالث الميلادى - إصلاحات نيكلايانوس - عهد          |         |
| (قنسططين) - الامبراطورية المسيحية - علماء لاهوت           |         |
| الكنيسة اللاتينية . . . . .                               | ٢٤ - ٤٩ |
| ٤ - تدهور روما والغزوات الجرمانية :                       |         |
| التدهور والسقوط - الشعوب الجرمانية - غزوات البرابرة       |         |
| أوربا سنة ٥٠٠ م . . . . .                                 | ٥٠ - ٦٦ |
| ★ القسم الثانى : العصور الوسطى الباكرة : بداية            |         |
| تكوين الحضارة الغربية . . . . .                           | ٦٧ - ٦٨ |

| الموضوع  | صفحة    |
|--|---------|
| ٥ - بقاء البيزنطة :  |         |
| بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية - الحكومة<br>البيزنطية - المسيحية البيزنطية - الثقافة البيزنطية -<br>عصر جوستينيان - الاتجاه نحو الشرق - المحنة والبقاء -<br>التراث البيزنطى . . . . . | ٦٩ - ٨١ |

|  |         |
|--|---------|
| ٦ - الغرب المتغير :  |         |
| العصور المظلمة - التغير الاقتصادي والاجتماعى -<br>غرب أوروبا سنة ٦٠٠ م - فاعلية العصور المظلمة -<br>الديرية المسيحية الباكورة - الديرية البندكتية - البابا<br>جريجورى الكبير - اعتناق انجلترا للمسيحية - الكنيسة<br>والحضارة الغربية - الجدول الكرونولوجى للمقرنين<br>السادس والسابع . . . . . | ٨٢ - ٩٦ |

|  |          |
|--|----------|
| ٧ - ظهور الاسلام :   |          |
| الاسلام ، وبيزنطة ، والعالم المسيحى الغربى - محمد<br>( صلى الله عليه وسلم ) - الاسلام - الفتوحات الاسلامية<br>الأولى ( ٦٣٢ - ٦٥٥ م ) الحرب الأهلية ( ٦٥٥ - ٦٦١ )<br>- الأمويون ( ٦٦٦ - ٧٥٠ م ) - العباسيون ( ٧٥٠ -<br>١٢٥٨ م ) - الثقافة الاسلامية . . . . . | ٩٧ - ١١٠ |

|  |           |
|--|-----------|
| ٨ - أوروبا الكارولنجية ( ١ )   |           |
| أوروبا الجديدة - تكنولوجيا الزراعة - النهضة السياسية<br>الفرنجية - الاصلاح البندكتى - التحالف الفرنجى البابوى<br>- شارلمان ( ٧٦٨ - ٨١٤ م ) - امبراطورية شارلمان -<br>التيوقراطية الكارولنجية . . . . . | ١١١ - ١٢٤ |

| الموضوع   | صفحة      |
|---|-----------|
| ٩ - الغزوات الجديدة :   |           |
| النهضة المتوقفة - الكارولنجيون المتأخرون - غزوات العرب والهنغار - الفايكنج - الفايكنج في العالم المسيحي الغربي - الفايكنج في شمال الأطلسي وشرق أوروبا - غروب شمس عصر الفايكنج . . . . .   | ١٢٥ - ١٣٥ |
| ١٠ - بقاء أوروبا بعد زوال الحصار :  |           |
| رد فعل الغزوات : إنجلترا - تجدد الهجوم الدانمركي ردود فعل الغزوات : النظام الاقطاعي الفرنسي - ردود فعل الغزوات : ألمانيا - الامبراطورية الألمانية - أوروبا قبيل العصور الوسطى العالية . . . . .   | ١٣٦ - ١٥٧ |
| ★ القسم الثالث : العصور الوسطى العالية .  | ١٥٨ - ١٥٩ |
| ١١ - الثورة الاقتصادية والحدود الجديدة :  |           |
| العصور الوسطى العالية ١٠٥٠ - ١٣٠٠ م - المدن والتجارة - تدهور الاقطاع - تطور الحياة الزراعية - الحدود الجديدة - أسبانيا - صقلية وجنوب إيطاليا - الحروب الصليبية ( الحروب الدينية المسيحية التي باركتها الكنيسة ) - التوسع الألماني تجاه الشرق . . . . .              | ١٦٠ - ١٦١ |
| ١٢ - الامبراطورية والبابوية :   |           |
| الخلفية التاريخية للصراع - حركة الاصلاح - الخلاف على تقليد المنصب الديني - عصر فريديريك باربا روسا ( ١١٥٢ - ١١٩٠ م ) علو نجم البابوية في العصور الوسطى فريديريك الثاني ( ١٢١١ - ١٢٥٠ م ) - فشل الامبراطورية في العصور الوسطى - البابوية بعد اثوسنت الثالث . . . . . | ١٧٩ - ٢٠٠ |

### ١٣ - انجلترا وفرنسا :

الحكومة الملكية الأنجلو - نو رمانية - هنرى الثانى  
( ١١٥٤ - ١١٨٩ م ) - ريتشارد وحنا - هنرى الثالث  
وادوارد الأول - أسرة كابيه الباكورة - لويس السادس  
والسابع - فيليب ( أوغسطس ١١٨٠ - ١٢٢٣ م ) -  
لويس الثامن ( ١٢٢٣ - ١٢٢٦ م ) - القديس لويس  
( ١٢٢٦ - ١٢٧٠ م ) - فيليب الثالث ( ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م )  
- فيليب الرابع ( الوسيم ١٢٨٥ - ١٣١٤ م ) . . . ٢٠١ - ٢٢٤

### ١٤ - الأبعاد الجديدة للمسيحية فى العصور الوسطى :

الكنيسة فى العصور الوسطى - الأزمة البندكتية - الحياة  
الرهبانية الجديدة - الطوائف التى لا تؤمن بالمتذهب  
الكاثوليكي ومحكمة التفتيش - الرهينة التى تعيش على  
الصدقات . . . . . ٢٢٥ - ٢٤١

### ١٥ - الفكر والآداب والفنون :

القوى المحركة لثقافة العصور الوسطى العالية - الانتاج  
الأدبى - فن العمارة : من أوائل القرون الوسطى الى فن  
العمارة القوطى - ظهور الجامعات - الطب والقانون -  
الفلسفة والعلوم . . . . . ٢٤٢ -



